

شرح كتاب حلية طالب العلم

قام برفعه على الانترنت ولأول مرة

منذر فؤاد أبو سعيد

monzer_abo_sa3ed@hotmail.com
monzer_abo_sa3ed@hotmail.com

www.sh-fa.net

سلسلة تيسير طلب العلم

شرح كتاب

حلية طالب العلم

شرح فضيلة الشيخ

محمد بن صالح بن عثيمين

رحمه الله

منذر أبو سعيد

محقق

أبرار الله / محمد بن مكي بن عبد الرقاب

monzer_abo_sa3ed@hotmail.com

اعتنى به رعيها

مكتب دار البصيرة

بالإسكندرية

فلسطين - غزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

لدار البصيرة

لصاحبها / مصطفى أمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار البصيرة

جمهورية مصر العربية

الإسكندرية - ٢٤ ش كانوب - كامب شيزار - ت: ٥٩٠١٥٨٠

شرح كتاب

حليّة طالب العلم

لفضيلة الشيخ
بكر بن عبد الله أبو زيد

شرح فضيلة الشيخ
محمد بن صالح بن عثيمين
رحمة الله

تحقيق
أبو مالك / محمد بن هادي بن عبد الرهّاب

اعتنى به ربيعاً ومهما
مكتب دار البصيرة
بالاسكندرية



المقدمة

الحمد لله الذي امتنّ علينا بإرسال رسوله ﷺ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٤). والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام العالمين، القائل: «العلماء ورثة الأنبياء»، فهم ورثته ﷺ، القائمون في أمته بمهمة البلاغ والتعليم، وتبيين الحلال والحرام، أعلى الله قدرهم في الدنيا والآخرة، وجعلهم لنا حجة تهتدي بهم في الظلمات، وحاجتنا إليهم أشد من حاجتنا إلى الطعام والشراب. هم مناهل الأرض ومنابعها، وهم نجومها وزينتها، نجوم إذا انطمست ضلّ السالكون طريقهم، وكواكب إذا تهاوت تاهت عنهم مسالكهم، أثنى الله عليهم، رافع مقامهم ونوّه بذكرهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا لِكَلِمَةِ اللَّهِ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة المجادلة: ١١). وخصهم نبينا محمد ﷺ بالفضل الأسنى في الخلق شتى، في مثل قوله: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةُ فِي سَجَرٍهَا وَحَتَّى الْحَوْتَ لِيُصَلُّوا عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الْخَيْرِ»^(١)

هكذا شأن العلماء، وطلبة العلم. ولكن شتآن بين عالم وعالم، وبين طالب وحبيب، وما هو حليته وزينته، فيها يعلو قدره، ويزين أمره وشأنه، وعليه تتراحم القربى، وتأتي الأفواج من كل حذب.

(١) رواه الترمذي: (٢٦٨٥).

وما أحوج طلبة هذا الزمن بهذه الحلية المباركة النافعة إن شاء الله، لاسيما وإنها صادرة من عالم صنديد، جهبذ عتيد، شامخ في العلم متين. فإذا اجتمع معه شارحها علم الأعلام، وسيد العلماء، وبقية السلف سيدنا وشيخنا وإمامنا أبي عبد الله محمد بن صالح العثيمين - قدس الله روحه - فشدَّ عليها بيديك، وعُضَّ عليها بالنواجذ، عسى أن تنفعك وأنت سائر في مرحلة الطلب.

هذا وأسأل الله العلي العظيم أن ينفع بها كل من قرأها واطلع عليها، وأن يثيب مؤلفها وشارحها ومراجعها وناشرها خير الجزاء هو ولي ذلك ونعم الوكيل.

وكتب أبو مالك

محمد بن حامد بن عبد الوهاب

كفر الشيخ في ١٤/٤/١٤٢٢هـ

منذر أبو سعيد

التعريف بالمؤلف

حفظه الله

❖ النشأة:

ولد فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد أول ذي الحجة عام ١٣٦٤ هـ من قبيلة بني «زيد» القبيلة القضاعية المشهورة في وسط نجد، وهو من مدينة «شقرا» ثم «الدوادمي» حيث ولد فيها.

نشأ نشأة كريمة في بيت صلاح وثناء وعراقة نسب. درس بالكتاب ثم التحق بالمدرسة الابتدائية وأكملها في مدينة الرياض حيث واصل جميع مراحل التعليم في الابتدائي ثم المعهد العلمي ثم كلية الشريعة ثم المعهد العالي للقضاء.

❖ حياته العلمية ومشايخه:

أخذ اللغة العربية عن الشيخ صالح بن عبد الله بن مطلق القاضي المتقاعد في الرياض، وكان يحفظ من مقامات الحريري «٢٥» مقامة بشرحها لأبي العباس الشريشي، وقد ضبطها عليه، وأخذ عنه علم الميقات وحفظ منظومته المتداولة على السنة المشايخ، وقد انتفع انتفاعاً بالغاً من رحلته إلى مدينة رسول الله ﷺ منذ عام ١٣٨٣ هـ حيث أخذ علم الميقات أيضاً عن بعض المشايخ، ولازم شيخه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - وقرأ عليه عدد من الرسائل، ودرس عليه كتاب الحج من المنتقى في المسجد الحرام. ولازم شيخه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - المتوفى عام ١٣٩٣ هـ عشر سنين دأباً في المسجد النبوي وفي دروسه فيه في عصر رمضان وفي منزله وقرأ عليه بعض تفسيره «أضواء البيان» والجزء الأول من

منذر أبو سعيد

«آداب البحث والمناظرة» ومواضع من «المذكرة في أصول الفقه» وعلم النسب في كتاب ابن عبد البر «القصد والأهم في أنساب العرب والعجم» ونبذ سواها، وقد أثر فيه الشيخ - رحمه الله - تأثيراً بالغاً، وهو الذي حُبب إليه النظر في لسان العرب وأصول اللغة العربية حتى صار لها التأثير الظاهر عليه في أسلوبه وبيانه. وبالجملة فقد كان مختصاً به وتخرج على يديه وكان مغرمًا بتحصيل الإجازات العلمية في كتب السنة وله ثبت في هذا.

وقد تخرج في كلية الشريعة ١٣٨٣ منتسباً وكان ترتيبه الأول من بين الخريجين وأختير للقضاء، فعمل قاضياً في محكمة المدينة النبوية الكبرى منذ عام ١٣٨٨ حتى نهاية عام ١٤٠٠ هـ، وفي عام ١٣٩٠ هـ عين مدرساً بالمسجد النبوي الشريف فدرس فيه الفرائض والحديث واستمر حتى عام ١٤٠٠ هـ، ثم عين بعدها بسنة وكيلاً لوزارة العدل واستمرت الوكالة حتى عام ١٤١٣ هـ، وعُين أيضاً عضواً لمجلس القضاء الأعلى بهيئته العامة - ثم ممثلاً للمملكة في مجمع الفقه الإسلامي الدولي، وعُين رئيساً له منذ عام ١٤٠٥ هـ حتى تاريخه، وعين أيضاً عام ١٤٠٥ هـ عضواً في المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي وفي عام ١٤١٣ هـ عُين عضواً في هيئة كبار العلماء وعضواً في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

وفي أثناء عمله في القضاء واصل دراسته منتسباً في المعهد العالي للقضاء، فتحصل منه على الماجستير والدكتوراه.

❖ كتبه ومصنفاته:

- للشيخ - حفظه الله - مؤلفات عدة امتازت بالدقة في البحث، والجزالة في الأسلوب طبع منها نحو «٥٠» مؤلفاً، منها:
- ١ - ابن القيم - حياته وآثاره وموارده.
 - ٢ - التقريب بعلوم ابن القيم.

منذر أبو سعيد

- ٣ - لغة النوار / مجلدان.
- ٤ - معجم المناهي اللفظية.
- ٥ - طبقات النسابين.
- ٦ - معرفة النسخ الحديثة.
- ٧ - التحديث فيما لا يصح فيه حديث.
- ٨ - عقيدة بن أبي زيد القيرواني.
- ٩ - لا جديد في أحكام الصلاة.
- ١٠ - تحقيق كتاب «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» للعامري.

سأل الله للشيخ بكر التوفيق والسداد، نفعنا الله بعلمه ومتعه بطاعته، هو ولي ذلك ونعم الوكيل.



منذر أبو سعيد

التعريف بالشارح

رحمه الله

* اسمه:

هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهيبي التميمي .

* مولده:

ولد سماحة الشيخ - رحمه الله - في مدينة عنيزة، إحدى مدن القصيم في ٢٧
ربيعان ١٣٤٧ هـ.

* نشأته:

قرأ القرآن الكريم على جده من جهة أمه عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ،
 ثم اتجه إلى طلب العلم، فتعلم الخط والحساب، وبعض فنون الآداب، وكان
 الشيخ قد رزق ذكاءً، وهمة عالية، وحرصاً على التحصيل العلمي، في مزاحمته
 بالرقب للعلماء، وفي مقدمتهم الشيخ العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمن بن ناصر
 السعدي، وكان الشيخ عبد الرحمن قد أقام اثنين من طلابه لتعليم الصغار، وهما
 الشيخ علي الصالحي، والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، فقرأ الشيخ محمد -
 رحمه الله - عليهما «مختصر العقيدة الواسطية» للشيخ عبد الرحمن السعدي،
 و«نهاج السالكين في الفقه» للشيخ السعدي أيضاً، و«الآجرومية»، و«الألفية»، في
 النحر والصرف.

وقرأ علي الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان في الفرائض والفقه.

وقرأ على الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي الذي يعتبر شيخه الأول، حيث لازمته وقرأ عليه التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والفرائض ومصطلح الحديث والنحو والصرف.

❖ حياته العلمية:

لما فتحت المعاهد العلمية في الرياض التحق بها عام ١٣٧٢هـ، يقول الشيخ - رحمه الله - : «دخلت المعهد العلمي من السنة الثانية، والتحقتُ به بمشورة من الشيخ عليّ الصالحي، وبعد أن استأذنت من الشيخ عبد الرحمن السعدي - عليه رحمة الله - وكان المعهد العلمي في ذلك الوقت ينقسم إلى قسمين خاص وعام، فكنت في القسم الخاص، وكان في ذلك الوقت أيضاً من شاء أن يقفز - كما يعبرون - بمعنى أنه يدرس السنة المستقبلية له في أثناء الإجازة ثم يختبرها في أول العام الثاني، فإذا نجح انتقل إلى السنة التي بعدها، وبهذا اختصرت الزمن» أ. هـ.

وبعد سنتين تخرج وعُين مدرساً في معهد عنيزة العلمي مع مواصلة الدراسة انتساباً في كلية الشريعة مع مواصلة طلب العلم على يد الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - .

ولما توفي الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - عام ١٣٧٦هـ، تولى الشيخ محمد - رحمه الله - إمامة الجامع الكبير بعنيزة والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية، بالإضافة إلى التدريس في المعهد العلمي، ثم انتقل إلى التدريس في كليتي الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم، وما زال بها حتى توفاه الله - رحمه الله عليه - بالإضافة إلى عضوية هيئة كبار العلماء بالملكة العربية السعودية.

منذراً أبو سعيد

❖ تصانيفه ومؤلفاته:

- ١ - إزالة الستار عن الجواب المختار لهداية المختار.
- ٢ - أصول في التفسير.
- ٣ - الأصول في علم الأصول.
- ٤ - الضياء اللامع من الخطب الجوامع.
- ٥ - القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى.
- ٦ - القول المفيد على كتاب التوحيد.
- ٧ - شرح العقيدة الواسطية.
- ٨ - شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري.
- ٩ - شرح كشف الشبهات.
- ١٠ - شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد.

❖ مرضه ووفاته:

توفي الشيخ - عليه سحائب الرحمة - يوم الأربعاء الموافق الخامس عشر من شوال عام ١٤٢١ هـ.

نسأل الله العليّ القدير أن يتغمده برحمته، وأن يعلي قدره ومنزلته ويحشره مع الصالحين والشهداء.

منذراً أبو سعيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، اللهم
صل وسلم عليه، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه.
أما بعد:

فأقيد معالم هذه «الحلية» المباركة عام ١٤٠٨هـ، والمسلمون - ولله الحمد -
يعيشون لحظة علمية، تنهل لها سُبُحات الوجوه، ولا تزال تنشط - متقدمة
إلى الترقّي والنضوج - في أفئدة شباب الأمة مجدها ودمها المجدد لحياتها؛ إذ
نرى الكتاب الشبابة تترى، يتقلبون في أعطاف العلم مثقلين بحمله يعلون
منه وينهلون، فليدبرهم من الطموح، والجامعية، والاطلاع المدهش، والغوص على
مكنونات المسائل، ما يفرج به المسلمون نصراً، فسبحان من يحيي ويميت قلوباً.

لكن؛ لا بد لهذه النواة المباركة من السقي والتعهد في مساراتها كافة
نشرًا للضمانات التي تكف عنها العثار والتعثر في مثاني الطلب والعمل؛ من
تموجات فكرية، وعقدية، وسلوكية، وطائفية، وحزبية..

هذا ما قاله صحيح .. في الآونة الأخيرة حصل الحمد لله من الشباب
طموحات واسعة في شتى المجالات، لكنها قد تحتاج إلى ضمانات وكوابح تضمن
بقاء هذه النهضة وهذا الطموح، لأن كل شيء إذا زاد عن حده فإنه سوف يرجع

إلى جدره، إذا لم يُضبط ويُكبح فإنه يكون دماراً، ربما دماراً في المجتمع، وربما دماراً حتى على صاحبه في قلبه. أرايتم الخوارج^(١). عندهم من الإيمان بمحبة كون المسلمين على الحق ما لا يوجد في غيرهم، لكن هذا قد زاد حتى كفروا المسلمين وأئمة المسلمين وخرجوا عليهم، فصاروا كما قال النبي ﷺ: «يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية»^(٢). فأنت اضبط قلبك إذا رأيته ينفر بعيداً وسوف يسلك مسلماً صعباً، فعليك أن ترده وأن تعرف أن المقصود إقامة دين الله لا الانتصار للغيرة وثورة النفس، ومعلوم أنه إذا كان هذا هو المقصود - أعني الانتصار لدين الله لا الانتصار للغيرة - أن الإنسان سوف يسلك أقرب الطرق إلى حصول المقصود ولو بالمهانة إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

منذر أبو سعيد

(١) ويقال لهم النواصب، والحرورية نسبة إلى الموضع الذي خرج فيه أولهم على علي بن أبي طالب بعد أن أجبروه على قبول التحكيم مع معاوية بن أبي سفيان، وعندما قبله طلبوا منه أن يرفضه ويتوب، معللين لذلك بأنه كفر بسبب التحكيم، كما كفروا هم وتبايعوا، وقد انقسم الخوارج إلى عشرين فرقة، ويجمعهم القول بالتبرئ من عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وتكفير أصحاب الكباير، ويريون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقاً واجباً.

انظر: الملل والنحل للشهرستاني: (١/١١٤).

(٢) رواه مسلم (١٦٠٨).

وقد جعلت طوع أيديهم رسالة في «التعالم» تكشف المُنْدَسِينَ بينهم خشية أن يردوهم، ويضيعوا عليهم أمرهم، ويبتغثوا مسيرتهم في الطلب، فيستلوهم وهم لا يشعرون.

واليوم أخوك يشد عضدك، ويأخذ بيدك، فأجعل طوعاً بنائك رسالة تحمل «الصفة الكاشفة»^(١). لحليتك، فهذا أنا ذا أجعل سن القلم على الفرطاس، فاتل ما أرقم لك أنعم الله بك عينا^(٢)

فوله «فأجعل طوع...» فيها التفات من الغيبة إلى الحضور، هذا ليس معتاداً عند العلماء من مؤلفاتهم العلمية، لكن كما قلنا أولاً أن الشيخ يعتمد على البلاغات المعروفة، ومعلوم أن الانتقال في الأسلوب من الخطاب إلى غيبة، أو من غيبة إلى الخطاب أو من مفرد إلى جمع - إذا صح الجمع - من المعلوم أن هذا سوف يوجب الانتباه، لأن الإنسان إذا كان يسير على أسلوب معين مستمر عليه، انسابت نفسه، لكن إذا جاء شيء يغير الأسلوب سوف يتوقف ويتنبه، **«ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا»** (سورة المائدة: ١٢)، فقال «أخذ الله» هذا غيب، و«بعثنا» حضور.

(١) «الصفة الكاشفة»: هذه من مصطلحات كتب المواد لـ «لسان العرب» ومنه ما في مادة (ظبا) من «الظباوس»، قال الزبيدي في «تاج العروس» (١/٣٣٢): «الظباة هي: الضبع (العرجاء) صفة للصفة: أ. هـ. وهذا الوجه من الصفة هو الذي يراد به تمييز الموصوف الذي لا يعلم، ليميز من سائر الأجسام بما يكشفه. انظر: حرف الصاد من «الكلية»: (٣/٩٢).

(٢) «أوضح في حرف الألف من «معجم المناهي اللفظية» أن هذا اللفظ: (أنعم الله بك عينا) لا يصح الهمز عنه.

ذكر الآداب . . فإن كانت مسنونة فضدها مكروهة، وإن كانت واجبة فضدها محرمة. ولكن هذا ليس على إطلاقه، لأن ليس ترك كل مسنون يكون مكروهاً، إلا قلنا: إن كل من لم يأت بالمسنونات في الصلاة يكون قد فعل مكروهاً، لكن الترك آداباً من الآداب الواجبة فإنه يكون فعلاً محرماً في نفس هذا الأدب فقط لأنه ترك فيه واجباً، وكذلك إذا كان مسنوناً وتركه. فيُنظر، فإن تضمن تركه إساءة أدب مع المعلم أو مع زملائه فهذا يكون مكروهاً لا لأنه تركه، ولكن لأنه لزم منه إساءة الأدب.

والحاصل: أنه لا يستقيم أن نقول كل من ترك مسنوناً فقد وقع في مكروه، أو كل من ترك واجباً فقد وقع في المحرم. على سبيل الإطلاق، بل يقيد هذا.

منذر أبو سعيد

لقد تواردت موجبات الشرع على أن التحلي بمحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، والهدى الحسن، والسمت الصالح: سمة أهل الإسلام، وأن العلم. وهو أثنى درة في تاج الشرع المطهر. لا يصل إليه إلا المتحلي بآدابه، المتخلي عن آفاته، ولهذا عناها العلماء بالبحث والتنبيه، وأفردوها بالتأليف، إماماً على وجه العموم لكافة العلوم، أو على وجه الخصوص: كأدب حملة القرآن الكريم، وآداب المحدث، وآداب المفتي، وآداب القاضي، وآداب المحتسب، وهكذا ..

والشأن هنا في الآداب العامة لمن يسلك طريق التعلم الشرعي.

وقد كان العلماء السابقون يلتفتون الطلاب في حلق العلم آداب الطلب، وأدركت خبر آخر العقد في ذلك في بعض حلقات العلم في المسجد النبوي الشريف؛ إذ كان بعض المدرسين فيه، يدرس طلابه كتاب الزرنوجي (م سنة ٥٩٣هـ) رحمه الله تعالى، المسمى: «تعليم المتعلم طريق التعلم»^(١).

فعسى أن يصل أهل العلم هذا الحبل الوثيق الهادي لأقوم طريق، فيدرج تدريس هذه المادة في فواتح دروس المساجد، وفي مواد الدراسة النظامية وأرجو أن يكون هذا التقييد فاتحة خير في التنبيه على إحياء هذه المادة التي تهذب الطالب، وتسلل به الجادة في آداب الطلب وحمل العلم وأدبه مع نفسه، ومع مدرسه، ودرسه، وزميله، وكتابه، وثمرة علمه، وهكذا في مراحل حياته.

فإليك حلية تحوي مجموعة آداب، نواقضها مجموعة آفات، فإذا فات أدب منها؛ اقترب المفراط آفة من آفاته، فمقل ومستكثر، وكما أن هذه الآداب درجات صاعدة إلى السنة فالجواب؛ فنواقضها دركات هابطة إلى الكراهة فالتحريم.

(١) طبع مراراً، وهو مع إفادته فيه ما يقتضي التنبيه، فليعلم، والله أعلم.

ومنها ما يشمل عموم الخلق من كل مكلف، ومنها ما يختص به طالب العلم، ومنها ما يدرك بضرورة لشرع، ومنها ما يعرف بالطبع، ويدل عليه عموم الشرع؛ من الحمل على محاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، ولم أعن الاستيفاء، لكن سياقتها تجري على سبيل ضرب المثال؛ قاصداً الدلالة على المهمات؛ فإذا وافقت نفساً صالحة لها؛ تناولت هذا القليل فكثرتة، وهذا المجمل ففصلته، ومن أخذ بها انتفع ونفع، وهي بدورها مأخوذة من أدب من بارك الله في علمهم وصاروا أئمة يهتدى بهم، جمعنا الله بهم في جنته آمين^(١)

بكر بن عبد الله أبو زيد

في ١٤٠٨/٨/٥ هـ

منذر أبو سعيد

(١) من هذه الكتب: «الجامع» للخطيب البغدادي رحمه الله تعالى، و«الفقيه والمتفقه» له. و«تعليم المتعلم طريق التعلم» للزرنوجي، و«آداب الطلب» للشوكاني، و«أخلاق العلماء» للأجري، و«آداب المتعلمين» لسحنون، و«الرسالة المفصلة لأحكام المتعلمين» للقاسبي، و«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة، و«الحث على طلب العلم» للعسكري، و«فضل علم السلف على الخلف» لابن رجب، و«جامع بيان العلم» لابن عبد البر، و«العلم، فضله وطلبه» للأمين الحاج، و«فضل العلم» لمحمد رسلان، و«مفتاح دار السعادة» لابن القيم، و«شرح الإحياء» للزبيدي، و«جواهر العقدين» لسمهودي، و«آداب العلماء والمتعلمين» للحسين بن منصور - منتخب من الذي قبله - و«قانون التأويل» لابن العربي، و«العزلة» للخطابي، و«من أخلاق العلماء» لمحمد سليمان، و«مناهج العلماء» لفاروق السامرائي، و«التعليم والإرشاد» لبدر الدين الحلبي، و«الذخيرة» للقرافي، الجزء الأول، والأول من «المجموع» للنووي، و«تشحيد الهمم إلى العلم» لمحمد بن إبراهيم الشيباني، و«رسائل الإصلاح» لمحمد الخضر حسين، و«آثار محمد البشير الإبراهيمي». وغيرها كثير أجزل الله الأجر للجميع - آمين - .

وقد بدأ سماحة الشيخ محمد بن عثيمين شرح هذا الكتاب في ١٤١٥/٧/٢٢ هـ.

الفصل الأول

آداب الطالب في نفسه

١. العلم عبادة^(١):

أصل الأصول في هذه «الحلية» بل ولكل أمر مطلوب؛ علمك بأن العلم عبادة؛ قال بعض العلماء: «العلم صلاة السر، وعبادة القلب».

العلم عبادة لاشك، بل هو من أجل العبادات، وأفضل العبادات، حتى أن الله تعالى جعله في كتابه قسيماً للجهد في سبيل الله، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَعْلَمُوا كَافَّةً فَلَولا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَبَتَغَفَّهُوا فِي الدِّينِ وَلَيُنَظَّرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (سورة التوبة: ١٢٢). «ليتفقوها» يعني بذلك الطائفة القائمة. وقال ابن القيم: «من يرد الله به خيراً يقفه في الدين»^(٢). فإذا رزقك الله الفقه في دينه، والفقه هنا يعني به العلم الشرعي، فيدخل فيه علم العقائد والتوحيد وغير ذلك، فإذا رأيت أن الله منّ عليك بهذا فاستبشر خيراً، لأن الله أراد بك خيراً.

وقال الإمام أحمد: العلم لا يعدله شيء لمن صحت نيته. قالوا: وكيف تصح نيته يا أبا عبد الله؟ قال: ينوي رفع الجهل عن نفسه وعن غيره.

منذر أبو سعيد

(١) فتاوى ابن تيمية: (١٠ / ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ٤٩-٥٤)، و(٣١٤ / ١١) و(٧٧ / ٢٠ - ٧٨).

(٢) رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧).

وعليه؛ فإن شرط العبادَةِ:

١. إخلاص النية لله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (سورة البينة: ٥). الآية.

وفي الحديث الضرد المشهور عن أمير المؤمنين عُمَرُ بن الخطَّابِ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات» الحديث.

فإن فقد العلم إخلاص النية؛ انتقل من أفضل الطاعات إلى أحط المخالفات، ولا شيء يُحطَّم العلم مثل: الرياء؛ رياء شرك، أو رياء إخلاص^(١)، ومثل التسميع؛ بأن يقول مُسمِّعاً؛ علمت وحفظت..

إذا قال قائل: بما يكون الإخلاص في طلب العلم؟ يكون في أمور:

الأمر الأول - أن تنوي بذلك امتثال أمر الله، لأن الله تعالى أمر بذلك فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (سورة محمد: ١٩). يحث سبحانه وتعالى على العلم، والحث على الشيء يستلزم محبته والرضا به والأمر به.

الأمر الثاني - أن تنوي بذلك حفظ شريعة الله، لأن حفظ شريعة الله يكون بالتعلم ويكون بالحفظ في الصدور، ويكون كذلك بالكتابة، كتابة الكتب.

والثالث - أن تنوي بذلك حماية الشريعة والدفاع عنها، لأنه لولا العلماء ما ضمنت الشريعة ولا دافع عنها أحد، لهذا نجد شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم الذين تصدوا لأهل البدع، وبينوا ضلال بدعهم، نجدهم حصلوا على خير كثير.

والرابع - أن تنوي بذلك اتباع شريعة محمد ﷺ وأنت لا يمكن أن تتبع شريعته حتى تعلم هذه الشريعة.

(١) «الذخيرة» للقرافي: (٤٥/١). وفيه: «وحقيقة الرياء: أن يعمل الطاعة لله وللناس، ويُسمَّى: رياء

الشرك، أو للناس خاصة، ويُسمَّى: رياء الإخلاص وكلاهما يُصير الطاعة معصية» انتهى.

وانظر مبحثاً في «تهذيب الآثار» للطبري: (١٢١/٢-١٢٢) طبع في مطابع الصفا عكة.

وعليه؛ فالتزم التخلُّص من كل ما يشوب نيتك في صدق الطلب؛ كحب الظهور، والتفوق على الأقران، وجعله سُلماً لأغراض وأعراض؛ من جاء، أو مال أو تعظيم، أو سُمعة، أو طلب محمدي، أو صرف وجوه الناس إليك؛ فإن هذه وأمثالها إذا شابت النية؛ أفسدتها، وذهبت بركة العلم، ولهذا يتعين عليك أن تحمي نيتك من شوب الإرادة لغير الله تعالى، بل وتحمي الحمى.

ما قاله صحيح. حماية النية من هذه المقاصد السيئة فهو صحيح، ومن طلب علماً وهو ما يتغنى به وجه الله لا يرد إلا أن ينال به عرضاً من الدنيا لم يجد رائحة الجنة، قال الله العافية، ثم إن هذه المحمدي والجاه والتعظيم وصرف وجوه الناس إليك، صجده إن حصلت العلم حتى وإن كانت نيتك سليمة فهو أقرب إلى حصول هذا لك.

وللعلماء في هذا أقوال ومواقف بيَّنت طرقاً منها في المبحث الأول من كتاب «التعالم»، ويزاد عليه نهى العلماء عن «الطبليات»، وهي المسائل التي يراد بها الشهرة. وقد قيل: «زلة العالم مضروب لها الطبل»^(١).

وعن سفيان. رحمه الله تعالى. أنه قال: «كنت أُوتيت فهم القرآن، فلما قبلت الصرة؛ سلبته»^(٢).

«الطبليات»: المسائل التي يراد بها الشهرة، لماذا سُميت طبليات؟ لأنها مثل الطبل لها صوت ورنين، فهذا إذا جاء بمسألة غريبة عن الناس واشتهرت عنه كأنها صوت الطبل، فهذه يسمونها: الطبليات، ولم أسمع بهذا ولكن وجهها واضح.

(١) «الضوارم والأسنة» لأبي مدين الشنقيطي السلفي رحمه الله تعالى. وانظر: «شرح الإحياء»، وعنه «الذخيرة» للقرافي: (٢٦٣).

(٢) «الذخيرة» للقرافي: (١٢١/٢-١٢٢) طبع في مطابع الصفا عكة.

«الصُّرَّة»: يعني من السلطان، لما أعطاه سُلْب فهم القرآن، وهؤلاء هم الذين يدركون الأمور، ولهذا يتحرز السلف من عطايا السلطان. يقولون: إنهم لا يعطوننا إلا ليشترؤا ديننا بديناهم، فتجدهم لا يقبلونه، ثم إنهم - السلاطين - فيما سبق قد تكون أموالهم مأخوذة من غير حلها، فيتورعون عنها أيضاً من هذه الناحية.

ومن المعلوم أنه لا يجوز للعالم أن يقبل هدية السلطان، إذا كان السلطان يريد أن تكون هذه العطية مطية له يركبها متى يشاء بالنسبة لهذا العالم، أما إذا كانت أموال السلطان نزيهة، ولم يكن يقبل الهدية منه لبيع دينه بها فقد قال النبي ﷺ لعمر: «**ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائله فخذنه وما لا فلا تتبعه نفسك**»^(١). وغرض سفيان رحمه الله^(٢) من ذلك التحذير من هذا وتبكيك نفسه على ما سبق.

فاستمسك. رَحِمَكَ اللهُ تعالى. بالعُرْوَة الوثقى العاصمة من هذه الشوائب؛ بأن تكون - مع بذل الجهد في الإخلاص - شديد الخوف من نواقضه، عظيم الافتقار والالتجاء إليه سبحانه. ويؤثر عن سفيان بن سعيد الثوري - رحمه الله تعالى - قوله: «**ما عالجت شيئاً أشدَّ عليَّ من نيّتي**».

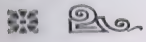
الإخلاص شديد، لذلك فإنه من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه فإنه يدخل الجنة وهو أسعد الناس بشفاعته النبي ﷺ.

منذر أبو سعيد

(١) رواه النسائي (٢٦٠٤).

(٢) شيخ الإسلام وسيد الحفاظ أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري، علم من أعلام السنة، ولد في سنة ٩٧ وتوفي سنة ١٦١ هـ. «تذكرة الحفاظ ١/٢٠٣».

وعن عُمر بن ذر أنه قال لوالده: يا أباي! مالك إذ وعظت الناس أخذهم البكاء، وإذا وعظهم غيرك لا يبكون؟ فقال: يا بُني! ليست النائحة الشكلى مثل النائحة المستأجرة^(١).



هذا مثل عظيم، النائحة الشكلى التي فقدت ولدها هذه تبكي بكاءً من القلب، والنائحة المستأجرة ما يؤثر نوحها ولا بكائها، لأنها تصطنع البكاء، ولكن مثل هذا الكلام الذي يرد عن السلف يجب أن نحسن الظن بهم وأنهم لا يريدون بذلك مدح أنفسهم، وإنما يريدون بذلك حث الناس على إخلاص النية والبعد عن الرياء وما أشبه ذلك، وإلا لكان هذا تركية للنفس واضحة، والله عز وجل يقول: ﴿**فَلَا تَرْكُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾ **هَرِّءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ** (سورة النجم: ٣٢). لكن السلف رحمهم الله لعلمنا بمقامهم وإخلاصهم يجب أن نحمل ما ورد عنهم مما يحتمل هذا المعنى الفاسد لنحمله على المعنى الصحيح.

منذر أبو سعيد

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه.

وفقك الله لرشدك آمين.

٢. الخصلة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة: «محبّة الله تعالى ومحبّة رسوله

ﷺ»، وتحقيقها بتمحض المتابعة وقفوا الأثر للمعصوم. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ

كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (سورة آل عمران: ٣١).

❦

لاشك أن المحبة لها أثر عظيم في الدفع والمنع، إذ أن المحب يسعى غاية جهده في الوصول إلى محبوبه، فيطلب ما يرضيه وما يقربه منه، ويسعى غاية جهده لاجتناب ما ييغضه محبوبه، ويبتعد عنه. ولهذا ذكر ابن القيم في «روضة المحبين»: أن كل الحركات مبنية على المحبة. كل حركات الإنسان، وهذا صحيح لأن الإرادة لا تقع من شخص عاقل إلا لشيء يرجو نفعه أو لشيء يدفع ضرره. وكل إنسان يحب ما ينفعه، ويكره ما يضره. فالمحبة في الواقع هي القائدة والسائق إلى الله عز وجل تقود الإنسان وتسوقه، وانظر إلى الذين كرهوا ما أنزل الله، قال الله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (سورة محمد: ٩). كانت تبيجهم الكفر، لأنهم كرهوا ما أنزل الله، فالمحبة كما قال الشيخ هي: الجامعة لخيري الدنيا والآخرة.

أما محبة الرسول ﷺ فإنها تملك على متابعتة ظاهراً وباطناً لأن الحبيب يقلد محبوبه حتى في أمور الدنيا، تجده مثلاً يقلده في اللباس . . في الكلام، حتى في الخط. نحن نذكر بعض الطلبة زماننا كانوا يقلدون الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في خطه، رغم أن خطه - رحمه الله - ضعيف، ما تقدر تقرأه، لكن من شدة محبتهم له قلده، فالإنسان كلما أحب شخصاً حاول أن يكون مثله في خصاله.

فإن أحببت النبي ﷺ فإن هذه المحبة سوف تقودك إلى اتباعه صلوات الله

وسلامه عليه.

منذر أبو سعيد

ثم ذكر الآية التي يسميها علماء السلف آية المحنة. يعني الامتحان، لأن قوماً ادّعوا أنهم يحبون الله فقال الله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ (سورة آل عمران: ٣١). أين الجواب؟ الجواب المتوقع: فاتبعوني تصدقوا في دعواكم. لأن الآن الشرط المشروط: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني تصدقوا في دعواكم، لكن جاء الجواب: فاتبعوني يحبيكم الله، إشارة إلى أن الشأن كل الشأن أن يحبك الله، هذا هو الثمرة، وهو المقصود. لا أن تحب الله، لأن كل إنسان يدعى ذلك وربما يكون مظهره محبة الله، لكن في قلبك شيء، لا يقتضى أن الله يحبك، فتبقى غير حاصل على الثمرة.

❦

وبالجملة: فهذا أصل هذه «الحليّة»، ويقعان منها موقع التاج من الحلة.

فيا أيها الطلاب! ها أنتم هؤلاء تربعتُم للدرس، وتعلقنُم بأنفس علق (طلب العلم): فأوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى في السر والعلانية؛ فهي العدة، وهي مهبط الفضائل، ومتنزل المحامد، وهي مبعث القوة، ومِعْراج السُّمو، والرابط الوثيق على القلوب عن الفتن، فلا تفرطوا.

❦

صدق - رحمه الله وعفا عنه - ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَشَاءُوا يُجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ (سورة الأنفال: ٢٩). تفرقون به بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع، وبين الطاعة والمعصية، وبين أولياء الله وأعداء الله . . إلى غير ذلك وتارة يحصل هذا الفرقان بوسيلة العلم، يفتح الله على الإنسان من العلوم ويسر له تحصيلها أكثر ممن لا يتقي الله، وتارة يحصل له هذا الفرقان بما يلقى الله في قلبه من الفراسة. قال النبي ﷺ: «إِنْ يَكُنْ فِيكُمْ مَحْدُثُونَ فَعَمِّرُوا»^(١). فالله تعالى يجعل لمن اتقاه فراصة يتفكر بها، فتكون موافقاً للصواب.

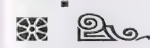
(١) رواه البخاري (٣٦٨٩). ومسلم (٢٣٩٨).

منذر أبو سعيد

فقله: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ يشمل الفرقان بوسائل العلم والتعلم، والفرقان بوسائل الدراسة والإلهام أن الله تعالى يلهم الإنسان التقي ما لا يلهم غيره، وربما يظهر لك هذا في مجراك في طلب العلم، تمر بك أيام تجد قلبك خاشعاً منيباً إلى الله، مقبلاً عليه، متقياً له فيفتح الله عليك مفاتيح معالم كثيرة ويمر بك أيام غفلة ينفك قلبك، وكل هذا تحقيق لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (سورة الأنفال: ٢٩). إذا غفر الله للعبد أيضاً فتح عليه أبواب المعرفة قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (سورة النساء: ١٠٥) واستغفر الله. ولهذا قال بعض العلماء: ينبغي للإنسان إذا أستفتي أن يقدم استغفار الله حتى يبين له الحق. لأنه قال: ﴿لِتَحْكُمَ﴾. ثم قال: ﴿استغفر الله﴾.

٢. كُنْ عَلَى جَادَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ:

كُنْ سَلَفِيًّا عَلَى الْجَادَةِ: طريق السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ قَفَا أَثَرَهُمْ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الدِّينِ؛ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَالْعِبَادَاتِ، وَنَحْوِهَا، مُتَمَيِّزًا بِالتَّزَامِ بِأَثَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَوْضِيفِ السُّنَنِ عَلَى نَفْسِكَ، وَتَرْكِ الْجِدَالِ، وَالْمِرَاءِ، وَالْخَوْضِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ، وَمَا يَجْلِبُ الْآثَامَ، وَيَصُدُّ عَنِ الشَّرْعِ.



هذا من أهم ما يكون، أن الإنسان يكون على طريقة السلف الصالح في جميع أبواب الدين، من التوحيد والعبادات والمعاملات وغيرها، كذلك يترك الجدال والمراء، لأن الجدال والمراء هو الباب الذي يقفل طريق الصواب، فإن الجدال والمراء يحمل المرء على أن يتكلم ويتنصر لنفسه فقط، حتى لو بان له الحق تجده: إما أن ينكره، وإما أن يؤوله على وجه مستكره انتصاراً لنفسه وإرغاماً لخصمه على الأخذ بقوله، فإذا رأيت من أخيك جدال ومراء، بحيث يكون الحق واضحاً ولكنه لم يتبعه ففر منه فراك من

الأسد. وقل: ليس عندي إلا هذا، اتركه وكذلك الخوض في علم الكلام مضيعة الوقت، لأنه يخوض في أشياء من أوضح الأشياء، مرّ عليّ اليوم في دراسة بعض الطلبة. يقول: ما هو العقل؟

عرفه لي لغة واصطلاحاً وعرفاً وشرعاً!! هذا ما له تعريف، لكن علم الكلام يدخل علينا الأشياء هذه، يجد الواحد مرة: إيش العقل هذا؟ سبحان الله!!

الظاهر أن الذي يقعد يفكر في تعريف العقل صار مجنوناً لأن هذا أمر واضح ما يحتاج إلى تعريف، لكن هؤلاء - أهل الكلام - صدوا الناس عن الحق وعن المنهج السلفي البسيط بما يوردونه من الشبهات والتعريفات والحدود وغيرها. وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في الرد على المنطقيين، يتبين لك الأمر، أو في «نقض المنطق» وهو مختصر وأوضح لطالب العلم، يتبين لك ما هم عليه من الضلال. ما الذي حمل علماء جهابذة على أن يسلكوا باب التأويل في باب الصفات؟! إلا علم الكلام. لو كان كذا كان كذا، لو كان مستوياً على العرش حقيقة لزم أن يكون محدوداً لماذا؟ لأن العرش محدود، لو كان يرى لزم أن يكون في جهة، ولو كان في جهة لكان جسماً وهلم جرّه... يعطونك من هذا الكلام الذي يضيعك، وهم يظنون أنهم يهدونك سواء السبيل.

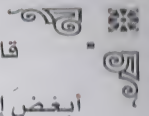
فإذاً من المهم لطالب العلم أن يترك الجدال والمراء، وأن يترك ما يرد على ذهنه من الإيرادات، اترك هذه الأشياء، لا تنتطع، اجعل علمك سهلاً ميسراً. يعني الأعرابي يأتي ببعيره يسأل النبي ﷺ عن مسائل الدين، ثم ينصرف بدون مشقة، لأنه ليس عنده إلا التصديق أما المناقشات والمراء والجدال، فهذا يضر الإنسان، الشيخ أبو بكر جزاه الله خيراً ألح إلى هذا الأمر، وما يجلب الآثام ويصد عن الشرع.

الثاني - قسم نَفَاهُ العقل، فيجب علينا نفيه دون تردد لأن العقل نفاه، ولكن مثل من؟! قال الإمام مالك رحمه الله: ليت شعري بأي عقل تنكر الكتاب والسنة أو ما كلما جاءنا رجل أجدل من رجل أخذنا بقوله وتركنا من أجله الكتاب والسنة هذا لا يمكن.

الثالث - قسم لم يرد العقل بنفيه ولا بإثباته، فمن قال: إن شرط الإثبات دلالة العقل. قال: يُرد، لأن العقل لم يثبت، ومن قال: إن من شرط قبوله أن لا يرده العقل. قال: يُقبل. وأكثرهم يقول: إنه يرد ولا يقبل، لأن من شرط إثباته أن يدل عليه العقل.

وبعضهم يتوقف. قالوا: إذا لم يثبت العقل ولم ينفيه، فالواجب علينا أن نتوقف وكل هذه قواعد ما أنزل الله بها من سلطان، ضلوا بها وأضلوا والعياذ بالله، وارتبكوا بها وشكُّوا وتحيروا، لذلك أكثر الناس شكًا عند الموت هم أهل الكلام. يترددون: هل الله جوهر أم عَرَض؟ هل هو قائم بنفسه أو بغيره؟ هل يفعل أم لا يفعل؟ هكذا.. عند الموت فيموت وهو شاكٌّ. نسأل الله السلامة والعافية لكن إذا كان الطريق، طريق السلف الصالح سهل عليه الأمر ولم يرد على قلبه شك ولا تشكيك ولا تردد.

مَنذَرُ أَبِي سَعِيدٍ



قال الذهبي - رحمه الله تعالى^(١): (وصحَّ عن الدارقطني أنه قال: ما شيء أبغض إلي من علم الكلام. قلت: لم يدخل الرجل أبدًا في علم الكلام ولا الجِدال، ولا خاض في ذلك، بل كان سَلَفِيًّا) أ هـ.

يبغضه مع أنه لم يدخل فيه، لكن لما له من مسالب وآثار سيئة، وتطويل بلا فائدة وتشكيك لما هو متيقن، وإرباك للأفكار، وهجر للآثار، ولهذا ليس شيء فيما أرى أضر على المسلمين في عقائدهم من علم الكلام والمنطق، وكثير من علماء الكلام الكبار أقروا في آخر حياتهم أنهم على دين العجائز ورجعوا إلى الفطرة الأولى، لما علموا من علم الكلام.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في «الفتوى الحموية»: وأكثر من يُخاف عليهم الضلال، هم المتوسطون من علماء الكلام، لأن من لم يدخل فيه فهو في عافية منه، ومن دخل فيه وعرف غايته فقد عرف بطلانه وفساده ورجع. أ هـ.

وصدق رحمه الله، وهذا هو الذي يُخاف في كل علم، يُخاف من الأنصاف الذين ما عرفوا الطريق لأنهم لم يروا أنفسهم أنهم لم يدخلوا في العلم فيتركوه لغيرهم، ولم يبلغوا غاية العلم والرسوخ فيه فيُضلون ويُضلون.

لكن علم الكلام خطير لأنه يتعلق بصفات الرب وذاته ولأنه يبطل النصوص تمامًا ويحكم العقل، ولهذا كان من قواعدهم: أن ما جاء في النصوص من صفات الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول - قسم أقره العقل، فهذا نقره بدلالة العقل لا بدلالة السمع.

(١) «السير»: (١٦/٤٥٧).

مَنذَرُ أَبِي سَعِيدٍ

وهؤلاء هم (أهل السنة والجماعة)، الْمُتَّبِعُونَ آثارَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - ^(١): «وأهل السنة: نقاوة المسلمين، وهم خير الناس للناس» أهـ.

فالزم السبيل، ﴿وَلَا تَبْعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (سورة الأنعام: ١٥٣).



اعلم أن من المتأخرين من قال: إن أهل السنة ينقسمون إلى قسمين: مفوضة ومؤولة، وجعلوا الأشاعرة ^(٢). والماتريدية ^(٣). وأشباههم من أهل السنة وجعلوا المفوضة هم السلف، فأخطئوا في فهم السلف وفي منهجهم. لأن السلف لا يفوضون المعنى إطلاقاً، بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن القول بالتفويض من شر أقوال أهل البدع، والإلحاد، واستدل بذلك بأننا إذا كنا لا ندري معاني ما أخبر الله به عن نفسه من أسماء وصفات، جاءنا الفلاسفة وقالوا: أنتم جهال، نحن الذين عندنا العلم، ثم تكلموا بما يريدون، وقالوا: إن المراد بالنص كذا وكذا. ومعلوم أن معنى للنص خيرٌ من التوقف فيه وأنه ليس له معنى. فانتبهوا لهذا، لأن بعض الناس يرى أن أهل السنة والجماعة يدخل فيهم المتكلمون من الأشاعرة والماتريدية وغيرهم.

(١) «منهاج السنة»: (١٥٨/٥)، طبعة جامعة الإمام.

(٢) ينسب الأشاعرة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري البصري، وكان معتزلياً فرجع عن الاعتزال وردَّ على المعتزلة وبين تناقضهم، ومن مذهبه: أن الواجبات كلها سمعية، وأن العقل لا يوجب شيئاً، وأن لله صفات أزلية قائمة بذاته تعالى، دلت أفعاله عليها، لا يمكن جردها ككونه تعالى عالم يعلم، قادر بقدرته، حي بحياته. انظر: الملل والنحل للشهرستاني: (٩٤/١).

(٣) نسبة إلى أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي الحنفي، من أئمة علماء الكلام، نسبتة إلى «ماتريد» وهي محلة بسمرقند، ومن تصانيفه: التوحيد، وأوهام المعتزلة، والرد على القرامطة وقد خالف أبو منصور الماتريدي أبا الحسن الأشعري في بعض الأصول: كمسألة التكوين، ومسألة الاستثناء في الإيمان، ومسألة إيمان المقلد.

انظر: «مجموع الفتاوى»: (٥١٠/٧)، منهاج السنة (٣٦٢/٢)، (٥٠٤).

ثم يقول - من العجب العجائب - أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم. سبحان الله!! وكيف تكون طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم وهل يمكن أن تكون أعلم وأحكم وليست أسلم؟ بل يلزم من كون طريقة السلف أعلم وأحكم أن تكون أسلم بلا شك. لأن شخصاً يقول: إن هذا النص له معنى وأنا أو من به، أعلم بلا شك وأحكم من شخص يقول: لا أدري. فلا سلامة إلا بالعلم والحكمة. فهذا تناقض عظيم، ولهذا كان القول الصحيح في هذه العبارة: أن طريقة السلف أعلم وأسلم وأحكم.

ويلزم من كوننا نحث الطلبة على منهج السلف، يلزم من ذلك تحريضهم على معرفة منهج السلف، فنطالع الكتب المؤلفة في ذلك كسير أعلام النبلاء وغيرها حتى نعرف طريقهم، ونسلك هذا المنهج القويم.

٣. مُلَازِمَةُ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى:

التحلي بعمارة الظاهر والباطن بخشية الله تعالى؛ مُحَافِظًا على شعائر الإسلام، وإظهار السنة ونَشْرُهَا بِالْعَمَلِ بها والدعوة إليها؛ دَالًّا على الله بعلمك وَسَمْتِكَ وَعَمَلِكَ، متحلياً بالرجولة، والمساهلة، والسَّمْتِ الصالح. وملاك ذلك خشية الله تعالى، ولهذا قال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى -: «أصل العلم خشية الله تعالى».

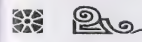
وهذا الذي قاله الإمام أحمد صحيح: أصل العلم خشية الله، وخشية الله هي الخوف من الله المبني على العلم والتعظيم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (سورة فاطر: ٢٨). فالإنسان إذا علم الله حق العلم وعرفه حق المعرفة، فتجده يقوم بطاعة الله عزَّ وجلَّ في قلبه أتم قيام. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

والفرق بين الخشية والخوف: أن الخشية تكون من عظم المخشي، والخوف من ضعف الخائف، وإن لم يكن المخوف عظيمًا، لذلك يخاف الصبي من فتى أكبر منه قليلاً.

والحاصل: أن الخشية أعظم من الخوف، ولكن قد يقال: خاف الله. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٧٥). وهنا في مقابلة فعل هؤلاء الذين يخافون من الناس.

فالزُّمُ خشية الله في السرِّ والعلَن؛ فإن خير البرية من يخشى الله تعالى، وما يخشاه إلا عالم، إذن فخير البرية هو العالم، ولا يغيب عن بالك أن العالم لا يُعدُّ عالمًا إلا إذا كان عاملاً، ولا يعمل العالم بعلمه إلا إذا لزمته خشية الله.

وأُسند الخطيب البغدادي - رحمه الله تعالى - بسند فيه لطيفة إسنادية برواية آباء تسعة، فقال^(١): أخبرنا أبو الفرج عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان بن زيد بن أكينة بن عبد الله التميمي من حفظه؛ قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت علي بن أبي طالب يقول: «هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ، وَإِلَّا ارْتَحَلَ» أهد. وهذا اللفظ بنحوه مروي عن سفيان الثوري - رحمه الله تعالى -.



قوله: «لا يعد عالمًا يعني عالمًا ربانيًا، وأما كونه عالم ضد الجاهل، فهذا يُقال أن الذي ألَّف «المنجد» رجل نصراني وفيه من معرفة اللغة العربية شيء الكثير، وإن كان فيه غلطات كثيرة وأشياء تؤخذ عليه من الناحية الدينية، لكن العالم الذي

(١) «الجامع» للخطيب، و«ذم من لا يعمل بعلمه»: (رقم ١٥) لابن عساكر. وراجع لإسناده: «لسان الميزان»: (٢٧/٤) (٢٧) للحافظ ابن حجر.

يعمل بعلمه هو الذي يصدق عليه أنه عالم رباني، لأنه يربى نفسه أولاً، وغيره ثانيًا. «هَتَفَ الْعِلْمُ...» إذا لابد من العمل، لأنه إذا لم يعمل بعلمه صار من أول ما تسعر بهم النار يوم القيام.

وعالم بعلمه لم يعمل ❖❖❖ معذب من قبل عباد الوثن

هذه واحدة، إذا لم يعمل بعلمه أورث الفشل في العلم وعدم البركة والنسيان لقول الله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (سورة المائدة: ١٣). وهذا النسيان يشمل النسيان الذهني والعملي، قد يكون بمعنى ينسونه دينيًا، أو بمعنى ينسون يتركونه لأن النسيان في اللغة العربية يطلق بمعنى الترك، أما إذا عمل الإنسان بعلمه فإن الله تعالى يزيده هدى. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (سورة محمد: ١٧). ويزيده تقوى، ولهذا قال: «وَأَتَاهُم تَقْوَاهُمْ» إذا عمل بعلمه ورثه الله علم ما لم يعلم ولهذا روى عن علي بن أبي طالب أنه قال: هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل. وتروى هذه اللفظة: العلم يهتف بالعمل - يعني يدعوه - فإن أجاب وإلا ارتحل. وهذا واضح لأنك إذا عملت بالعلم تذكرته كلما عملت.

وأضرب مثلاً: رجل عرف صفة الصلاة من السنة وصار يعمل بها كلما صلى هل ينسى ما علم؟ لا ينسى، لأنه تكرر. لكن لو ترك العمل به نسي. وهذا دليل محسوس على أن العمل بالعلم يوجب ثبات العلم.

٤. دوام المراقبة:

التحلي بدوام المراقبة لله تعالى في السرِّ والعلَن؛ سائرًا إلى ربك بين الخوف والرجاء؛ فإنهما للمسلم كالجناحين للطائر. فَأَقْبِلْ عَلَى اللَّهِ بِكُلِّيتِكَ،

إن الشباب والفراع والجدة ❖❖❖ مفسدة للمرء أي مفسدة والذي أرى: أن الإنسان يجب أن يعامل حاله بما يقتضيه الحال وأن أقرب الأقوال في ذلك أنه: إذا عمل خيراً فيغلب جانب الرجاء، فإذا هم بسينة فليغلب جانب الخوف. هذا أحسن ما أراه في هذه المسألة الخطيرة العظيمة.

إذا قال قائل: تغليب جانب الرجاء هل يجب أن يكون مبنياً على سبب صالح للرجاء، أو يكون رجاء المفلسين. الإجابة: الأول.

إنسان مثلاً يعصي الله دائماً وأبداً ويقول: رحمة الله واسعة. هذا غلط، لأن إحسان الظن بالله ورجاء الله لا بد أن يكون هناك سبباً يبنني عليه الرجاء وإحسان الظن. إلا كان مجرد أمنية، والتمني كما يقول عامة أهل نجد: التمني رأس مال المفاليس.

٥. خَفَضُ الْجَنَاحِ وَتَبَذُّ الْخِيَلِ والكبرياء:

تَحَلَّ بِآدَابِ النَّفْسِ: من العفاف، والحلم، والصبر، والتواضع للحق، وسكون الطائر: من الوقار، والرزانة، وخَفَضُ الْجَنَاحِ: مُتَحَمِّلاً ذُلَّ التَّعَلُّمِ لِعِزَّةِ الْعِلْمِ، ذليلاً للحق.

قوله: «تَحَلَّ بِآدَابِ النَّفْسِ...» لأن المقام يقتضي هكذا أن يكون عند طالب العلم عفة عما في أيدي الناس، وعفة عما يتعلق بالنظر المحرم، وحلم لا يعاجل بالعقوبة إذا أساء إليه أحد، وصبر على ما يحصل من الأذى مما يسمعه إما من عامة الناس وإما من أقرانه وإما من معلمه فليصبر وليحتسب، والتواضع للحق وكذلك للخلق. يتواضع للحق بمعنى: أنه متى بان له الحق خضع له ولم يبتغ سواه بديلاً، وكذلك للخلق فكمن طالب فتح على معلمه أبواباً ليست على بالٍ منه. ولا تحقرن شيئاً.

وليمتلئ قلبك بمحبته، ولسانك بذكره، والاستبشار والفرح والسرور بأحكامه وحكمه سبحانه.

هذا من المهم: دوام المراقبة لله وهذا من ثمرات الخشية، أن الإنسان يكون مع الله دائماً يعبد الله كأنه يراه، يقوم للصلاة فيتوضأ وكأنه ينفذ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ (سورة المائدة: ٦). يقوم يتوضأ وكأنه ينظر إلى رسول الله ﷺ وهو يتوضأ، ويقول: «من توضأ نحو وضوئي هذا»^(١). كمال المراقبة.. وهذا أمر مهم.

وقوله «يكون سائراً بين الخوف والرجاء فإنهما للمسلم كالجناحين للطائر» هذا أحد الأقوال في هذه المسألة. وهي: هل الأولى للإنسان أن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء؟ أم يغلب جانب الخوف؟ أم يغلب جانب الرجاء؟

الإمام أحمد رحمه الله يقول: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً، فأيهما غلب هلك صاحبه.

ومن العلماء من يُفَصِّلُ ويقول: إذا هممت بطاعة فغلب جانب الرجاء فإنك إذا فعلتها قبلها الله منك ورفعك بها درجات، وإذا هممت بمعصية فغلب جانب الخوف حتى لا تقع فيها. وعلى ذلك يكون التغليب لأحدهما بحسب حالة الإنسان.

ومنهم من قال: بحسب الحال على وجه آخر، فقال: أما في المرض فيغلب جانب الرجاء، لأن النبي ﷺ قال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»^(٢). ولأنه إذا غلب في حالة المرض جانب الخوف فربما يدفعه ذلك إلى القنوط من رحمة الله. في حال الصحة يغلب جانب الخوف لأن الصحة مدعاة للفساد كما قال الشاعر الحكيم:

(١) رواه أحمد والنسائي وأبو داود وهو في صحيح الجامع برقم (٦١٧٦).

(٢) رواه أبو داود وأحمد وهو في صحيح الجامع برقم (٧٧٩٢).

وقوله: «وسكون الطائر، من الوقار...» هذه أيضاً لطالب العلم أن يتعد عن الخفة سواء في المشية أو في معاملة الناس وألا يكثر من القهقهة التي تُميت القلب وتذهب الوقار، بل يكون خافضاً للجناح متحلياً بالآداب التي تليق بطالب العلم.

وقوله: «متحماً ذل التعلم لعزة العلم» هذا جيد، يعني أنك لو أذلت نفسك للتعلم، فإنما تطلب عزَّ هذا العلم، فيكون تذليلها بالتعلم ينتج ثمرة طيبة.

وعليه؛ فاحذر نواقض هذه الآداب، فإنها مع الإثم تُقيم على نفسك شاهداً على أن في العقل علة، وعلى حرمان من العلم والعمل به، فأياك والخيلاء؛ فإنه نفاق وكبرياء، وقد بلغ من شدة التوقي منه عند السلف مبلغاً:

الخيلاء تحدث للإنسان طالب العلم، وللإنسان كثير المال، وللإنسان شديد الرأي، وكذلك في كل نعمة أنعم الله بها على العبد ربما يحدث له فيها خيلاء.

والخيلاء هي: إعجاب بالنفس مع ظهور ذلك على هيئة البدن، كما جاء في الحديث: «من جرَّ ثوبه خيلاء»^(١). فالإعجاب يكون بالقلب فقط، فإن ظهرت آثاره فإنه خيلاء.

وقوله: «فإنه نفاق وكبرياء» أما كونه كبرياء فواضح، أما قوله: «نفاق» فلأن الإنسان يظهر أكبر من حجمه الحقيقي، وهكذا المنافق يظهر بمظهر المخلص الناصح وهو ليس كذلك.

ومن دقيقه ما أسنده الذهبي في ترجمة عمرو بن الأسود العنسي المتوفى في خلافة عبد الملك بن مروان. رحمه الله تعالى. أنه كان إذا خرج من المسجد قبضَ بيمينه على شمائه، فسُئل عن ذلك؟ فقال: مخافة أن تُناقق يدي. قلت: يُمْسِكُها خوفاً من أن يَخْطُرَ بيده في مشيته؛ فإن ذلك من الخيلاء^(١). أه.

وهذا العارضُ عَرَضُ للعنسي. رحمه الله تعالى. واحذر داء الجبابة: (الكبر)؛ فإن الكبر والحرص والحسد أول ذنب عصي الله به^(٢)، فتطاوَلْكَ على مُعَلِّمِكَ كبرياءً، واستنكافُكَ عَمَّنْ يفيدُكَ مَمَّنْ هو دونك كبرياءً، وتقصيرُكَ عن العمل بالعلم حمأة كبر؛ وعنوان حرمان.

العلمُ حَرْبٌ للفتى المتعالي ❖❖ كالسَّيْلِ حَرْبٌ للمكان العالي

داء الجبابة وهو «الكبر» وقد فسره النبي ﷺ بأجمع تفسير وأبينه وأوضحه فقال: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٣). واطر الحق هو ردُّ الحق، وغمط الناس يعني احتقارهم وازدراءهم؛ وقوله: «إن الكبر والحرص والحسد أول ذنب عصي الله به» يريد فيما نعلم لأننا نعلم أن أول من عصى الله عزَّ وجلَّ هو الشيطان حين أمره الله تبارك وتعالى أن يسجد لآدم لكن منعه الكبرياء. أبى واستكبر وقال: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ لَنَا﴾ (سورة الإسراء: ٦١).

وقال: ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ (سورة الإسراء: ٦٢). وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (سورة الأعراف: ١٢).

فقلوه: «أول ذنب عصى الله به» يعني باعتبار ما نعلم، وإلا فإن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (سورة البقرة: ٣٠).

قال أهل العلم: إنما قال الملائكة ذلك لأنه كان على الأرض أمة قبل آدم وبنيه، وكانوا يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء.

ثم ذكر أمثلة قال: «تطاولك على معلمك كبرياء» ويكون التطاول باللسان ويكون أيضاً بالإنفعال، قد يمشي مع معلمه وهو يتبختر، ويقول فعلتُ وفعلتُ، وكذلك أيضاً استنكارك عما يفيدك من علوم كبرياء، وهذا يقع أيضاً لبعض الطلبة إذا أخبره أحد بشيء وهو دونه في العلم يستكبر ولم يقبل.

وقوله: «تقصيرك عن العمل بالعلم حماة كبر، وعنوان حرمان» نسأل الله العافية. هذا نوع من الكبر، ألا تعمل بالعلم.

وقوله: «العلم حرب للفتى المتعالي» يعني أن الفتى المتعالي لا يمكن أن يدرك العلم، لأن العلم حرب له. «كالسيل حرب للمكان العالي»، صحيح المكان العالي ينفذ عنه السيل يمينا وشمالا ولا يستقر عليه.

فألزم. رحمك الله. اللصوق إلى الأرض، والإزراء على نفسك، وهضمها، ومراعاتها عند الاستشراق لكبرياء أو غطرسة، أو حُبُّ ظهورك، أو عجب.. ونحو ذلك من آفات العلم القتالة له، المذهبة لهيبته، المطفئة لنوره، وكلما ازدادت علما أو رفعة في ولاية؛ فالزم ذلك؛ تحرز سعادة عظمتي، ومقاماً يغبطك عليه الناس. وعن عبد الله بن الإمام الحجة الراوية في الكتب الستة بكر بن عبد الله المزني. رحمهما الله تعالى. قال:

«سمعتُ إنساناً يُحدّث عن أبي، أنه كان واقفاً يعرفه، فرّق، فقال: لولا أنّي فيهم؛ لقلت: قد غفر لهم». خرّجه الذهبي^(١)، ثم قال: «قلت: كذلك ينبغي للعبد أن يزري على نفسه ويهضمها» أهـ.

وهذه العبارات التي تطلق على السلف، مثل هذا يريدون به التواضع، وليسوا يريدون أنهم يغلبون جانب سوء الظن بالله عز وجلّ أبداً، لكنهم إذا رأوا ما هم عليه خافوا وحذروا وجرت منهم هذه الكلمات. وإلا فإن الأولى للإنسان أن يحسن الظن بالله ولا سيما في هذا المقام. وهو مقام عرفة الذي هو مقام تضرع إلى الله عز وجلّ ومقام استغفار. ويقول مثلاً: إن الله لم يسر لي الوصول إلى هذا المكان إلا من أجل أن يغفر لي ويسأله المغفرة. والله تعالى يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سورة غافر: ٦٠). لكن تكررت هذه العبارات من السلف من باب التواضع وسوء الظن بالنفس لا بالله عز وجلّ.

٦. القناعة والزهادة:

التحلي بالقناعة والزهادة، وحقيقة الزهد: «الزهد بالحرام، والابتعاد عن حِمَاه؛ بالكف عن المشتبهات وعن التطلع إلى ما في أيدي الناس».

التحلي بالقناعة من أهم خصال طالب العلم، يعني أن يقتنع بما آناه الله عز وجلّ ولا يطلب أن يكون من الأغنياء والمترفين، لأن بعض طلبة العلم وغيرهم يريدون أن يكونوا في مصاف الأغنياء والمترفين، فيتكلف النفقات في المأكّل والمشرب

(١) «سير أعلام النبلاء»: (٤/ ٥٣٤).

وانظر كلاماً نفسياً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في «مجموع الفتاوى»: (١٤/ ١٦٠).

(٢) «تعليم المعلم» للزرنوجي: (ص ٢٨).

والملبس والمفرش ثم يسقط كاهله من الديون، وهذا خطأ؛ لكن عليك بالقناعة فهي خير زاد للمسلم.

قال: «حقيقة الزهد..» كأنه أراد بالزهد هنا الورع، لأن هناك ورعاً وزهداً. والزهد أعلى مقاماً من الورع، لأن الورع ترك ما يضر في الآخرة والزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، بينهما فرق.

الفرق الذي بينهما: المرتبة التي ليس فيها ضرر وليس فيها نفع، فالورع لا يتحاشاها، والزاهد يتحاشاها ويتركها، لأنه لا يريد إلا ما ينفعه في الآخرة.

ويؤثر عن الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - ^(١): «لَوْ أَوْصَى إِنْسَانٌ لَأَعْقَلَ النَّاسُ؛ صُرْفَ إِلَى الزُّهَادِ».

الله أكبر!! لو قال: أوصيت لأعقل الناس. يصرف لمن؟ إلى الزهاد. لأن الزهاد هم أعقل الناس، حيث تجنبوا ما لا ينفعهم في الآخرة، وهذا الذي قاله رحمه الله ليس على إطلاقه، لأن الوصايا والأوقاف والهبات والرهون وغيرها ترجع إلى معناها في العرف، فإذا كان أعقل الناس في عرفنا الزهاد صُرف لهم ما أوصى به، وإذا كان أعقل الناس هم ذوو المروءة والوقار والكرم بالمال والنفس صُرف إليهم.

وعن محمد بن الحسن الشيباني ^(٢) - رحمه الله تعالى - لما قيل له: أَلَا تُصَنِّفُ كِتَابًا فِي الزُّهْدِ؟ قَالَ:

(١) «تعليم المتعلم» للزرنوجي: (ص ٢٨).

(٢) هو محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، صحب أبا حنيفة وأخذ عنه الفقه ثم عن أبي يوسف، روى الحديث عن مالك ودون الموطأ وروى عن الثوري وعمرو بن دينار، وعنه الشافعي، ومن كتبه: المبسوط في الفقه، الجامع الكبير والصغير. مات عام ١٨٩ هـ. (شذرات الذهب ٣٢١/١)، وفيات الأعيان ٥٧٤/١).

«قَدْ صَنَّفْتُ كِتَابًا فِي الْبُيُوعِ» ^(١). يعني: «الزاهد من يتحرز عن الشبهات والمكروهات؛ في التجارات، وكذلك في سائر المعاملات والحرف» أهـ.

لأن من تعرف على البيوع وأحكامها وتحرز عن الحرام واستحل الحلال فإن هذا هو الزاهد.

وعليه: فَلْيَكُنْ مُعْتَدِلًا فِي مَعَاشِهِ بِمَا لَا يُشِينُهُ، بِحَيْثُ يَصُونُ نَفْسَهُ وَمَنْ يَعُولُ، وَلَا يَرُدُّ مَوَاطِنَ الذَّلَّةِ وَالْهُونِ.

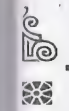
وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي المتوفى في ١٣٩٣/١٢/١٧ هـ رحمه الله تعالى مُتَقَلِّلاً مِنَ الدُّنْيَا، وقد شاهدته لا يعرف فئات العملة الورقية، وقد شافهني بقوله: «لَقَدْ جِئْتُ مِنَ الْبِلَادِ شَنْقِيطَ». ومعنى كُنْزُ قُلْ أَنْ يُوجَدَ عِنْدَ أَحَدٍ، وهو (القناعة)، ولو أردت المناصب؛ لعرفت الطريق إليها، ولكني لا أؤثر الدنيا على الآخرة، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية. فرحمه الله تعالى رحمة واسعة آمين.

هذا الكلام من الشيخ الشنقيطي رحمه الله وأشباهه من أهل العلم لا يريدون بذلك تزكية النفس ولكن يريدون بذلك نفع الخلق وأن يقتدى الناس بهم وأن يكونوا على هذا الطريق لأننا نعلم هنا من أحوالهم. ولأنهم لا يريدون تزكية النفس وهم أبعد الناس عن ذلك وهو رحمه الله كما ذكره الشيخ بكر من الزهاد، إذا رأيته لا نقول إلا أنه رجل من أهل البادية حتى العبادة تجد أن عليه عبادة عادية ما فيها هذا «الزري» وكذلك الثياب ولا تجده يهتم بهندمة نفسه وثيابه رحمه الله.

٧- التحلي برونق العلم:

التحلي بـ (رونق العلم) حسن السمات، والهدي الصالح، من دوام

السكينة، والوقار، والخشوع، والتواضع، ولزوم المحجة، بعمارة الظاهر والباطن،
والتخلي عن نواقضها.



هذا قد يكون فرع لما سبق، فإن حسن السمات، والهدي الصالح من دوام
السكينة، والوقار، والخشوع، والتواضع، والهدي الظاهر قد سبق الإشارة إليها وأنه
ينبغي لطالب العلم أن يكون أسوة صالحة في هذه الأمور.

وعن ابن سيرين - رحمه الله تعالى - قال: «كانوا يتعلمون الهدى كما

يتعلمون العلم».

وعن رجاء بن حيوة - رحمه الله تعالى - أنه قال لرجل: «حدثنا، ولا تحدثنا
عن متماوت ولا طعان». رواهما الخطيب في «الجامع»، وقال: ^(١) «يجب على
طالب الحديث أن يتجنب: اللعب، والعبث والتبذل في المجالس؛ بالسُّخف،
والضحك، والقهقهة، وكثرة التنادي، وإدمان المزاح والإكثار منه، فإنما يستجاز من
المزاح بيسيره وناديه وطريفه، والذي لا يخرج عن حد الأدب وطريقة العلم، فأماً
متصله وفاحشه وسخيفه وما أوغر منه الصدور وجلب الشر؛ فإنه مذموم، وكثرة
المزاح والضحك يضع من القدر، ويزيل المروءة» أهـ.



هذا من أحسن ما قيل في آداب طالب العلم. أن يتجنب اللعب والعبث إلا ما
جاءت به الشريعة، كاللعب برمحه وسيفه وفرسه، لأن ذلك يعينه على الجهاد في
سبيل الله، وكذلك في الوقت الحاضر اللعب بالبنادق الصغيرة هذه لا بأس بها،

(١) «الجامع»: (١٥٦/١).

كذلك العبث، وهو أن يفعل فعلاً لا داعي له، أو يقول قولاً لا داعي له، كذلك
الذل في المجالس بالسُّخف والضحك والقهقهة وإدمان المزاح والإكثار منه، لا سيما
عند عامة الناس، أما عند أصحابك وأقرانك، فالأمر أهون، لكن عند عامة الناس فلا
إياك أن تفتح على نفسك باب الإمتهان، فإن ذلك يذهب الهيبة من قلوب الناس فلا
يهابونك ولا يهابون العلم الذي تأتي به.

وقد قيل: «مَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ». فتجنب هاتيك السقطات في

مجالستك ومُحَادَثَتِكَ. وبعض من يجهل يظن أن التبسط في هذا أريحية.

وعن الأحنف بن قيس قال: «جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، إنني
أبغض الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه» ^(١).

لأن هذا يشغل عن طلب العلم، مثل أن يقول: أكلت البارحة أكلًا حتى ملأت
الطن، وما أشبه ذلك من الأشياء التي لا داعي لها أو يتكلم فيما يتعلق بالنساء، أما
إن يتكلم بما بينه وبين أهله فذلك من أشر الناس منزلة عند الله يوم القيامة.

وفي كتاب المحدث الملهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - في
القضاء: «ومن تزين بما ليس فيه؛ شأنه الله». وانظر شرحه لابن القيم - رحمه
الله تعالى - ^(٢).

المحدث يعني به عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن يكن فيكم محدثون
فهمرا»، والمراد «بالمهمل» الذي يلهمه الله عز وجل وكأنه يحدث بالوحي وقد أشكل
هذا على بعض العلماء، حيث قالوا: إن هذا يقتضي أن عمر أفضل الصحابة لأنه

(١) «سير أعلام النبلاء»: (٩٤/٤).

(٢) «إعلام الموقعين»: (٢/١٦١ - ١٦٢).

قال: «إن يكن فيكم محدثون فعمرو»، لكن أجاب عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: بأن عمر إنما يتلقى الإصابة بواسطة، أما أبو بكر فيتلقاها بلا واسطة وعلى هذا فيكون أبو بكر أفضل من عمر، ومن رأى تصرف أبي بكر في مواقع الشدة رأى أنه أقرب إلى الصواب من عمر، ففي كتاب الصلح الذي وقع بين النبي ﷺ وقريش، راجع عمر النبي ﷺ فأجابه ثم راجع أبا بكر فأجابه بما أجابه به رسول الله ﷺ حرماً بحرف.

وفي قتال أهل الردة وكذلك في تنفيذ جيش أسامة بن زيد وكذلك في تثبيت الناس يوم وفاة النبي ﷺ كل هذا يدل على أن أبا بكر أصوب رأياً من عمر، لكن الذي أظهر عمر بن الخطاب هو طول خلافته وتفرغه لأمر المسلمين العامة والخاصة، وكان مشتهراً بذلك ﷺ ولهذا فنحن نقول: أيهما أكثر رواية للحديث أبو هريرة أم أبو بكر؟

أبو هريرة، هل يعني ذلك أن أبا هريرة ﷺ أكثر تلقي الحديث من أبي بكر؟ لا... لكن أبو بكر لم يحدث بما روى من الرسول وإلا، فأبو بكر صاحب الرسول ﷺ صفاً وثناءً، ليلاً ونهاراً، سفرًا وإقامة فهو أكثر الناس تلقي عنه، وأعلم الناس بأحواله، لكن لم يتفرغ لكي يجلس للناس يحدثهم بما رواه عن النبي ﷺ.

فالحاصل: أن بهذا يتبين الجواب عن الحديث: «إن يكن فيكم...» الحديث. يقول: في الكتاب الذي كتبه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء: «من تزين بما ليس فيه شأنه الله..» هذه حقيقة، إذا تزين الإنسان بأنه طالب علم وقام يضرب الجبلين بعضهما ببعض، وكلما جاءت مسألة شمر عن أكمامه وقال أنا صاحبه: هذا حلال وهذا حرام، وهذا واجب وهذا فرض كفاية، وهذا فرض عين، وهذا اشتراطه كذا وكذا، وهذا ليس له شروط وقام يفصل ويُجمل، ولكن يأتيه طالب علم صغير يقول: أخبرنا عن كذا. فإذا بالله يفضحه ويبين أنه ليس بعالم، وكذلك من تزين بعبادة وأظهر للناس أنه عابد فلا بد أن يكشفه الله.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة *** وإن خالها تخفى على الناس تعلم ومهما يكتنم الناس فالله يعلمه وسيفضح من لا يعمل لأجله، فهذه عبارة من عمر زُن بها كل أعمالك «من تزين بما ليس فيه شأنه الله».

قال الشيخ بكر أبو زيد وفقه الله «انظر شرحه لابن القيم رحمه الله»، شرحه ابن القيم في كتاب «إعلام الموقعين» شرحاً طويلاً حتى تكاد أن تقول: أن جميع الكتاب الذي هو ثلاث مجلدات كبار. كان شرحاً لهذا الحديث، وإن لم يكن شرحاً للمأظف، لكنه لألفاظه من وجه وشرحاً لمعانيه وحكمه من وجه آخر فلهذا أشار بكر أبو زيد إلي أن تنظر إلى هذا الشرح.

٨. تَحَلَّ بِالمُرُوءَةِ^(١)

التحلي بـ (المروءة)، وَمَا يَحْمِلُ إِلَيْهَا؛ من مكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه، وإفشاء السلام، وتحمل الناس، والأنفة من غير كبرياء، والعزّة في غير جبروت، والشهامة في غير عصبية، والحمية في غير جاهلية.

ما هي المروءة؟ حدّها الفقهاء رحمهم الله في كتاب الشهادات. قالوا: هي فعل ما يحسنه ويزينه واجتناب ما يندسه ويشينه.

وهذه عبارة عامة. كل شيء يُجمله عند الناس ويزينه ويكون سبباً للثناء عليه فهو مروءة وإن لم يكن من العبادات، وكل شيء بالعكس فهو خلاف المروءة. ثم ضرب لهذا مثلاً. فقال: مكارم الأخلاق. فما هو كرم الخلق؟ أن يكون الإنسان دائماً ساعياً في مواضع التسامح. ويأخذ بالعزم في موضع العزيمة.

ولهذا جاء الدين الإسلامي وسطاً بين التسامح الذي تضيع به الحقوق، وبين العزيمة التي ربما تحمل على الجور. فنضرب مثلاً بالقصاص - وهو قتل النفس بالنفس. يذكر أن بني إسرائيل انقسمت شرائعهم في القصاص إلى قسمين: قسم أوجب القتل ولا خيار لأولياء المقتول فيه، وهي شريعة التوراة، لأن شريعة التوراة تميل إلى الغلظة والشدة.

وقسم آخر أوجب العفو. وقال: إنه إذا قُتل الإنسان عمداً، فالواجب على أوليائه التسامح. هكذا نقرأ في الكتب المنقولة ولم نقف على نص في الإنجيل، وإلا فإن الأصل أن شريعة الإنجيل هي شريعة التوراة وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (سورة المائدة: ٤٥). لكن فيما يُنقل عن بني إسرائيل نسمع هذا فجاء الدين الإسلامي وسطاً وجعل الخيار لأولياء المقتول إن شاءوا قتلوا قصاصاً ولهم الحق، وإن شاءوا عفووا مجاناً وإن شاءوا أخذوا الدية.

فصار الأمر في ذلك واسعاً. ومعلوم أن كل عاقل يُخير في مثل هذه الأمور سيختار ما فيه المصلحة العامة ويقدمها على كل شيء.

فمثلاً إذا كان هذا الرجل شريراً - أعني القاتل - وأولياء المقتول يحبون المال، وقالوا نريد أن نعفو إلى الدية لأننا محتاجون ليس عندنا مال. نقول: هذه ليس من الحكمة. انظروا إلى المصالح العامة وأنتم إذا تركتم شيئاً لله، عوضكم الله خيراً منه، اقتلوا هذا القاتل. ولهذا أوجب شيخ الإسلام ابن تيمية تبعاً للإمام مالك رحمه الله، أوجب قتل القاتل غيلة حتى لو عفى أولياؤه، حتى لو كان له صغار يحتاجون إلى المال، فإنه يجب أن يقتل لأن القتل غيلة لا يمكن التخلص منه، إذ أن الإنسان أغتيل في حالة لا يمكن أن يدافع عن نفسه، والمغتال مفسد في الأرض ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ (سورة المائدة: ٣٣).

منذر أبو سعيد

«وطلاقة الوجه، أيضاً، هذه من مكارم الأخلاق، وهل مثلاً: أطلق وجهي لكل إنسان حتى لو كان أجرم المجرمين؟ أو على حسب الحال؟ على حسب الحال، أطلق الوجه في ٦ من ٩ إيش معنى هذا؟ يعني في الثلثين، والثلث دعه لما تقتضيه الحال. ليكن سمتك طلاقة الوجه، هذا أحسن شيء، تجذب الناس إلى نفسك ويحبك الناس، ويستطيعون أن يفضوا إليك ما يفضون من أسرارهم، ولكن إذا كنت عبوساً، ففسد على شفتك السفلى، فإن الناس يهابونك ولا يستطيعون أن يتكلموا معك، وإذا اقتضت الحال أن لا تطلق الوجه فافعل، ولهذا لا يلام الإنسان على العبوس مطلقاً، ولا يمدح على تركها مطلقاً.

«افشاء السلام» يعني نشره وإظهاره على كل أحد؟ أسأل. لا. . . على من يستحق السلام عليه، على المسلم وإن كان عاصياً، وإن كان زانياً، وإن كان سارقاً، وإن كان مؤايياً، وإن كان يشرب الخمر، وإن كان فاسقاً. إلق عليه السلام، لقول النبي ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وهيرهما الذي يبدأ بالسلام»^(١). فإن فعل المؤمن منكراً ولاسيما إذا كان منكراً عظيماً يبتلى منه أن يفتت المجتمع الإسلامي حينئذ يكون هجره واجباً، إن نفع الهجر.

وإنما أقول ذلك لئلا يرد علينا قصة كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف عن غزوة بدر، فإن الرسول ﷺ أمر بهجره، أمر أن يهجره الناس فهجروه وصاروا لا يتكلمون معه حتى أنه ذات يوم تسور حديقة أبي قتادة رضي الله عنه وهو ابن عمه وأحب الناس إليه فسلم على أبي قتادة، فلم يرد عليه السلام، فسلم ثانيًا فلم يرد عليه السلام، ثالثًا فلم يرد عليه السلام. فقال أنشدك بالله هل تعلم أنني أحب الله ورسوله؟ كيف تهجري وأنا أحب الله ورسوله؟ فلم يرد عليه، ما قال نعم أو لا.

الله ورسوله أعلم!!

منذر أبو سعيد

الطلبة بعضهم مع بعض، يستثنى هذا . . يعني الطالب لا ينشي السلام مع أخوانه وزملائه وأصدقائه، لأن الخواطر طيبة والقلوب سليمة، والسلام تحية وشاشة، تقبل وقبول. فلا حاجة يقولون «يُغني ما في القلوب عن التعبير» ماتقولون في هذا الاستثناء؟

هذا الاستثناء باطل! الطلبة فيما بينهم أحق الناس بإفشاء السلام. يستثنى من ذلك أيضاً عند بعض الناس من خالفك في المنهج ووافقك في الهدف.

في الآن زمر - ولا نقول أحزاباً - بعضهم ينتمي إلى جماعة دون الأخرى، لكن أنت أن بعضهم سلم من بعض، بل بالعكس هم والعياذ بالله متناحرون باللسن، ولا أدري لو حصل أن يتناحروا بالسيوف أيفعلون أم لا؟ الله أعلم، لكن باللسن متناحرون . . . يسب بعضهم بعضاً وينفر بعضهم من بعض، ويمضي أوقات كثيرة في مجالس عديدة للقذف في الطائفة الأخرى. مع أن الهدف واحد، كلهم يريدون الوصول إلى تحقيق العبادة، وإلى الإقبال إلى الله وربما يكون هناك من أهل البدع المصححين لمخالفة السنة من لا يتكلمون عليه، وهذه محنة لمساها في بعض الزمر التي ال مرة تنحاز إلى شيء معين أو إلى منهج معين، فتجد بعضهم يضلل بعض، وهذه محنة. فمثل هذه الزمر يجب أن يسلم بعضهم على بعض، ويجب أن ينصح بعضهم بعضاً، وأن يبين كل واحد لأخيه ما هو مخطئ فيه حتى يصحح الخطأ وتأنف القلوب.

وأما أن تضرب القلوب بعضها ببعض والعياذ بالله من أجل خلاف في المنهج مع الإخاء في الهدف فهذا غلط عظيم.

ما أجاب، لماذا؟ لأن الرسول ﷺ أمرهم، ولو أمرهم أن يفعلوا أكبر من ذلك لفعلوا.

المهم أن الصحابة هجروه، لأنه تخلف عن غزوة تبوك وكان هجرهم بأمر من رسول الله ﷺ. يأتي فيسلم على الرسول ﷺ فيقول: فما أدري هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟

لكن الرسول يحبه لأنه إذا قام يصلي كعب، جعل النبي ﷺ يسارقه النظر . . ينظر إليه.

فهل هذا الهجر الذي وقع من الصحابة لكعب بن مالك هل أثر أم لم يؤثر؟ أثر . . . رجوعاً عظيماً إلى الله عز وجل ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ (سورة التوبة: ١١٨). لجأوا إلى الله ففرج الله عنهم.

فالحاصل: إفشاء السلام . . الأصل فيه أنه عام لكل أحد من المسلمين إلا من جاهر بمعضية، وكان من المصلحة أن يهجر فليُهجَر.

أما غير المسلمين فقد قال النبي ﷺ: «لَا تَبْدَأُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ»^(١). فيحرم علينا أن نبدأ اليهود والنصارى بالسلام، ومن سواهم أخصب منهم فلا نبداهم بالسلام، وإن سلموا نرد عليهم، لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حِيَّتُمْ بِنَجِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِمَّا أَوْ رَدُّوهَا﴾ (سورة النساء: ٨٦). فإذا قالوا السلام عليكم. نقول: عليكم السلام صراحة، لأن الآية ناطقة بذلك ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِمَّا أَوْ رَدُّوهَا﴾. ولأن النبي ﷺ إنما أمر أن نقول: «وعليكم» لأنهم يقولون: «السلام عليكم» كما جاء ذلك مصرحاً به في حديث عبد الله بن عمر أنه قال: «إنما اليهود أو أهل الكتاب يقولون السلام عليكم، فإذا سلموا فقولوا: وعليكم»^(٢). ما يستثنى من ذلك شيء آخر؟

(١) رواه مسلم (٢١٦٧).

(٢) رواه البخاري (٦٢٥٧) و(٦٢٥٨). ومسلم (٢١٦٣) و(٢١٦٤).

احتقار الآخرين فالبطر هو احتقار الآخرين - هو الكبر كما قال عليه الصلاة والسلام:
الكبر بطر الحق وغمط الناس^(١). أي: احتقارهم.

«وغشيان مواطن الريب» التي تكون محل الشك فيه وفي مروءته وأخلاقه يتجنبها
حم الله امرءاً كف الغيبة عن نفسه.

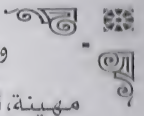
وإذا كان رسول الله ﷺ أظهر الخلق قال للرجلين الأنصارين وهو مع زوجته
صلىة: «إنها صفيه»، فكيف بغيره؟!

فالحاصل: إنك لا تثق بنفسك وتقول: إن الناس لا يظنون بي شيئاً فأنت وإن
كنت عند الناس في هذه المثابة، لكن الشيطان يلقي في قلوبهم الشر حتى يتهموك بما
أنت منه بريء فتجنب مواطن الريب حتى تسلم من الريبة.

٩. التمتع بخصال الرجولة:

تمتع بخصال الرجولة: من الشجاعة، وشدة البأس في الحق، ومكارم
الأخلاق، والبذل في سبيل المعروف، حتى تنقطع دونك آمال الرجال. وعليه:
فاحذر نواقضها: من ضعف الجأش، وقلة الصبر، وضعف المكارم، فإنها تهضم
العلم، وتقطع اللسان عن قولة الحق، وتأخذ بناصيته إلى خصومه في حالة
تلفح يسمومها في وجوه الصالحين من عباده.

هذه كالتمكين للأول، لأن التمتع بخصال الرجولة من المروءة بلاشك، فإن
الإنسان إذا نزل نفسه منزلة الرجال، الذين هم رجال بمعنى الكلمة فإنه سوف يتمتع
بما ذكره من الشجاعة وشدة البأس ومكارم لأخلاق والبذل في سبيل المعروف، حتى
تنقطع دونك آمال الرجال.



وعليه: فتتكب (خوارم المروءة): في طبع، أو قول، أو عمل: من حرفة
مهينة، أو خلة رديئة، كالعجب، والرياء، والبطر، والخيلاء، واحتقار الآخرين،
وغشيان مواطن الريب.

لما ذكر المروءة وأنه ينبغي لطالب العلم أن يتحلى بها. قال «تتكب» يعني: ابعد عن
خوارم المروءة في طبع أو قول أو عمل، يعني في طباعك. حاول أن تكون طباعك
ملائمة للمروءة، ومن المعلوم أن ليس التكحل في العين كالكحل، وليس التطيع
كالطبع. ولكن الإنسان مع ممارسته للشيء ربما يكون الكسب غريزة والتطيع طبيعة
وإلا فإن الإنسان لو حاول ما يحاول من أخلاق وطبعه ليس كذلك سيجد صعوبة
لكنه مع التمرن يحسن أو يحسن حاله وهذا مجرب، لقد سمعنا عن بعض الناس
الذي كان بعيداً عن طلب العلم، أو طالب علم كانت له أخلاق سيئة ثم لما من الله
عليه بالعلم والهداية صارت أخلاقه طيبة لأنه مرّن نفسه على هذه الأخلاق حتى
صارت كأنها من طباعه وغرائزه.

قوله: «من حرفة مهينة أو خلة رديئة»، الخلة يعني: الخصلة، والحرفة المهينة كل ما
يحترف به الإنسان من عمل، ثم ضرب لذلك أمثلة. فيقول: كالعجب أن يعجب
الإنسان بنفسه، فإذا استنبط فائدة قال: ما شاء الله، هذه الفائدة ما استنبطها أكبر
عالم، ثم أعجب بنفسه ورأى نفسه كبيراً وانتفخ.

الرياء: أن يرأي الناس بأن يتكلم في العلوم أمامهم حتى يروا أنه عالم فيقال أنه عالم.
البطر: رد الحق. وهذه تحصل في المجادلات والتعصب لرأي من الآراء أو
لمذهب من المذاهب، تجده يغمط الآخرين، يرد الحق لأنه خلاف ما يرى. الخيلاء:
تسجة العجب، يعني يظهر نفسه بمظهر العالم الواسع العلم ومن ذلك أن يكون
للعلماء في بلد ما زي خاص في اللباس، فيأتي هذا الإنسان البادئ بالعلم فيلبس
لباس كبار العلماء ليظن الظان أنه من كبار العلماء، هذا من الخيلاء. كذلك أيضاً

يعني: حتى لا يهم أحد أن يسبقك بما أنت عليه من هذه الخصال. فالشجاعة الإقدام في محل الإقدام، فإذا كانت الشجاعة هي الإقدام في محل الإقدام لزم من ذلك أن تسبق برأي وتفكير وحنكة، ولهذا قال المتنبي^(١).

الراي قبل شجاعة الشجعان ❖❖❖ هو أول وهي المحل الثاني

فإذا هما اجتماعا لنفس حرة ❖❖❖ بلغت من العلياء كل آمال

فلا بد من رأي؛ لأن الإقدام في غير رأي تهور وتكون نتيجته على عكس ما يريده هذا المقدم، كذلك شدة البأس في الحق، بحيث يكون قوياً فيه، صابراً على ما يحصل من أذى أو غيره في جانب الحق.

«مكارم الأخلاق» سبق الكلام عليها وأنها تشمل كل خلق كريم يُحمد الإنسان عليه.

«البذل في المعروف» البذل يشمل بذل المال والجاه والعلم، وكل ما يُبذل للغير لكن في سبيل المعروف، لكن البذل في سبيل المنكر فهو منكر، والبذل فيما ليس بمعروف ولا منكر قد يكون من إضاعة المال.

❖❖❖

منذر أبو سعيد

(١) هو شاعر الزمان أبو الطيب أحمد بن حسين بن حسن الجعفي الكوفي الأديب، الشهير بالمتنبي بلد الذروة في النظم، وسار ديوانه في الآفاق. مات في رمضان سنة ٣٥٤ هـ. «سير أعلام النبلاء» ١٦/١٩٩-٢٠١

١٠. هجر الترفه:

لا تسترسل في (التنعم والرفاهية)؛ فإن «البذاذة من الإيمان»^(١)، وخُذ

بوصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتابه المشهور، وفيه: «وأيكم والتنعم وزَيَّ العجم، وتمعددوا، واخشوشنوا....»^(٢).

❖❖❖

قوله: «لا تسترسل في التنعم والرفاهية» وهذه النصيحة تقال لطالب العلم ولغير طالب العلم لأن الاسترسال في ذلك مخالف لإرشاد النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان ينهي عنثرة الإرفاة ويأمر بالاحتفاء أحياناً، والإنسان الذي يعتاد الرفاهية يصعب عليه مواجهة الأمور، لأنه قد تأتته الأمور من وجه لا يستطيع فيه الرفاهية. ولنضرب لهذا مثلاً: الذي ذكرناه في الحديث «يأمر بالاحتفاء أحياناً» بعض الناس لا يحتفي دائماً، عليه الجورب وعليه الخف، لا تجده يمشي بهذا الرجل لو عرض له عارض وقيل له تمشي ٥٠ متر بدون وقاية للرجل، لوجدت ذلك يشق عليه مشقة عظيمة وربما تدمي قدمه من مماسة الأرض، لكن لو عود نفسه على الخشونة وترك الترفه دائماً لحصل له خير كثير، ثم إن البدن لو لم يُعوّد على مثل هذه الأمور لم يكن عنده مناعة فتجده يتألم من أي شيء من ذلك، لكن إذا كان عنده مناعة لا يهتم به لهذا تجد أيدي العمال الآن أقوى بكثير من أيدي طلبة العلم، ما في مانع لطلبة العلم لأنها تعودت على ذلك، حتى أن بعض العمال فيما سبق لما كانوا يعانون الطين واللبن إذا مستها كأنك مست حجراً... من خشونتها، ولو أنه ضم أصابعه على يدك لأملك كثيراً، لأنه اعتاد على ذلك. فترفيه الإنسان نفسه لاشك أنها ضرر عليه كبير.

(١) كما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم راجع له: «السلسلة الصحيحة» (رقم ٣٤١)، و«تعظيم قدر الصلاة» (رقم ٤٨٤) لابن نصر المروزي.

(٢) «مسند علي بن الجعد»: (١/٥١٧، رقم ١٠٣)، وعنه «الفروسية» لابن القيم: (ص ٩)، و«أدب الإملاء والاستملاء»: (ص ٨١). وأصله في «المصحيحين» وغيرهما.

منذر أبو سعيد

قوله «البذاذة من الإيمان» ما هي البذاذة؟ البذاذة عدم التنعم والترفيه. «وإياكم وزى العجم» هذه الجملة تحذيرية، لأن العرب عندهم جمل تحذيرية وعندهم جمل إغرائية، فإن وردت في مطلوب فهي إغراء، وإن وردت في محذور فهي تحذير فإن قلت لشخص: الأسد الأسد. فهذا تحذير، ولو قلت: الغزال الغزال. هذا إغراء. أما «إيا» فهي للتحذير. قال ابن مالك

إياك والشرو ونحوه نصب ❖❖❖ مُحذَرٌ بما استتروا

«إياكم والتنعم» هذه الواو للعطف، وقيل للمعية^(١). والمعنى: أحذركم مع التنعم. أي: أن تكونوا مع التنعم باللباس، بالبدن، بكل شيء. والمراد بذلك: كثرته. لأن التنعم بما أحل الله على وجه لا إسراف فيه من الأمور المحموده، ومن ترك التنعم بما أحل الله من غير سبب شرعي، فهو مذموم.

وقوله «زي العجم» ما هو زي العجم؟ شكله. سواء كان هذا في الحلية، أو كشكل شعر الرأس وما أشبه ذلك. أو كان باللباس، فإننا منهيون عن زي العجم، وليس المراد بالعجم أمة إيران، بل المراد بالعجم كل من سوى العرب، فيدخل فيه الأوروبيون والشرقيون في آسيا وغيرهم، لكن المسلم من العجم التحق بالعرب حكماً لا نسباً، لأنه اقتدى بمن بعث في الأميين رسولاً ﷺ.

وقوله «اخشوشنوا» فهو من الخشونة التي هي ضد الليونة والتنعم. وكل هذه وصايا من عمر ﷺ. . . وصايا نادرة، لو أن الناس عملوا بها سواء من طلبة العلم أو غير طلبة العلم لكان فيه خيرٌ كثير، لكن الآن في البلاد التي من الله عليها بالأمن وطيب العيش وكثرة المال، صار الأمر بالعكس فالتنعم موجود لا يريد الإنسان إلا أن يركب مركباً مريحاً، ويبنى قصرًا مشيداً، ولا يناله شيء من الأذى لا بردٌ في برد ولا حرٌ في حر ولا يمسه شيء، متنعمٌ تمامًا، ولهذا كثر فيهم الأوبئة التي تترتب على عدم

(١) أي بمعنى «مع» التي تفيد الظرفية، ولا يقع بعدها إلا اسماء، ويكون منصوباً على أنه مفعولاً معه.

مفعولاً سار الشاعر والليل. أما العاطفة فيخالف ذلك.

الحركة، مثل: السمعة، والضغط، وضيق التنفس بعض الناس تجده شاباً، تصعد أنت وإياه الجبل لا ينتصف الجبل إلا وقد سارع نفسه حتى كاد يخور بدنه، وأنت ستريح. لماذا؟ لأنك تعودت وهو لم يتعود رغم أنه شاب، لكن لم يعود نفسه.

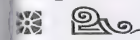
زي العجم الآن موجود، يتربصون كل موضحة تخرج حتى يقلدوها، وقد اتعبت النساء رجالها في هذا الباب. تأتي صباح النهار بلباس من أحسن الألبسة نظيف، ساتر، واسع، ثم تنزل إلى السوق في آخر النهار، فإذا بموضحة جديدة فتصيح . . أريد أن أشتري هذا الثوب. مع أنه أضيق من الأول وأساء من الأول، وأردأ من الأول . . لكن هذا شيء جديد لابد أن تأخذه، خصوصاً من من الله عليها بالمال، بعض المدرسات وغيرهم، تجده ما يهم تشتري ما تريد. هذا غلط، ولهذا كثر الآن من أيدي النساء مجلات تسمى «البوردا» تأخذها المرأة وتنظر ما يروق لها، حتى لو كان لباساً ما يتناسب مع الشرع، لكنه جديد. نسأل الله السلامة والهداية.

وعليه: فَارْزُورْ عَنْ زَيْفِ الْحَضَارَةِ؛ فَإِنَّهُ يُؤْتِ الثُّبْتَ الطَّبَاعَ، وَيُرْخِي الْأَعْصَابَ، وَيُقَيِّدُكَ بِخَيْطِ الْأَوْهَامِ، وَيَصِلُ الْمُجِدُّونَ لَغَايَاتِهِمْ وَأَنْتَ لَمْ تَبْرَحْ مَكَانَكَ، مَشْغُولٌ بِالتَّائِقِ فِي مَلْبَسِكَ، وَإِنْ كَانَ مِنْهَا شَيْءٌ لَيْسَتْ مُحَرَّمَةً وَلَا مَكْرُوهَةً لَكِنْ لَيْسَتْ سَمْتًا صَالِحًا، وَالْحَلِيَّةُ فِي الظَّاهِرِ كَاللَّبَاسِ عَنَوَانٌ عَلَى انْتِمَاءِ الشَّخْصِ، بَلْ تَحْدِيدُهُ لَهُ، وَهَلِ اللَّبَاسُ إِلَّا وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ التَّعْبِيرِ عَنِ الذَّاتِ؟ فَكُنْ حَذِرًا فِي لِبَاسِكَ؛ لِأَنَّهُ يُعَبِّرُ لَغَيْرِكَ عَنْ تَقْوِيمِكَ؛ فِي الانْتِمَاءِ وَالتَّكْوِينِ، وَالدُّوْقِ، وَلِهَذَا قِيلَ: الْحَلِيَّةُ فِي الظَّاهِرِ تَدُلُّ عَلَى مِيلٍ فِي الْبَاطِنِ، وَالنَّاسُ يَصْنُفُونَكَ مِنْ لِبَاسِكَ، بَلْ إِنَّ كَيْفِيَّةَ اللَّبَسِ تَعْطِي لِلنَّازِرِ تَصْنِيفَ اللَّابِسِ مِنْ: الرِّصَانَةِ وَالتَّعَقُّلِ، أَوْ التَّمَشُّيْخِ وَالرَّهْبَانَةِ، أَوْ التَّصَابِي وَحُبِّ الظُّهُورِ. فَخُذْ مِنَ اللَّبَاسِ مَا يُزِينُكَ وَلَا يُشِينُكَ، وَلَا يَجْعَلُ فِيكَ مَقَالًا لِقَائِلٍ، وَلَا لِمَا لِلَامْرِ، وَإِذَا تَلَاقَى مَلْبَسُكَ وَكَيْفِيَّةُ لِبَسِكَ بِمَا يَلْتَقِي مَعَ شَرَفٍ مَا تَحْمِلُهُ

من العلم الشرعي؛ كان أدعى لتعظيمك والانتفاع بعلمك، بل يحسن نيتك يكون قربة؛ إنه وسيلة إلى هداية الخلق للحق. وفي المأثور عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ^(١): «أحب إلي أن أنظر القاريء أبيض الثياب».

أي: ليعظم في نفوس الناس، فيعظم في نفوسهم ما لديه من الحق والناس. كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى - كأسراب القطا، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض ^(٢). فإياك ثم إياك من لباس التصابي، أما اللباس الإفرنجي؛ فغير خاف عليك حكمه، وليس معنى هذا أن تأتي بلباس مشوه، لكنه الاقتصاد في اللباس برسم الشرع، تحفه بالسمة الصالح، والهدي الحسن.

وتطلب دلائل ذلك في كتب السنة والرقاق لا سيما في «الجامع للخطيب» ^(٣). ولا تستنكر هذه الإشارة؛ فمزال أهل العلم ينبهون على هذا في كتب الرقاق والآداب واللباس ^(٤)، والله أعلم.



لما ذكر - وفقه الله - هجر الترف، اطنب في ذكر اللباس الظاهر لأن اللباس الظاهر عنوان على اللباس الباطن، لذلك فإنك تجد رجلاً كلاهما عليه ثوب مثل الآخر فتزدرى أحدهما ولا تهتم بالآخر، تزدرى بمن لباسه ينبغي أن يكون على غير هذا الوجه إما في الكيفية، وإما في اللون، وإما في الخياطة أو غير ذلك.

والثاني - لا ترفع له رأساً ولا ترى في لباسه بأساً لأن لكل قالب ما يناسبه فمثلاً: العقل هو في الأصل لا بأس فيه، بل إن بعضهم يقول: إنه العمامة العصرية.

(١) «الإحكام» للقرافي: (ص ٢٧١).

(٢) «مجموع الفتاوى»: (٢٨ / ١٥٠).

(٣) «الجامع»: (١ / ١٥٣-١٥٥).

(٤) «أدب الإملاء والاستملاء»: (ص ١١٦-١١٩)، «اقتضاء الصراط المستقيم»، «مجموع الفتاوى»:

(٢١ / ٥٣٩)، وانظر: «الروح» لابن القيم: (ص ٤٠).

العمامة في عهد الرسول ﷺ كانت لفافة تطوى على الرأس وكانت تحتاج إلى تعب في طيها ونقلها، لكن هذا مطوي جاهز ليس عليك إلا أن تضعه على رأسك، فهو العمامة إلا أنه عمامة ميسرة، ولهذا كان بعض الناس فيما سبق يجعلون (العقل) ساء لتكون كالعمامة تماماً. هذه (العقل) لا يلبسها كل الناس على حد سواء. يرى لك رجلان كلاهما قد لبس العقل، أحدهما تزدرى والثاني لا تهتم به، لأن الأول لبس ما لا يلبسه مثله، والثاني لبس ما يلبسه مثله. وأشياء كثيرة من هذا النوع.

وقول الشيخ بكر - وفقه الله: «يعبر لغيرك عن تقويمك في الإنتماء والتكوين والدوق» هذا أيضاً صحيح، لأن كل إنسان قد يزن من لاقاهم بحسب ما عليهم من اللباس كما أنه يزن بالنسبة لحركاته وكلامه وأقواله وخفته ووزانته، كذلك في اللباس يحذر من لباس التصابي. بأن يلبس الشيخ الكبير السن ما يلبسه الصبيان من رقيق اللباس وما أشبه ذلك فهذه أيضاً من الأمور التي لا ينبغي للإنسان أن يمارسها.

أما اللباس الإفرنجي فغير خاف عليك حكمه. وحكمه التحريم، لقول النبي ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم» ^(١). ولكن ما هو اللباس الإفرنجي؟ اللباس الإفرنجي المختص بهم، بحيث لا يلبسه غيرهم، بحيث إذا رآه الرأي قال: إن لابس من الإفرنج، وأما ما كان شائعاً بين الناس من الإفرنج وغير الإفرنج فهذا لا يكون بالتشبه، لكن قد يحرم من جهة أخرى، مثل أن يكون حريراً بالنسبة للرجال، أو نصيراً بالنسبة للنساء أو ما أشبه ذلك.

ثم لما خاف أن الذهن يمضي بعيداً. قال: «ليس معنى هذا أن تأتي بلباس مشوه» كما فعل بعض الناس إظهاراً للزهد، تجد ثوبه ينشق. يقول: اتركه لا يهتم به، يتوسخ. يقول: ما يهم. أنا مآلي إلى التراب. هذا ما هو طيب: الإنسان ينبغي أن يعرف نفسه وما يأتي بما يكون هزواً في حقه، لأنه مأمور بأن يدفع الريبة عن نفسه. رحم الله امرأ كف الريبة عن نفسه.

(١) رواه أحمد (٢ / ٥٠) ضمن حديث طويل، وأبو داود (٤٠٣١).

١١. الإعراض عن مجالس اللغو:

لا تَطْأُ بِسَاطَ مَنْ يَغْشَوْنَ فِي نَادِيهِمُ الْمُنْكَرَ، وَيَهْتَكُونَ أَسْتَارَ الْأَدَبِ؛ مُتَغَابِيًا عَنْ ذَلِكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ: فَإِنَّ جَنَائِتَكَ عَلَى الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ عَظِيمَةٌ.

أما قوله: «الإعراض عن مجالس اللغو» فاللغو نوعان:

الأول - لغو ليس فيه فائدة ولا مضرة.

والثاني - لغو فيه مضرة.

أما الأول فلا ينبغي للعاقل أن يذهب وقته فيه، لأنه خسارة.

وأما الثاني فإنه يحرم عليه أن يمضي وقته فيه، لأنه منكر محرم.

والمؤلف كأنه حمل الترجمة على المعنى الثاني الذي هو: اللغو المحرم، ولا شك أن المجالس التي تشتمل على المحرم لا يجوز للإنسان أن يجلس فيها لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخْرُجُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾ (سورة النساء: ١٤٠).

فمن جلس مجلس منكر وجب عليه أن ينهي عن هذا المنكر، فإن استقامت الحال فهذا هو المطلوب، وإن لم يستقم وأصرروا على منكرهم فالواجب أن ينصرف. خلافا لما يتوهمه بعض العامة يقولون: فإن الرسول ﷺ قال: «فإن لم يستطع فبقليه»^(١). وأنا كاره لهذا المنكر في قلبي.

يقال له: لو كنت كاره حقا ما جلست معهم، لأن الإنسان لا يمكن أن يجلس على مكروه، إلا أن يكون مكرها، أما شيء يكره وأنت جالس باختيارك فأنت في دعواك - كراهيته - ليست بصحيحة.

(١) رواه مسلم (٤٩).

قوله: «جنايتك على العلم وأهله عظيمة» أما كونه جناية على نفسه فالأمر ظاهر، من: لو رأيت طالب علم يجلس مجالس اللهو واللغو والمنكر، فجنايته على نفسه المصحة وعظيمة، لكن كيف تكون جناية على العلم وأهله؟ بأن الناس يقولون: هؤلاء طلبة العلم هؤلاء العلماء... هذا نتيجة العلم وما أشبه ذلك فيكون قد جنى على نفسه وعلى غيره.

١٢. الإعراض عن الهيئات:

التَّصَوُّنُ مِنَ اللَّغَطِ وَالْهَيْشَاتِ؛ فَإِنَّ الْغَلَطَ تَحْتَ اللَّغَطِ؛ وَهَذَا يُنَافِي أَدَبَ الْطَلَبِ.

«الهيئات» يعني بذلك هيئات الأسواق. كما جاء في الحديث التحذير منها لأنها تعمل على لغط وسب وشتم، وبعض طلبة العلم يقول: أنا أقعد في الأسواق من أجل أن أنظر ماذا يفعل الناس وماذا يكون بينهم. فنقول: هناك فرق بين الاحتيار والممارسة.

يعني لو ذكر لك أن في السوق الفلاني كذا وكذا، فهنا لا حرج عليك أن تذهب وتجرب بنفسك، لكن لو كان جلوسك في هذا السوق مستمرا، تمارسه كل عصر فروح إلى السوق لكان هذا خطأ بالنسبة لك لأنه إهانة لك ولطلبة العلم عموما واللعلم الشرعي أيضا.

ومن لطيف ما يستحضر هنا ما ذكره صاحب «الوسيط في أدباء شنقيط» وعنه في «معجم المعاجم»: «أنه وقع نزاع بين قبيلتين، فسعت بينهما قبيلة أخرى في الصلح، فتراضوا بحكم الشرع، وحكموا عالما، فاستظهر قتل أربعة من قبيلة قتلوا من القبيلة الأخرى، فقال الشيخ باب بن أحمد: مثل هذا لا قصاص فيه. فقال القاضي: إن هذا لا يوجد في كتاب. فقال: بل لم يخل منه كتاب، فقال القاضي: هذا «القاموس» يعني أنه يدخل في عموم كتاب. فتناول

صاحب الترجمة «القاموس»، وأول ما وقع نظره عليه: والهيضة: الفتنة، وأم حبين^(١)، وليس في الهيئات قود؛ أي: في القتل في الفتنة لا يدرى قاتله، فتعجب الناس من مثل هذا الاستحضار في ذلك الموقف الحرج. أهملنا.

هؤلاء القبيلة حدث بينهم فتنة، فقتلت من إحدى القبيلتين أربعة رجال فحضروا إلى القاضي. فقال الشيخ واسمه باب بن أحمد: مثل هذا لا قصاص فيه. قال القاضي الحاكم: إن هذا لا يوجد في كتاب.

أي: أين الدليل على أنه لا يوجد في كتاب. فقال: بل لم يخل منه كتاب. فقال القاضي: هذا القاموس. أي أنه يدخل في عموم كتاب.

كلمة «كتاب» عامة تشمل كل الكتب. العقيدة والفقه والنحو والأدب وكل شيء. لأن كتاب نكرة في سياق النفي تكون للعموم.

«القاموس» كتاب لغة.

«أم حبين» دويبة تشبه الخنفساء.

١٣. التحلي بالرفق:

التزم الرفق في القول؛ مجتنبا الكلمة الجافية؛ فإن الخطاب اللين يتألف النفوس الناشزة. وأدلة الكتاب والسنة في هذا متكاثرة.

هذا من أهم الأخلاق لطالب العلم، سوء كان طالب أم مطلوب - أي: معلم - فالرفق كما قال النبي ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»^(٢). وما كان الرفق في

(١) هي دويبة.

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٣).

١٤. التأمل:

التحلي بالتأمل؛ فإن من تأمل أدرك، وقيل: «تأمل تدرك». وعليه؛ فتأمل عند التكلم؛ بماذا تتكلم؟ وما هي عائدته؟ وتحرز في العبارة والأداء دون تعنت أو تحذلق، وتأمل عند المذاكرة كيف تختار القالب المناسب للمعنى المراد، وتأمل عند سؤال السائل كيف تتفهم السؤال على وجهه حتى لا يحتمل وجهين؟ وهكذا.

«التأمل» يريد بذلك: التأني، وألّا تتكلم حتى تعرف فيما تتكلم، وماذا تكون النتيجة. ولهذا يقولون: لا تضع قدمك إلا حيث علمت السلام. لأن الإنسان يمشي. لا يضع قدمه إلا في حفرة أم شوكة أم حصي حتى يعرف أين يضع قدمه، فالتأمل هذا مهم، ولا تتعجل إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولذلك قال الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته ❖❖❖ وقد يكون مع المستعجل الزلل
وربما فات قدم جل أمرهم ❖❖❖ مع التأني وكان الرأي لو عجلوا

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤) وانظر: مصابيح السنة للبغوي رقم (٣٩٤٢).

فإذا دار الأمر بين أن أتأني وأصبر أو أتعجل وأقدم . فأيهما أقدم؟ الأول . لا
القول أو الفعلة إذا خرجت منك لا يمكن أن ترجع . لكن مادمت لم تقل ولم تفعل
فأنت حر . فتأمل بماذا تتكلم به ، وما هي فائدة الكلام ، ولهذا قال النبي ﷺ : «**مر**
كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١) . «تحرز في العبارة والأداء» وهذا أيضاً
من أهم ما يكون . يعني : لا تطلق العبارة على وجه تؤخذ عليك بل تحرز إما بقيود
تضيفها إلى الإطلاق ، وإما بتخصيص تضيفه إلى العموم ، وإما بشرط تقول إن كان
كذا أو ما أشبه ذلك . ولكن أقول دون تعنت أو تحزلق . **تحرز**

«وتأمل عند المذاكرة كيف تختار القالب المناسب للمعنى المراد» لعله أراد تأمل عند
المذاكرة ، أي عند تذاكر غيرك في شيء وتناظره ، فاختر القالب المناسب
للمعنى المراد .

«وتأمل عند سؤال السائل كيف تتفهم السؤال على وجهه حتى لا يحتمل وجهين» وكذلك
في الجواب وهو الأهم ، لأن السؤال يسهل على المسئول أن يستفهم من السائل ماذا
تريد؟ أريد كذا وكذا . فيتبين الأمر ، لكن الجواب إذا وقع مجملاً فإنه عند الناس على
تفسير متعددة ، كل إنسان يفسر هذا الكلام بما يريد وبما يناسبه .

١٥ . الثبات والتثبت :

تَحَلَّ بِالثَّبَاتِ وَالتَّثَبُّتِ ، لَاسِيَّماً فِي الْمُلَمَّاتِ وَالْمُهَمَّاتِ ، وَمِنْهُ : الصَّبْرُ وَالثَّبَاتُ
فِي التَّلَقِّيِّ ، وَطِيُّ السَّاعَاتِ فِي الطَّلَبِ عَلَى الْأَشْيَاخِ ، فَإِنَّ «مَنْ ثَبَّتَ ثَبَّتَ» .

هذا أهم ما يكون في هذه الآداب ، هو الثبت فيما ينقل من أخبار ، والثبت فيما
يصدر منك من الأحكام .

منذر أبو سعيد

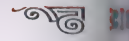
(١) رواه البخاري (٦٠١٨) ومسلم (٤٧) .

فالأخبار إذا نُقلت فلا بد أن تثبت أولاً . هل صحت عمن نقلت إليه أو لا ؟ ثم
إذا صحت فلا تحكم حتى تثبت في الحكم ، ربما يكون الخبر الذي سمعته مبنياً
على أصل أنت تجهله فتحكم بأنه خطأ ، والواقع بأنه ليس بخطأ ، ولكن كيف العلاج
في هذه الحال ؟

العلاج بأن تتصل بمن نُسب إليه الخطأ وتقول : نُقل عنك كذا وكذا فهل هذا
صحيح ؟ ثم تناقشه . فقد يكون استنكارك ونفور نفسك منه أول وهلة سمعته لأنك لا
تدري ما سبب هذا المنقول . ويُقال : إذا علم السبب بطل العجل . أو العجب ؟
«الثبات والتثبت» هذان شيان متشابهان لفظاً ، ومختلفان معنى .

فالثبات : معناه الصبر والمصابرة ، وألا يمل ولا يتضجر وألا يأخذ من كل كتاب
قصة ، أو من كل فن قطعة ثم يترك . لأن هذا هو الذي يضر الطالب ، يقطع عليه
الإنعام بلا فائدة إذا لم يثبت على شيء . تجده مرة في الأجرومية ، ومرة في متن قطر
الندى ومرة في الألفية . في المصطلح مرة في النخبة ومرة في ألفية العراقي ، ويتخبط
في الفقه مرة في زاد المستقنع ومرة في عمدة الفقه ، مرة في المغني مرة في شرح
المهذب وهكذا . هذا في الغالب أنه لا يحصل علم ، ولو حصل علماً فإمّا يحصل
مسائل لا أصول المسائل كالذي يلتقط الجراد واحدة بعد أخرى ، لكن التأسيس
والرسوخ والثبات هذا هو المهم . اثبت بالنسبة للكتب التي تقرأ وتراجع ، واثبت
بالنسبة للشيخ أيضاً الذين تتلقى عنهم لا تكن ذواقاً كل أسبوع عند شيخ ، كل شهر
عند شيخ ، قرر أولاً من ستلقى العلم عنده ، ثم إذا قررت ذلك فاثبت . فإن من ثبت
لمن ، ومن لم يثبت لم ينبت . ولم يحصل على شيء .

منذر أبو سعيد



الفصل الثاني

كيفية الطلب والتلقي

١٦. كيفية الطلب ومراتبه:

«مَنْ لَمْ يُتَقَنَّ الْأُصُولَ؛ حُرِمَ الْوُصُولُ»^(١)، «وَمَنْ رَامَ الْعِلْمَ جُمْلَةً؛ ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةٌ»^(٢)، وَقِيلَ أَيْضًا: «أَزْدَحَامُ الْعِلْمِ فِي السَّمْعِ مَضَلَّةُ الْفَهْمِ»^(٣). وَعَلَيْهِ؛ فَلَا بُدَّ مِنَ التَّأْصِيلِ وَالتَّأْسِيسِ لِكُلِّ فَنٍ تَطْلُبُهُ، بِضَبْطِ أَصْلِهِ وَمُخْتَصَرِهِ عَلَى شَيْخٍ مُتَقَنَّ؛ لَا بِالتَّحْصِيلِ الذَّاتِي وَحْدَهُ، وَأَخْذًا الطَّلَبَ بِالتَّدْرِجِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانَهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنُنَزِّلَهُ تَنْزِيلًا﴾ (سورة الإسراء: ١٠٦). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (سورة الفرقان: ٣٢). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ (سورة البقرة: ١٢١).



«كيفية الطلب» وهذه أيضًا مهمة، ليني الإنسان طلبه على أصول ولا يتخطى خطه نسواي. يقول «مَنْ لَمْ يُتَقَنَّ الْأُصُولَ، حُرِمَ الْوُصُولُ» وقيل بعبارة أخرى: «مَنْ فَاتَهُ الْأُصُولُ حُرِمَ الْوُصُولُ». لَأَنَّ الْأُصُولَ هِيَ الْعِلْمُ وَالْمَسَائِلُ فُرُوعٌ كَأَصْلِ الشَّجَرَةِ وَالْأَغْصَانُ، إِذَا لَمْ تَكُنِ الْأَغْصَانُ عَلَى أَصْلٍ جَيِّدٍ فَإِنَّهَا تَذْبُلُ وَتَهْلِكُ.

ما هي الأصول؟ هل هي الأدلة الصحيحة؟ أم هي القواعد والضوابط؟ أو هذا وهذا؟ الثاني هو المراد. تبني على الأصول من الكتاب والسنة وتبني على قواعد

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص ١٤٤).
(٢) «فصل العلم» محمد رسلان (ص ١٤٤).
(٣) «شرح الإحياء» (١/ ٣٣٤).

وضوابط مأخوذة بالتتبع والاستقراء من الكتاب والسنة ترجع إليها أحكام الكتاب والسنة، وهذه من أهم ما يكون لطالب العلم. متى تجد المشقة تجد التيسير. هذا أصل من الأصول مأخوذ من الكتاب والسنة.

من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (سورة الحج: ٧٨). ومن السنة قول النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب»^(١). وقال: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(٢). هذا أصل لو جاءت ألف مسألة بصور متنوعة لأمكنك أن تحكم على هذه المسائل بناء على هذا الأصل، لكن لو لم يكن لديك هذا الأصل وتأتيتك مسألتان أشكل عليك الأمر.

كذلك أيضاً قال: «من رام العلم جملة ذهب عنه جملة» هذا أيضاً له وجه صحيح إذا أراد الإنسان أن يأخذ العلم جميعاً فإنه يفوته العلم جميعاً، لأن هذا لا يمكن، لابد أن تأخذ العلم شيئاً فشيئاً، كسلم تصعد عليه من الأرض إلى السطح، ليس العلم مأكول كتبت فيه العلوم، تأكل ثم تقول انتهى هضمت هذا العلم... لا العلم يحتاج مرونة وصبر وثبات وتدرج، وقيل أيضاً: «ازدحام العلم في السمع مضلة الفهم» يعني كثرة استماع العلم توجب أن تضل في فهمك. وهذا أيضاً ربما يكون صحيحاً، فالإنسان إذا ملأ سمعه بما يسمع أو بصره بما يقرأ ربما ازدحمت العلوم عليه ثم تشتبه عليه ثم يعجز عن التخلص منها.

قال: «وعليه، فلا بد من التخصص والتأسيس لكل فن تطلبه بضبط أصله ومختصره على شيخ متقن». لابد من هذا ولو على شيخ أعلى منك بقليل، لأن بعض الناس إذا رأى طالباً من الطلبة يتميز عنه بشيء من التميز جعله شيخاً وعنده شيوخ أعلم من هذا بكثير، لكن يجعل هذا الصغير شيخه لأنه بذه بشيء من مسائل العلم. وهذا

(١) رواه أحمد. وهو في صحيح الجامع برقم (٣٧٧٨).

(٢) رواه مسلم (٢٣٥٧).

مر صحيح. بل اختر المشايخ ذوي الإتقان، وأيضاً نضيف إلى الإتقان وصفاً آخر هو الأمانة لأن الإتقان قوة، والقوة لابد فيها من أمانة: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ (سورة القصص: ٢٦). ربما يكون العالم عنده اتقان وعنده سعة علم وعنده قدرة على التفريع وعلى التقسيم وعلى كل شيء، لكن ليس عنده أمانة، فربما أضلك من حيث لا تشعر. «لا بالتحصيل الذاتي وحده» يعني لا تأخذ العلم بالتحصيل الذاتي، ان تقرأ الكتب فقط دون أن يكون لك شيخاً معتمداً، ولهذا قيل: «من كان دليله كتابه كان خطؤه أكثر من صوابه». أما من أخذ عن عالم، عن شيخ فإنه يستفيد فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى - قصر المدة.

الفائدة الثانية - قلة التكلف.

وفيه فائدة ثالثة - هي أن ذلك أحرى بالصواب، لأن هذا الشيخ عالم متعلم مرجع، فيعطيك الشيء ناضجاً، وإن كان عنده شيء من الأمانة فإنه يمرنه على المراجعة والمطالعة. أما من اعتمد على الكتب فإنه لابد أن يكرس جهوده ليلاً ونهاراً، ثم إذا طالع الكتب التي يقارن فيها بين أقوال العلماء، فسيقت أدلة هؤلاء، وأدلة هؤلاء. من يده على أن ذلك أصوب؟ يبقى متحيراً. ولهذا نرى أن ابن القيم رحمه الله - عندما يناقش قولين لأهل العلم سواء في «زاد المعاد» أو في «إعلام الموقعين» إذا ساق أدلة هذا القول وعلمه. تقول: هذا هو القول الصواب. ولا يجوز العدول عنه بأي حال من الأحوال، ثم ينقض ويأتي بالقول المناقض ويأتي بالأدلة. فقول هذا هو القول الصواب.

«أخذ الطالب بالتدرج» ثم استدل بالآيات.

فأمامك أمور لا بد من مراعاتها في كل فن تطلبه:

١. حفظ مختصر فيه.
٢. ضبطه على شيخ متقن.
٣. عدم الاشتغال بالمطولات وتفاريق المصنفات قبل الضبط والابتقان لأصله.
٤. لا تنتقل من مختصر إلى آخر بلا موجب، فهذا من باب الضجر.
٥. اقتناص الفوائد والضوابط العلمية.

٦. جمع النفس للطلب والترقي فيه، والاهتمام والتحرق للتحصيل والبلوغ إلى ما فوقه حتى تفيض إلى المطولات بسابله مؤثرة.

«أولاً. حفظ مختصر فيه»، فمثلاً إذا كنت تطلب النحو فاحفظ مختصراً فيه، فإن كنت مبتدئاً فلا أرى أحسن من متن الأجرومية^(١)، لأنه واضح جامع وفيه بركة ثم متن الألفية، ألفية ابن مالك. لأنها خلاصة علم النحو كما قال هو نفسه:

أحصى من الكافية الخلاصة ❖❖❖ كما اقتضى فناً بلا خصاصة

في الفقه: احفظ «زاد المستقنع» لأن هذا الكتاب مخدوم في الشروح والخواشي والتدريس، وإن كان بعض المتون الأخرى أحسن منه من وجه، وإلا إنه أحسن منها من وجه آخر من حيث كثرة المسائل الموجودة فيه، ومن حيث أنه مخدوم بالشروح والخواشي وغير ذلك.

في الحديث: متن عمدة الأحكام وإن ترقيت فبلوغ المرام. وإذا كنت تقول إما هذا أو هذا فبلوغ المرام أحسن لأنه أكثر، ولأن الحافظ ابن حجر رحمه الله يبين درجة الحديث، وهذا مفقود بالنسبة لعمدة الأحكام، وإن كان درجة الحديث فيها معروفة لأنه لم يضع في هذا الكتاب إلا ما اتفق عليه الشيخان. البخاري ومسلم.

(١) مطبوع بشرح سماحة الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - وهو من مطبوعات دار البصيرة.

في التوحيد: من أحسن ما قرأنا كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وقد يسر الله في الآونة الأخيرة من خرج أحاديثه وبين ما في بعضها من ضعف، والحق أحق أن يتبع.

في الأسماء والصفات: من أحسن ما قرأت «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، فهي كتاب جامع مبارك مفيد. وهلم جرا... خذ من كل فن تريد طلبه كتاباً مختصراً فيه واحفظه.

«ثانياً. ضبطه على شيخ متقن» ولو قال: ضبطه وشرحه لكان أولى، لأن المقصود ضبطه وتحقيق ألفاظه وما كان زائداً أو ناقصاً، وكذلك الشرح. استشرح هذا المتن على شيخ متقن، وكما قلنا فيما سبق أنه يجب أن يضاف إلى الابتقان صفة أخرى وهي الأمانة.

«ثالثاً. عدم الاشتغال بالمطولات» وهذه مهمة جداً لطالب العلم، أن يتقن المختصرات أولاً حتى ترسخ المختصرات بذهنه ثم بعد ذلك يفيض إلى المطولات، لكن بعض الطلبة قد يغرب، فيطالع المطولات ثم إذا جلس مجلساً قال: قال صاحب المغني، قال صاحب المجموع، قال صاحب الإنصاف، قال صاحب الحاوي يظهر أنه واسع الاضطلاع وهذا خطأ. نحن نقول ابدأ بالمختصرات أولاً حتى ترسخ العلوم في ذهنك، ثم إذا من الله عليك فاشتغل بالمطولات.

«رابعاً. لا تنتقل من مختصر إلى آخر بلا موجب فهذا من باب الضجر» التنقل من مختصر إلى آخر، أو كتاب فوق المختصر إلى آخر هذه آفة عظيمة، تقطع على الطالب طلبه وتضيع على الطالب أوقاته، كل يوم له كتاب، بل كل ساعة له كتاب. هذا خطأ، إذا عزمت أن يكون قرارك الكتاب الفلاني فاستمر، لا تقل اقرأ فصلاً في هذا الكتاب ثم تقول انتقل إلى آخر، فإن هذا مضيعة الوقت.

أما إذا كان هناك موجب، كأن لم تجد أحداً يدرسك في هذا المختصر ورأيت شيخاً موثقاً بإتقانه وأمانته يدرس مختصراً آخر فهذا موجب لا حرج عليك أن تنتقل من هذا إلى هذا.

«خامساً. اقتناص الفوائد والضوابط العلمية» وهذا أيضاً من أهم ما يكون الفوائد التي لا تكاد تطرق على الذهن أو التي يندرُ ذكرها والتعرض لها أو التي تكون مستجدة تحتاج إلى بيان حكم فيها، هذه اقتنصها قيدها، لا تقل هذا أمر معلوم عندي ولا حاجة إلى أن أقيدها، إن شاء الله أنا لا أنساها. فإنك سرعان ما تنساها.

أما الضوابط فناهيك بها، فأيضاً احرص على الاهتمام بالضوابط، ومن الضوابط ما يذكره الفقهاء تعليلاً للأحكام فإن كل التعليقات للأحكام الفقهية تعتبر ضوابط، لأنها تنبني عليها الأحكام، فهذه أيضاً احتفظ بها. لأن كل علة يبنى عليها مسائل كثيرة، إذ أن العلة ضابط يدخل تحته جزئيات كثيرة. مثلاً إذ قال: إذا شك في طهارة الماء أو نجاسته، فإنه يبنى على اليقين، هذا على كل حال تعتبر حكماً وتعتبر ضابطاً أيضاً يعلل، لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان، فإذا شك في نجاسة طاهر فهو طاهر، أو في طهارة نجس فهو نجس لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان. فإذا شك في نجاسة طاهر فهو طاهر، أو في طهارة نجس فهو نجس لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان.

ولهذا لو أن الإنسان كلما مرَّ عليه مثل هذه التعليقات ضبطها وحررها ثم حاول في المستقبل أن يبنى عليها مسائل جزئية لكان في هذا فائدة كبيرة له ولغيره.

«سادساً. جمع النفس للطلب والترقي فيه، والاهتمام بالتحرق للتحصيل والبلوغ إلى ما

فوقه حتى تفيض إلى المخطوات بسابله موثقة»، هذا أيضاً مهم، أن الإنسان يجمع نفسه للطلب فلا يشتتها يمينا ويساراً يوماً يطلب العلم، يوماً يفكر أن يفتح مكتبة، يوم ثاني يقول: لا أروح إلى مبيع الخضار. هذا ما هو صحيح.

جمع النفس على الطلب مادامت مقتنعة بأن هذا منهجك وسبيلك فاجمع نفسك عليك، وأيضاً اجمع نفسك على الترقى فيه، لا تبقى ساكناً فكر فيما وصل إليه

عالمك من المسائل والدلائل حتى تترقى شيئاً فشيئاً واستعن بمن تثق به من زملائك وزموانك، ولا تستح أن تقول يا فلان ساعدني على تحقيق هذه المسألة بمراجعة الكتب العلمية. الحياء لا ينال العلم به أحد.

قوله: «التحرق للتحصيل ...» معناه أن الإنسان يكون معه شغف كبير تحترق نفسه بالتحقق فوق المنزلة التي هو فيها حتى تفيض إلى المطولات بسابله موثقة.

«ثانياً. كان من رأي ابن المالكي^(١). أن لا يخلط الطالب في التعليم بين علمين، وأن يقدم تعليم العربية والشعر والحساب، ثم ينتقل منه إلى القرآن. لكن تعقبه ابن خلدون بأن العوائد لا تساعد على هذا، وأن المقدم هو دراسة القرآن الكريم وحفظه؛ لأن الولد مادام في الحِجر؛ ينقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ؛ صعب جبره. أما الخلط في التعليم بين علمين فأكثَر؛ فهذا يختلف باختلاف المتعلمين في الفهم والنشاط. وكان من أهل العلم من يدرس الفقه الحنبلي في «زاد المستقنع» للمبتدئين، و«المُضنع» لمن بعدهم للخلاف المذهبي، ثم «المُغني» للخلاف العالي، ولا يسمح للطبقة الأولى أن تجلس في درس الثانية ... وهكذا؛ دفْعاً للتشويش.

قوله: «تقدم تعليم العربية» وذلك لأنه لا يمكن أن يعرف القرآن إلا إذا تعلم العربية، ولكن من كان عربياً فليس من المسلم بأن نقول: تعلم العربية بمعنى توسع فيها.

«والشعر والحساب» كيف نقدم الشعر والحساب على القرآن. هذا ليس بمسلم.

(١) «تراجم الرجال» للخضر حسين: (ص ١٠٥)، و«فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية». (٢٣/ ٥٤)

قوله: «لا يجمع بين علمين» الناس يختلفون في الفهم والاستعداد، فقد يكون سهلاً على المرء أن يجمع بين علمين. وقد يكون من الصعب أن يجمع بين علمين وكل إنسان طيب نفسه، فإذا رأى من نفسه قدرة وقوة فلا بأس أن يجمع بين علمين ولكن ليحذر النشاط أو نشاط البدء، فإن نشاط البدء بمنزلة السفر، لأن بعض الناس أول ما يبدأ يرى نفسه نشيطاً فيريد أن يلتهم العلوم جميعاً، فإذا به ينكص على الوراء لانه كبر اللقمة ومن كبر اللقمة فلا بد أن يغص، حتى إذا رأيت من نفسك قدرة فلا تكلفها ما لا تطيق اتزن حتى تستمر.

قوله: «وكان من أهل العلم...» صحيح من أهل العلم من يفعل ذلك إذا كان يدرس في الفقه الحنبلي يدرس زاد المستقنع، لأن زاد المستقنع اختصار المقنع ثم ينتقل إلى تدريس المقنع، لأن المقنع فيه ذكر الروايتين والوجهين والقولين في المذهب بدون تعليل ولا دليل. وبعضهم ينتقل من بعد المقنع إلى الكافي قبل المغني، لأن الكافي يذكر فيه الخلاف المذهبي مع الأدلة، وبهذا يمتاز على المقنع، فهو يذكر الخلاف والأدلة سواء كانت الأدلة سمعية من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس الصحيح. أو عقلية. ثم بعد ذلك المغني، لأن الخلاف في المغني ليس مع أصحاب الإمام أحمد، بل مع أصحاب المذاهب، فيرتقى من هذا إلى هذا.

الموفق رحمه الله سلك هذا التدرج، لكن له كتاب قبل المقنع، سلم للمقنع وهو عمدة الفقه كتاب مختصر أقل بكثير من زاد المستقنع من حيث المسائل، لكنها تشمل على بعض الدلائل، يعني ليست جافة كزاد المستقنع، لكن فيها أدلة.

فالحاصل: أن ينبغي أن المعلم يرتقي بالطلبة درجة درجة حتى يتقنوا ما تعلموه.

قال: «ولا يسمح للطبقة الأولى أن تجلس في دروس الطبقة الثانية وهكذا دفعاً للتشويش»، لكن في النقطة الأخيرة لا أستطيع، ولهذا أجمع بين الصغير والكبير فيما ندرسه من الكتب ونقول هذا الصغير الآن يذهب، ثم يبدأ يمشي شيئاً فشيئاً حتى تقل.

حلاه. وسبب ذلك أن الطلاب عندنا يتواردون شيئاً فشيئاً ولو راعينا الوافدين لأهملنا حق السابقين. لو قلنا مثلاً: لو جاء أناس جدد رجعنا مثلاً من زاد المستقنع إلى باب الطهارة ووصلنا مثلاً إلى كتاب الصلاة. جاء العام الثاني وقد ماذا نفعل؟ رجعنا لباب الطهارة، كان هذا ظلم للسابقين. ومعناه سنبقى دائماً أبداً من أول الكتاب هذا ما يستقيم.

واعلم أن ذكر المختصرات فالمطولات التي يؤسس عليها الطلب والتلقي

لدى المشايخ تختلف غالباً من قطر إلى قطر باختلاف المذاهب، وما نشأ عليه علماء ذلك القطر من إتقان هذا المختصر والتمرس فيه دون غيره. والحال هنا تختلف من طالب إلى آخر.

هذه الفقرة معناها صحيح. مثلاً: قد يكون الإنسان في بلد يتحلون مذهب الشافعي^(١). ستجد العلماء يبنون أصول التدريس على كتب المذهب الشافعي، في بلد ينتهج فيه أهله مذهب الإمام أحمد تجد العلماء يدرسون كتب مذهب الإمام أحمد.. وهلم جره.

والحال هنا تختلف من طالب إلى آخر باختلاف القرائح والفهوم، وقوة الاستعداد وضعفه، وبرودة الذهن وتوقده.

نعم. وهناك أيضاً أسباب أخرى وهي: قوة الاستعداد للعلم وتلقيه وضعف ذلك، وكذلك كثرة المشاغل وقتلتها. المهم أن الاختلاف وارد في كل شيء، لكن ما ذكره أولاً مبني على الغالب.

(١) الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن شافع بن السائب، ولد سنة مائة وخمسين، وتوفي سنة ٢٠٤، كان كتب المناقب جم المفاخر حاشيا منقطع النظر. (تهذيب التهذيب ٢٥/٩).

وقد كان الطَّلَبُ في قُطْرُنَا بعد مرحلة الكتاتيب والأخذ بحفظ القرآن الكريم يمرُّ بمراحل ثلاث لدى المشايخ في دروس المساجد: للمبتدئين، ثم المتوسطين، ثم المتمكنين:

ففي التوحيد: «ثلاثة الأصول وأدلتها»، و«القواعد الأربع»، ثم «كشف الشبهات» ثم «كتاب التوحيد»، أريعتها للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى^(١)، هذا في توحيد العبادة.

وفي توحيد الأسماء والصفات: «العقيدة الواسطية» ثم «الحموية» و«التدمرية»، ثلاثتها لشيخ الإسلام ابن تيمية. رحمه الله تعالى. «الطحاوية» مع «شرحها» وفي النحو: «الأجرومية»^(٢). ثم «ملحة الإعراب» للحريري، ثم «قطر الندى» لابن هشام، و«ألفية ابن مالك» مع «شرحها» لابن عقيل.

وفي الحديث: «الأربعين» للنووي، ثم «عمدة الأحكام» للمقدسي، ثم «بلوغ المرام» لابن حجر، و«المنتقى» للمجد ابن تيمية. رحمهم الله تعالى. فالدُّخُولُ في قراءة الأُمَمَاتِ السَّتِّ وغيرها.

يقول رحمه الله وأطال في طاعته: ففي التوحيد: ثلاثة الأصول وأدلتها... هذا في توحيد العبادة. يعني يبدأ بالأصغر فالأصغر. ثلاثة الأصول تدور حول: من ربك وما دينك ومن نبيك؟

(١) شيخ الإسلام مجدد العقيدة السلفية، الداعية الكبير والعلم الشهير ولد في العيينة في كنف أبيه القاضي، كان كثير المطالعة في كتب التفسير والحديث، قرأ على بعض علماء المدينة، ورحل إلى البصرة، عاونه في دعوته محمد بن سعود حتى قضى على مظاهر الشرك وأقام دولة التوحيد. مات عام ١٢٠٦ هـ. (الأعلام ٦/٢٥٧).

(٢) أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المعروف بابن آجروم، ولد بفاس عام ٦٧٢ هـ «توفي بها عام ٧٢٣ هـ، ودرس بفارس ثم قصد مكة حاج، وعامر بالقاهرة، درس على النحوي الأندلسي الشهير أبي حيان صاحب البحر المحيط.

«القواعد الأربع» تدور على قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ﴾ (صورة العصور: ١-٢). الآية «كشف الشبهات» شبهات بعض أهل الشرك التي أوردوها وأجاب عنها الشيخ رحمه الله بما تيسر.

وفي توحيد الأسماء والصفات «العقيدة الواسطية» التي ألفها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهي من أخصب كتب العقيدة وأحسن كتب العقيدة، وسميت بالواسطية نسبة إلى واسط، لأن بعض قضاتها قدم إلى الشيخ رحمه الله وطلب منه أن يكتب ملخصاً في عقيدة السلف، فكتب هذه العقيدة المباركة.

قال: ثم «الحموية» و«التدمرية» وهما رسالتان أوسع من العقيدة الواسطية لكنها أجمع منهما لأنه ذكر فيها الأسماء والصفات والكلام على الإيمان واليوم الآخر بطريقة أهل السنة والجماعة ومنهجهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي أجمع من التدمرية والحموية، لكن التدمرية والحموية تمتازان بأنهما أوسع منها في باب الصفات.

يقول: «فالطحاوية مع شرحها» وهي معروفة وصارت شائعة بين الناس الآن حيث نورت في الجامعة الإسلامية.

قال: «وفي النحو» «الأجرومية» كتاب صغير في النحو، لكنه مبارك جامع مقسم سهل، وأنا أنصح به كل مبتدئ بالنحو أن يقرأه، وكذلك «ملحة الإعراب للحريري»، ثم قطر الندى لابن هشام وألفية ابن مالك مع شرحها لابن عقيل... هكذا قال الشيخ بكر، لكنني أقول: الأجرومية ثم الألفية، أما أن نحشوا أذهاننا بكتب تعتبر كال تكرار لاولها، فلا حاجة.

«ملحة الإعراب» هذه نظم فيه بيت مشهور بين الناس وهو:

إن تجد عيباً فسد الخلا ❖❖❖ جلا من لا عيب فيه وعلا

كثير من الكتاب الذين يكتبون الكتب العلمية إذا انتهى من كتابه قال: إن تجد عيباً... أنا أختار الأجرومية ثم ألفية ابن مالك، أحفظها ثم استشرحتها من رجل عالم بالنحو وفيها الخير الكثير.

«وفي الحديث «الأربعين» للنووي، هذا كتاب طيب، فيه آداب ومنهج جيد وقواعد مفيدة جداً، في حديث واحد يبني المرء حياته عليه. «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١). هذه القاعدة إذا جعلتها هي الطريق التي تمشي عليها وتسير لكنت كافية، وفي النطق: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٢). فهي من أحسن ما ألف، ثم «عمدة الأحكام» للمقدسي، ثم «بلوغ المرام»، وأرى أن يقتصر على بلوغ المرام لأن عمدة الأحكام داخلة في بلوغ المرام، أكثر أحاديثها موجودة في بلوغ المرام، وبلوغ المرام أوسع منها وأشدّ تحريراً لكن:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ❖❖ وجاوزه إلى ما تستطيع

إذا قال: أنا ما أستطيع أن أحفظ بلوغ المرام لاسيما أنه يجيء صححه فلان وضعفه فلان وهذه الحيرة.

قلنا له: إذا لم تستطع شيئاً فدعه، عندك عمدة الأحكام أي ساعة تريد أن تستدل خذ حديثاً منها ولا حاجة أن تبحث عن صحته لأنها أحاديث منتخبة من البخاري ومسلم. و«المنتقى» للمجد ابن تيمية، المنتقى أكبر من بلوغ المرام لكنه أضعف. من حيث بيان مرتبة الحديث.

قال: «فالدخول في الأمرات الست وغيرها» ما هي الأمرات الست؟ البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. وسُميت أمهات لأنها مرجع الأحاديث.

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧) وابن ماجه (٣٩٧٦).

(٢) سبق تخريجه.

إذا قال بعض العلماء: إذا رأيت حديثاً في غير الأمهات فلا تحكم عليه حتى تحوره بخريجه، لأن هذه الأمهات التي اشتهرت بين المسلمين وأخذوها وتلقوها بالقبول وإن كان فيها ضعف وربما موضوع أيضاً لكن اشتهرت واعتبرت بين المسلمين.

وفي المصطلح: «نُخْبَةُ الْفِكْرِ» لابن حجر، ثم «أَلْفِيَةُ الْعِرَاقِي». رحمه الله تعالى.

نخبة الفكر أظنها ثلاث صفحات تقريباً، لكنها نخبة. يعني الإنسان إذا فهمها تماماً وأتقنها، تُغني عن كتب كثيرة في المصطلح لأنها مضبوطة تماماً ولها طريقة غريبة في تأليفها وهي السرعة والتقسيم، أكثر المؤلفات يأتي الكلام مرسلًا يعني سلسلاً.

لكن هو - رحمه الله - اخترع هذه الطريقة: الخبر إما أن يكون له طرق محصورة عدد أو غير محصورة، والمحصورة بعدد كذا وكذا، ثم يذكر فتجد أن الإنسان إذا مرّها يجد نشاطاً لأنها مبنية على إثارة العقل، وأنا أشير عليكم أيها الطلبة أن أحفظوها لأنها خلاصة وزبدة... نعم.

ثم «ألفية العراقي» مطولة، لكنني أرى أن الإنسان يقتصر على فهمها وأنه لا حاجة إلى حفظها، لأنه قد يكون هناك متون أهم منها.

وفي الفقه مثلاً: «آداب المشي إلى الصلاة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب ثم «زاد المستقنع» للحجاوي. رحمه الله تعالى - أو «عمدة الفقه» ثم «المقنع» للخلاف المذهبي، و«المغني» للخلاف العالي، ثلاثتها لابن قدامة رحمه الله تعالى.

يعني بذلك: عمدة الفقه، المقنع، المغني. لكن غيره ذكر أربعة وهي: العمدة ثم المقنع ثم الكافي ثم المغني.

كفى الناس بالكافي واقنع طالباً ❖❖❖ بمقنع فقه عن كتاب مطول
واغني بمغنى الفقه من كان باحثاً ❖❖❖ وعمدته من يعتمد عليها يحصل

وفي أصول الفقه: «الورقات» للجويني - رحمه الله تعالى - ثم «روضة الناظر» لابن قدامة - رحمه الله تعالى.

قفزة جيدة، الورقات من ورقة صغيرة إلى روضة الناظر، الفرق بينهما كبير لكن هناك كتب مختصرة جيدة في أصول الفقه يمكن أن يعتمد عليها، وربما تغني أيضاً عن روضة الناظر، وأصول الفقه هي عبارة عن قواعد وضوابط يتوصل الإنسان بها إلى معرفة استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية.

وفي الفرائض: «الرحبية»، ثم مع شروحاتها، «الفوائد الجليلة».

أما الرحبية فهي للرحبي، وشروحاتها فهي متعددة، وأما الفوائد الجليلة فهي للشيخ عبد العزيز بن باز^(١). لكن أرى أن «البرهانية» أحسن من الرحبية، البرهانية أجمع من الرحبية من وجه، وأوسع معلومات من وجه آخر، ففي مقدمتها ذكر الحقوق المترتبة في التركة أو المرتبة في التركة المتعلقة بالإنسان ذكرها ولم تذكر في الرحبية، وهي أخصب من الرحبية وأجمع. أتى بالثلثين، الرحبي ذكر أربعة أبيات، والبرهاني ذكر بيت واحد فقال:

والثلثان لاثنين استوتا ❖❖❖ فصارا ثمن له النصف أكبر

(١) الإمام العلم مجدد القرن شيخ الإسلام أبي عبد الله ولد سنة ١٣٣٠ هـ ولازم شيخه محمد بن إبراهيم فترة من الزمن، ولي القضاء، ثم التدريس في كلية الشريعة، ثم رئيساً للجامعة الإسلامية، ثم رئيساً للإفتاء. وكانت وفاته في يوم الجمعة ٢٨ من المحرم ١٤٢٠ هـ. تغناه الله برحمته.

ولها شرح لابن سلوم مطول ومختصر مفيد جداً، فلذلك فأنا أرى أن البرهانية من من الرحبية للوجه التي ذكرتها.

وفي التفسير: «تفسير ابن كثير» - رحمه الله تعالى - .

وهو جيد بالنسبة للتفسير بالأثر، لكنه قليل الفائدة بالنسبة لأوجه الإعراب البلاغة وخير ما قرأت من أوجه الإعراب والبلاغة «الكشاف» للزمخشري^(١). وكل بعده فهم عيال عليه، أحياناً تجد عبارات الزمخشري منقولة نقلاً، لكن تفسير زمخشري فيه بلايا من جهة العقيدة لأنه معتزلي.

وفي أصول التفسير: «المقدمة» لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - .

معروف المقدمة في التفسير، وهي كتاب مختصر جيد مفيد.

وفي السيرة النبوية: «مختصرها» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، و«أصلها» لابن هشام، وفي «زاد المعاد» لابن القيم - رحمه الله تعالى - .

أما السيرة النبوية المختصر والأصل مجرد تاريخ، أما زاد المعاد فإنه تاريخ وفقه السيرة، وقد يكون في التوحيد، وقد يكون في الأمور العملية.

(١) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري اللغوي، كان يضرب به المثل في علم الأدب والنحو، وصنف تصانيف في التفسير وشرح الأحاديث، ورد «مرو» وخرج إلى العراق، وجاور بمكة سنين. مات ليلة عرفة من سنة ثمان وثلثين وخمسمائة. الأنساب (٣٧٣/٢).

وفي لسان العرب: العناية بأشعارها، كـ «المعلقات السبع» والقراءة في «القاموس» للفيروز آبادي^(١) - رحمه الله تعالى..

المعلقات السبع قصائد من أجمع القصائد، وأحسنها وأروعها، اختارتها قريش لكي تعلق في الكعبة ولهذا تسمى المعلقات^(٢). ولما ذكر ابن كثير رحمه الله «اللامية» لأبي طالب قال: هذه «اللامية» يحق أن تكون مع المعلقات لأنها أقوى منها وأعظم وفيها يقول أبو طالب:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ❖❖❖ لدينا ولا يعني بقول الأباطل

يعني: الرسول ﷺ. وهذه الشهادة للرسول ﷺ بأنه صادق، ولكن هذه الشهادة من أبي طالب لن تستلزم القبول والإذعان، ولذلك لم تنفع وخُذِل عند موته، فكان النبي ﷺ يقول له: «قل لا إله إلا الله» ولكن لم يقلها. نسأل الله العافية.

ويقول: «القراءة في القاموس» لكن هل تقرأ في القاموس أم تراجع القاموس الثاني، لأنك مهما قرأت لا تستفيد الفائدة المرجوة.

❖❖❖

منذر أبو سعيد

(١) محمد بن يعقوب بن الفيروز آبادي، الشيرازي، الشافعي، مجد الدين، أبو الطاهر، لغوي، مشارك في عدة علوم، له «المشهور» و«بصائر ذوي التمييز» في التفسير. توفي سنة ٨١٧هـ.

انظر: إنباء الغمر (١٥٩/٧)، وبغية الوعاة (٢٧٣/١).

(٢) وأصحاب المعلقات هم: عنترة بن شداد، امرؤ القيس، طرفة بن العبد، زهير بن أبي سلمى، النابغة الذبياني، الأعشى، عمرو بن كلثوم.

... وهكذا من مراحل الطلب في الفنون. وكانوا مع ذلك يأخذون بجرد

المطولات، مثل «تاريخ ابن جرير»، وابن كثير، وتفسيريهما، ويركزون على كتب

شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى، وكتب أئمة الدعوة وفتاويهم، لاسيما محرراتهم في الاعتقاد.

يتحدث الشيخ بكر عن طلب العلم في قطره - ليس عن الطلب عموماً - هذه الكتب التي يعينها هي في قطرنا، وقد يكون ما يساويها ويشابهها في الأقطار الأخرى على هذا النمط، أما قوله: «يركزون على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى» فهذا صحيح، وغالب المتأخرين يركزون عليهما، وكان لنا عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - يحثنا على قراءتهما. أي قراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم لأن فيهما من التحقيق والتحري والتعديد لا يوجد في غيرهما، ونشعر أن كلامهما ينبع من القلب، ولهذا يؤثر في زيادة الإيمان، وأما تمثيله أيضاً لتاريخ ابن جرير وابن كثير، فهذا أيضاً عن المراجعة فلا بأس، وأما أن يجعله الإنسان قراءة يقرأها فهذا طويل، وربما يقطع عليه وقتاً ثميناً. وقوله: «كتب الدعوة» المراد بها أيام الدعوة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وأحفاده ومن تتلمذ عليه.

وهكذا كانت الأوقات عامرة في الطلب، ومجالس العلم، فبعد صلاة

الفجر إلى ارتفاع الضحى، ثم تكون القيلولة قبيل صلاة الظهر، وفي أعقاب

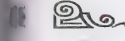
جميع الصلوات الخمس تُعقد الدروس، وكانوا في أدب جم، وتقدير بعزة نفس

من الطرفين على منهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى، ولذا أدركوا وصار

منهم في عداد الأئمة في العلم جمع غفير، والحمد لله رب العالمين. فهل من

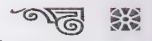
منذر أبو سعيد

عودة إلى أصالة الطلب في دراسة المختصرات المعتمدة، لا على المذكرات، وفي حفظها لا الاعتماد على الفهم فحسب، حتى ضاع الطلاب فلا حفظ ولا فهم.

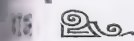


قوله - وفقه الله - «الاعتماد على هذه المتون الأصلية لا على هذه المذكرات» هذا صحيح لأن المذكرات قد يكون واضعها ممن لا يعرف من هذا إلا معرفة سطحية، فتجده يكثر كلمات من هذا وكلمات من هذا، ولا يكون كلاماً محرراً متناسقاً، لكن هذه الكتب الأصلية القديمة محررة ومتناسقة، مخدمة، وكذلك أيضاً الحفظ. أي علم بلا حذف يزول سريعاً وكان زمان يعيرون علينا، يقولون لا تتعب نفسك في حفظ المتن عليك بالفهم، الفهم الفهم. لكن وجدنا أننا ضائعون إذا لم يكن عندنا حفظ، وما نفعا الله إلا بما حفظنا من المتون ولولا أن الله نفعا بذلك لضاع علينا علم عظيم.

فلا نغتر بمن يقول: الفهم. ولهذا هؤلاء الدعاة القائلون بالفهم لو سألتهم ناقشتهم لوجدتهم ضحلاء، ليس عندهم علم. ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَلِيًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ (سورة النور: ٣٩).



وفي خُلُوِّ التَّلْقِينَ مِنَ الزَّغَلِ وَالشَّوَائِبِ وَالْكَدَرِ، سَيَرُّ عَلَى مِنْهَاجِ السَّلَفِ؟ والله المستعان.



ينبغي للعالم والمتعلم أن يكون التعليم والتعلم منهما خالياً من هذه العيوب بل ينبغي أن يكون صافياً بحيث يكون المعلم يريد بذلك إيصاله إلى الطلاب دون الاستعلاء عليهم أو إظهار علمه عليهم أو ما أشبه ذلك، ويكون التلميذ كذلك واثقاً مطمئناً إلى ما يقول معلمه لأنه إذا كان يتعلم منه يقول إني أتعلم الآن، ولكن إذا خرجت أبحث على عالم آخر. فكأنه لم يأخذ عن هذا العالم أخذ واثق أو مستذكر، وهذا يضيعه بلا شك. لكنه إذا أخذ عن العالم أخذ مستفيد واثق، بعد

إذا كبر ترعرع في العلم وصار عنده ملكة، فلا مانع أن يخالف شيخه فيما كان أن الصواب في خلافه لكن مادام في زمن الطلب فليتكأ على من يتعلم على يده وليأخذ كلامه بثقة واطمئنان حتى يرسخ. أما أن يأخذ ويقول إذا خرجت أبحث مع ناس أو مع طلاب علم... هذا ما يصلح أبداً ولا يستقيم للطلاب على هذا الوجه.



وقال الحافظ عثمان بن خرزاد (م سنة ٢٨٢ هـ) رحمه الله تعالى: ^(١)

«يحتاج صاحب الحديث إلى خمس، فإن عُدِمَتْ واحدة، فهي نقص، يحتاج إلى عقل جيد، ودين، وضبط، وحذاقة بالصناعة، مع أمانة تُعرف منه».

قلت. أي الذهبي ^(٢): «الأمانة جزء من الدين، والضبط داخل في الحديث، فالذي يحتاج إليه الحافظ أن يكون: تقياً، ذكياً، نحويّاً، لغويّاً، زكياً، حياً، سلفياً، يكفيهِ أن يكتب بيديه مثني مجلد، ويحصل من الدواوين المعتبرة خمس مئة مجلد، وأن لا يفتر من طلب العلم إلى الممات، بنية خالصة، وتواضع، وإلا فلا يتعن» أهـ.



شروط ثقيلة من الذهبي - رحمه الله - أقول: لو بقينا على كلام الحافظ عثمان بن خرزاد لكان أحسن، يعني أهون علينا. الأمانة جزء من الدين فتدخل في قوله: ودين والضبط يدخل في الحفظ، لأن حذق الشيء - بمعنى فهمه وإدراكه جيداً. ثم أتى من الخمس ثلاث، لكن دخل علينا أكثر من الثلاث: يحتاج أن يكون تقياً، وهذا

(١) سير أعلام النبلاء: (١٣/ ٣٨٠).

(٢) هو الإمام العلامة شيخ المحدثين قدوة الحفاظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي. ولد سنة ٦٧٣ هـ سمع من ابن عساكر والديمياطي وابن بدران وغيرهم، له مؤلفات كثيرة ومفيدة تقارب المائة. مات سنة ٧٤٨ هـ رحمه الله. (البداية ١٤/ ٢٢٥).

صحيح، والتقوى رأس كل عبادة، وهي الأصل. والتقوى هي فعل أوامر الله واجتناب نواهيه، لأنه بذلك تكون الوقاية من عذاب الله.

«ذكيًا» يعني ليس غبيًا، بأن يكون عنده فطنة، وكم من إنسان حافظ وليس بذكي وكان رجل ممن سبق حافظًا جدًا، سريع الحفظ، قليل النسيان، حافظ الفروع لا مفلح ثلاث مجلدات كبار، وهو حاوي لمسائل الوفاق والخلاف، وكان يحفظه كما يحفظ الفاتحة، لكن لا يفهم منه شيئًا، لأنه غير ذكي. فكانوا يلقبونه بحمار الفروع كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾ (سورة الجمعة: ٥). لكن لا ينتفع بها. «نحوًا لغويًا» النحو هو الذي يُعنى بالإعراب والبناء، وهذا يختص بأواخر الكلمات، اللغوي يدخل فيه من علم الصرف وعلم فقه اللغة، وعلى هذا لا بد من مراجعة كتب النحو وكتب الصرف وكتب اللغة كالقاموس ولسان العرب وغير ذلك.

«ذكيًا» الزكي والتقي معناهما متقارب، فإن ذُكرَا فينبغي أن يحمل التقي عام من ترك المحرمات، والزكي على من قام بالمأمورات، ويعجبني أن أذكر لكم كلمة قاله شيخ الإسلام رحمه الله في أهل الكلام قال: «أنهم أوتوا فُهوًا وما أوتوا علومًا» يعني عندهم فهم لكن ما عندهم علم. «وأوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً». أذكياهم لكن ليسوا أذكيا.

«حييًا» لكن بشرط لا يمنعه حياؤه من طلب العلم، ولهذا قال بعضهم: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر. يكون حييًا، ولكن لا يمنعه ذلك من طلب الحق. أم سلمة قالت: يا رسول الله ﷺ إن الله لا يستحيي من الحق: هل على المرأة الغُسل إذا احتلمت؟ قال: «نعم إذا هي رأت الماء»^(١)

(١) رواه مسلم (٣١١).

«سلفيًا»: يعني يأخذ بطريق السلف في العقيدة والآداب والعمل والمنهج وفي كل شيء، لأن السلف هم صدر هذه الأمة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «خير الناس أولي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(١)

بكمية أن يكتب بيديه مئتي مجلد» ونعزي أنفسنا أن المجلدات عندهم قليلة قد تكون ٥٠ صفحة، وقد يكون مجلد، فإن كان هذا هو المراد فلعل الله أن يعيننا عليه، فإن مراده المجلد ٦٠٠ صفحة، فالواحد منا لو يبقى ليل نهار ما أظنه يكتب مائة مجلد. مائة مجلد ٦٠٠ x ٦٠٠ = ١٢٠ ألف!! «ويحصل من الدواوين المعتمدة ٥٠٠ مجلد أين من يقدر على تحصيل ٥٠٠ مجلد؟! على كل حال هم يقولون على قدر طاقتهم، ونحن نقول الله المستعان!!»^(٢)

«وإن لا يفتر من طلب العلم إلى الممات» هذا صحيح فإن طالب العلم يجب ألا يفتر، وإذا عود نفسه الفتور والكسل اعتاد ذلك. ومن طلب العلا سهر الليالي. ويقال: «طلب العلم كلك يعطيك بعضه، وأعطيه بعضك يفتك كله. العلم يحتاج إلى تعب وماء، لكنني أقول لكم: إن الإنسان إذا ترعرع في العلم سهل عليه أن يعرف أشياء لا تكون في بطون الكتب لاسيما مع النية الخالصة وإرادة الحق والحكم بشرع الله، الله تعالى يهبه علمًا لا يطرأ على باله ولا يجده في بطون الكتب، وكثيرًا ما نبحث مسألة من المسائل في الكتب في مظانها ثم لا يجدها، ثم إذا فكرنا في آية من كتاب الله أو في حديث من سنة رسول الله ﷺ وجدنا الحل، لأن بركة القرآن والسنة لا يهاهياها أي بركة.

(١) رواه البخاري (٣٦٥٠) ومسلم (٢٥٣٥).

(٢) قال ابن جرير لأصحابه: هل تشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا كم قدره؟ فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة. فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه. فقال: إنا لله... ماتت الهمم. فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ولما أن أراد أن يُملي التفسير قال لهم نحوًا من ذلك، ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ». (السير ٢٧٨/١٤).

يقول: «بنية خالصة وتواضع» نعم، هذا من أهم ما يكون. التواضع، أسأل الله أن يرزقني وإياكم التواضع للحق وللخلق، من أهم شيء لطالب العلم التواضع، لا التواضع من الأخلاق العظيمة التي قال الله فيها لرسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْتَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤). فأعظم الناس تواضعاً رسول الله ﷺ.

قال: «والأفلا يتعن» فلا يتعب نفسه إذا لم يتصف بهذا، ولكن نقول عفا الله عنك يا ذهبي ارجع إلى قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (سورة التغابن: ١٦). ولنعامل الناس بما يمكن أن يقوم به وإلا فلا ننفر الناس.

لو قلنا للطالب يكفيك بأن تكتب ٢٠٠ مجلد، وكيفيك بأن يكون عندك ٥٠٠ مجلد والأكمل ١٠٠٠ مجلد، لو قلنا للطالب هكذا لثقل عليه الطلب، لكن نقول: يكفيك أن تكتب بيديك ما تقدر عليه بشرط أن يكون عندك حرص ونشاط في طلب العلم.

١٧. تلقى العلم عن الأشياخ:

الأصل في الطلب أن يكون بطريق التلقين والتلقي عن الأساتيد، والمُشافهة للأشياخ، والأخذ من أفواه الرجال لا من الصحف وبطون الكتب، والأول من باب أخذ النسيب عن النسيب الناطق، وهو المعلم، أما الثاني عن الكتاب، فهو جماد، فإني له اتصال النسيب؟

هذا أيضاً مما ينبغي على طالب العلم مراعاته، أن يتلقى العلم عن الأشياخ لا يستفيد بذلك فائدتين، بل أكثر:

الفائدة الأولى - اختصار الطريق، بدل ما يذهب يقلب في بطون الكتب وينظر ما هو القول الراجح، وما سبب رجحانه؟ وما هو القول الضعيف؟ وما هو سببه؟

منذر أبو سعيد

هذه لقمة سائغة... المعلم يقول: اختلف العلماء في كذا على قولين أو ثلاثة أو أكثر، والراجح كذا، والدليل كذا. وهذا لاشك أنه نافع لطالب العلم.

الفائدة الثانية - السرعة، يعني سرعة الإدراك، لأن الإنسان إذا كان يقرأ على من يقرأه يدرك بسرعة أكثر ممن ذهب يقرأ في الكتب، لأنه إذا ذهب يقرأ يردد العبارة مراراً خمس مرات، وربما فهم أيضاً على وجه خطأ غير صحيح.

الفائدة الثالثة - الرابطة بين طالب العلم ومعلمه، فيكون ارتباط بين أهل العلم الصغير إلى الكبير.

فهذه من فوائد تلقي العلم على الأشياخ، لكن سبق أن قلنا أنه من الواجب اختيار الإنسان من العلماء من هو كفء أمين قوي، يعني عنده علم وإدراك، علمه سطحيًا، وعنده أمانة، وكذلك أيضاً إذا كان عنده عبادة فإن الطالب يتلقى العلم.

وقد قيل: «مَنْ دَخَلَ فِي الْعِلْمِ وَحْدَهُ، خَرَجَ وَحْدَهُ»^(١) أي: مَنْ دَخَلَ فِي طَلَبِ

العلم بلا شيخ، خرج منه بلا علم، إذ العلم صنعة، وكلُّ صنعةٍ تحتاج إلى صانع، فلا بد إذا لتعلمها من معلمها الحاذق.

هذا أيضاً صحيح وقد قيل: أنه من كان دليلاً كتاباً خطأ أكثر من صوابه. هذا هو الغالب بلا شك، لكن قد يندر من الناس من يكرس جهوده تكريساً صحيحاً لا سيما إن لم يكن عنده من يتلقى العلم عنده، فيعتمد اعتماداً كاملاً على الله عز وجل ويدأب ليل نهار يحصل من العلم ما يحصل إن لم يكن له شيخ.

منذر أبو سعيد

وهذا يكاد يكون محل إجماع كلمة من أهل العلم، إلا من شذ مثل: علي ابن رضوان المصري الطبيب (م سنة ٤٥٣هـ)، وقد رد عليه علماء عصره ومن بعدهم. قال الحافظ الذهبي: رحمه الله تعالى. في ترجمته له^(١): «ولم يكن له شيخ، بل اشتغل بالأخذ عن الكتب، وصنف كتاباً في تحصيل الصناعة من الكتب، وأنها أوفق من المعلمين، وهذا غلط» أهـ.

وقد بسط الصفدي في «الوافي» الرد عليه، وعنه الزبيدي في «شرح الإحياء» عن عدد من العلماء معللين له بعدة علل، منها ما قاله ابن بطالان في الرد عليه^(٢): «السادسة: يوجد في الكتاب أشياء تصد عن العلم، وهي معدومة عند المعلم، وهي التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، والغلط بزوغان البصر، وقلة الخبرة بالإعراب، أو فساد الموجود منه، وإصلاح الكتاب، وكتابة ما لا يقرأ، وقراءة ما لا يكتب، ومذهب صاحب الكتاب، وسقم النسخ، ورداءة النقل، وإدماج القارئ مواضع المقاطع، وخلط مبادئ التعليم، وذكر ألفاظ مصطلح عليها في تلك الصناعة، وألفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة، كالتورس، فهذه كلها معوقة عن العلم، وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته على المعلم، وإذا كان الأمر على هذه الصورة، فالقراءة على العلماء أجدى وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه، وهو ما أردنا بيانه ...

قال الصفدي: ولهذا قال العلماء: لا تأخذ العلم من صحافي ولا من مصحف، يعني: لا تقرأ القرآن على من قرأ من المصحف، ولا الحديث وغيره على من أخذ ذلك من الصحف ... أهـ.

(١) سير أعلام النبلاء: (١٨/١٠٥).

وانظر: «شرح الإحياء»: (١/٦٦)، و«بغية الوعاة»: (١/١٣١، ٢٨٦)، و«شذرات الذهب» (١١/٥)، و«الغنية» للقاظمي عياض: (ص ١٦-١٧).

(٢) «شرح الإحياء»: (١/٦٦).

والدليل المادي القائم على بطلان نظرة ابن رضوان: أنك ترى آلاف التراجم والسير على اختلاف الأزمان ومر الأعمار وتنوع المعارف، مشحونة بتسمية الشيوخ والتلاميذ، ومستقل من ذلك ومستكثر، وانظر شذرة من الكثيرين عن الشيوخ حتى بلغ بعضهم الألوف كما في «العزَاب» من «الإسفار» لراقمه. وكان أبو حيان محمد يوسف الأندلسي (م سنة ٧٤٥هـ)^(١) إذا ذكر عنده ابن مالك، يقول: «أين شيوخه؟».

وقال الوليد^(٢):

كان الأوزاعي يقول: كان هذا العلم كريماً يتلاقاه الرجال بينهم، فلما دخل في الكتب، دخل فيه غير أهله.

وروي مثلها ابن المبارك عن الأوزاعي. ولا ريب أن الأخذ من الصحف «بالإجازة يقع فيه خلل، ولا سيما في ذلك العصر، حيث لم يكن بعد نقط ولا شكل، فتصحف الكلمة بما يحيل المعنى، ولا يقع مثل ذلك في الأخذ من أفواه الرجال، وكذلك التحديث من الحفظ يقع فيه الوهم، بخلاف الرواية من كتاب محرر» أهـ.

ولابن خلدون مبحث نفيس في هذا: كما في «المقدمة»^(٣) له. ول بعضهم:

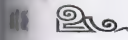
من لم يشافه عالماً بأصوله ❖❖❖ يقينُهُ في المشكلات ظنون
وكان أبو حيان كثيراً ما ينشد:

(١) مقدمة التحقيق لكتاب «الغنية» للقاظمي عياض: (ص ١٦-١٧).

(٢) «السير»: (٧/١١٤).

(٣) (٤/١٢٤٥).

- يُظَنُّ الغَمْرُ^(١) أَنَّ الكُتُبَ تَهْدِي ♦♦♦ أَخَا فَهْمٍ لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ
وَمَا يَدْرِي الْجَهُولُ بِأَنَّ فِيهَا ♦♦♦ غَوَامِضَ حَايَرَتْ عَقْلَ الْفَهِيمِ
إِذَا رُمَتْ الْعُلُومُ بِغَيْرِ شَيْخٍ ♦♦♦ ضَلَّتْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ
وَتَلْتَبَسُ الْأُمُورُ عَلَيْكَ حَتَّى ♦♦♦ تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ «تَوْمِ الْحَكِيمِ»



هذا الكلام فيما أشرنا إليه من قبل، أن الأخذ عن العلماء والمشايخ أفضل من الأخذ من الكتب، ويُنَّ ما نقله هنا في الرد على ابن بطلان. قال: «يوجد في الكتب أشياء تصد عن العلم، وهي معدومة عند المعلم وهي التصحيف العارض من اشتباه الحروف وعدم النقط». وكان فيما سبق يكتبون بلا نقط فيخطأ الإنسان، فمثلاً ربما تجد كلمة «بزة»: اشتريت بزة بصاع من تمر بدون مقابضة. إذا لم يكن فيها نقطه «بزة» تكون «برة»، ومعلوم أنك إذا اشتريت بُر بتمر بدون مقابضة فالبيع غير صحيح، فتختلف الأحكام باختلاف النقط، كذلك «الغلط بزوغان البصر» فيرى الكلمة على صورة ثم حقيقتها لاسيما إذا كان الكتاب ليس جيد؛ كذلك «قلة الخبرة بالإعراب» والإعراب له أثر في تغيير المعنى. وكذلك «إصلاح الكتاب»، وكتابة ما لا يقرأ، وقراءة ما لا يكتب، كل هذا يعترى من يأخذ العلم عن الكتاب، كذلك «مذهب صاحب الكتاب» ربما يكون مذهب مذهب معتزلي أو جهمي أو غيره وأنت ما تدري، وكذلك «سقم النسخ، رداء النقل، إدمان القارئ مواضع المقاطع» يعني أن الكلمة لا بد أن تقف عليها، فيأتي القارئ ليقرأ الكتاب فيقرأ ما بعدها فيختلف المعنى، «وخلط مبادئ التعليم» بحيث لا يميز بعضها من بعض بمعنى أن الكاتب ربما لا يكون متقناً للكتاب فيغلط هذا مع هذا، والمبتدئ لا يعرف ألفاظ مصطلح عليها في تلك الصناعة وهو لا يدري مثل كلمة في المصطلح «معطوف منقطع» إيش معنى منقطع؟ إذا لم يكن عنده علم أشكل عليه هذا الشيء.

يقول: «ألفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالنورس» هذه العبارة لا بد وأن ما هو النورس؟ طائر؟ والله ما أدري، لأن الطائر ما يقال ألفاظ يونانية، فلعلها لعلم من العلوم.

يقول: «فهذه كلها معوقة عن العلم، وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته على المعلم، وإن الأمر على هذه الصورة، فالقراءة على العلماء أجدى وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه، فهو ما أردنا بيانه».

ثم نقل عن بعض العلماء أنه قال: «لا تأخذ العلم من صحفي ولا من مُصحفي» يعني لا تقرأ القرآن على من قرأ من المصحف، ولا الحديث وغيره على من أخذ العلم من الصحف.

وهذا كله فيما إذا كانت الكتب التي يقرأ منها ليست فيها بيان، أما إذا كان فيها كالموجود الآن من المصاحف، فالأمر واضح.



الفصل الثالث

آداب الطالب مع شيخه

١٨ - رعاية حرمة الشيخ:

بما أن العلم لا يؤخذ ابتداءً من الكتب بل لا بد من شيخ تتقن عليه مفاتيح الطلب؛ لتأمين من العثار والزلل؛ فعليك إذا بالتحلي برعاية حرمة؛ فإن ذلك عنوان النجاح والفلاح والتحصيل والتوفيق؛ فليكن شيخك محل إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطف؛ فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه، والتحدث إليه، وحسن السؤال والاستماع، وحسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه ومع الكتاب، وترك التطاول والمماراة أمامه، وعدم التقدم عليه بكلام أو مسير أو إكثار الكلام عنده، أو مداخلته في حديثه ودرسه بكلام منك، أو الإلحاح عليه في جواب؛ متجنباً الإكثار من السؤال، لاسيما مع شهود الملا، فإن هذا يوجب لك الغرور وله الملل.

آداب الطالب مع شيخه. وهذه من أهم الآداب لطالب العلم، أن يعتبر شيخه معلماً، مريباً، معلماً يلقي إليه العلم، ومريباً يلقي إليه الآداب، والتلميذ إذا لم يثق بـ شيخه في هذين الأمرين فإنه لن يستفيد منه الفائدة المرجوة.

فمثلاً: إذا كان عنده شك في علمه، كيف ينتفع به؟ إن أي مسألة ترد على شيخ لا يقبلها حتى يسأل ويبحث، وهذا خطأ في التقدير من وجه، وخطأ في التصرف من وجه آخر. أما كونه خطأ في التقدير: فإن الشيخ المفروض أنه لن يجلس للتعليم إلا وهو يرى أنه أهل، وأن التلميذ لم يأتي لهذا الشيخ إلا وهو يعتقد أنه أهل.

أما في المنهج فلأن الطالب إذا سار في هذا السبيل وسلك هذا المنهج سوف علمه على شفا جرف هار، لأن نفسه قلقة، ليس واثقاً كل الثقة في هذا الشيخ الموقر، ولهذا يضيع عليه الوقت، ويضيع عليه التحصيل.

وقول شيخنا: «إن العلم لا يؤخذ ابتداءً من الكتب» سبق الكلام عليه، وأنه يرى لا بد من القراءة على شيخ، بل لا بد من شيخ متقن. تتقن عليه مفاتيح الطلب وتأمين من العثار والزلل، فعليك إذاً بالتحلي برعاية حرمة، فإن ذلك عنوان النماء والفلاح والتحصيل وهذا كما قال الشيخ واضح.

«فليكن شيخك محل إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطف» كل هذا صحيح ولكن نحن عملنا بذلك؟ والله ما أدري !!

لكن إذا كان الطالب يمر بشيخه ولم يسلم هل هذا عمل؟ هذا ليس بأهل، أنه إذا جاء شيخه مرّاً من السحاب وعجلٌ ليدرك. هذا ليس من الآداب، نحن نذكر كناً طلبة، إذا رأينا شيخنا من بعيد نقف ونسلم، ومثلاً إذا كنا ندخل المسجد نمكّنه أن يدخل قبلنا وأنا شخصياً ما أريد هذا. أن تقفوا لي وأدخل قبلكم، ولما أريد السلام الذي أمر به الرسول ﷺ بإفشائه، وكذلك بعض الناس يمر مع زميله يصنع برأسه هكذا كأنه يسبح في الماء. وهذا غلط أيضاً.

يقول أيضاً: «فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه والتحدث إليه، وهذا صحيح. اجلس جلسة المتأدب. يعني مثلاً: لا تمد رجلك بين يديه لأن هذا سوء أدب، ولا تجلس متكئاً، هذا أيضاً سوء أدب ولا سيما في مكان الطلب، أما إذا كنت في مكان جلوس عادي فهذا أمر أهون، كذلك أيضاً في التحدث إليه لا تتحدث إلى شيخك وكأنك تتحدث مع قرينك، لا يستقيم هذا، تتحدث إليه تحدث الابن إلى أبيه باحترام وتواضع.

يقول: «وحسن السؤال والاستماع» فإذا سأل يسأل بهدوء ورفق حسن الاستماع أيضاً مهم، بحيث يكون قلبك وقلبك متجه إلى محدثك ومعلمك، لا تكن جالساً

هذا أيضاً غلط «متجنباً الإكثار من السؤال» لأن بعض الناس يحب الإكثار من السؤال، وقد يكون في غير موضوع الدرس، فيقول الشيخ لا تكثر. «لا سيما مع شدة الملل» فإن هذا يوجب لك الغرور وله الملل صحيح. مثلاً في مجلس كبير تسأل بعض الناس حتى إذا جلسوا على المائدة أكثر الأسئلة هذا يسأل فإذا انتهى سأل آخر، فإذا انتهى سأل ثالث . . . وهكذا حتى يخرج الشيخ ولم يأكل الطعام وهؤلاء مستريحين.

ولا تناديه باسمه مجرداً، أو مع لقبه كقولك: يا شيخ فلان! بل قل يا شيخني! أو يا شيخنا! فلا تسمه؛ فإنه أرفع في الأدب، ولا تخاطبه بتاء الخطاب، أو تناديه من بُعد من غير اضطرار.

سبحان الله!! هذا عتاب الآن «لا تناديه باسمه» لا تقل يا محمد، يا عبد الله، علي مجرداً. أو مع لقبه مثل يا شيخ محمد، يا شيخ عبد الله، لا تفعل. بل تقوا يا شيخني أو يا شيخنا. «فلا تسمه» فإنه أرفع في الأدب وهل يقال مثل ذلك في مناداة الأب؟ لا تناديه باسمه، وهل تخبر عنه باسمه؟ وقع عن الصحابة أنهم يسمون آبائهم فيقول ابن عمر: قال عمر، وما أشبه ذلك من الكلام.

فيقال إن الخبر أهون من النداء، لأنك لو تنادي أباك فتقول: يا فلان! صار من سوء الأدب، ولو تقول: قال فلان وكان هو مشهور بالعلم فلا يعد ذلك سوءاً، فلما كان مقام مقال، وباب الطلب أشد يجب أن يكون أشد في الاحترام.

يقول: «ولا تخاطبه بتاء الخطاب» كيف تقول؟ يعني لا تقل: قلت أنت كذا وكذا، قلت في الدرس الماضي كذا وكذا لأن هذا فيه إساءة وسوء أدب وإشعار بأن هذا الكلام أنت لا ترتضيه. إذاً ما تقول؟ تقول: قلنا كذا، مرّ علينا كذا وكذا.

«أو تناديه من بُعد» من أقصى الشارع يا فلان . . يا فلان! ما يصلح إلا في ضرورة، فإن كان هناك ضرورة بحيث يكون عليه خطر هو أمامه حفرة، أمام سيارت، أمامه أشياء خطر عليه هو، هنا لا بأس أن تنادي من بعيد.

وانظر ما ذكره الله تعالى من الدلالة على الأدب مع معلم الناس الخير ﷺ في قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ (سورة النور). الآية.

هذه الآية للعلماء في تفسيرها قولان:

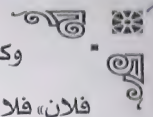
القول الأول - لا تنادوه باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً وهذا ما ساقه المؤلف في آجله.

والثاني - لا تجعلوا دعاء إياكم كدعاء بعضكم بعضاً، بل عليكم أن تحيروه فقالوا أمره وتجنبوا نهيه بخلاف غيره، فغيره إن دعاك إن شئت أجبت وإن شئت لم أجب، لكن النبي ﷺ إذا دعاك يجب أن تحييه. لذلك قال العلماء: إن النبي ﷺ إذا دعاك إنساناً وهو في صلاة، وجب عليه أن يحييه ولو قطعها.

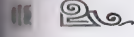
ففي الآية قولان لأهل العلم، فعلى القول الأول: تكون دعاء مضافة إلى الفاعل المفعول. يعني: لا تجعلوا دعاءكم الرسول كدعاء بعضكم بعضاً.

وإذا قلنا دعاء الرسول، يعني إذا دعاكم الرسول فأجيبوه، تكون مضافة إلى المفعول. لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم كدعاء بعضكم بعضاً.

بناء على القاعدة التفسيرية: أن الآية إذا كانت تحتل المعنيين ولا منافاة بينهما، هل يمكن أن نحملها على المعنيين؟ نعم يمكن أن نحملها على المعنيين.



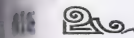
وكما لا يليق أن تقول لوالدك ذي الأبوة الطينية: «يا فلان» أو «يا والدي فلان» فلا يَجْمُلُ بك مع شيخك.



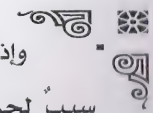
الأبوة الطينية لا تقول لأبيك من النسب يا فلان، فكذلك أبوك في العلم لا تُلَاقَ له يا فلان، والشيخ بكر لم يقل أن تقول لوالدك ذي النسب، ذي الأبوة الطينية إشارة إلى حقارته بالنسبة لأب العلم، المعلم.



والتزم توقير المجلس، وإظهار السرور من الدرس والإفادة به.



هذا أيضاً مهم، أن تُبدي السرور من الدرس والإفادة منه، وأن ترتقبه بفارص الصبر، أما أن تملل، مرة تقلب الكتاب، ومرة تخطط بالأرض، ومرة تطلع السؤال تتسوك ومرة تزين الغُترة وما أشبه ذلك، هذا معناه الملل. ينبغي للإنسان أن يفرح وأنه نزل في رياض يجني ثماره.



وإذا بدا لك خطأ من الشيخ، أو وهم فلا يُسْقِطْهُ ذلك من عينك؛ فإنه سببٌ لحرمانك من علمه، ومن ذا الذي ينجو من الخطأ سائماً؟

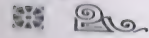


ولكن إذا بدا خطأ أو وهم من الشيخ هل تسكت أم تنبهه، وإذا نبهته هل تنبهه في مكان الدرس أو في مكان آخر؟ هذا يجب التزام الأدب فيه.

نقول: لا يجوز لك أن تسكت على الخطأ، لأن هذا ضرر عليك وعلى شيخك، فإنك إذا نبهته على الخطأ وانتبه أصلح الخطأ. وكذلك الوهم قد يتوهم، قد يسبق الإنسان إلى كلمة لا يريد لها فلا بد من التنبيه. لكن يبقى هل تنبهه في مكان الدرس أو خارجه؟ هذا ينظر في القرار تنبهه في الحال أن تنبهه في الدرس مثل حالنا الآن،

فبعضي أن تنبهونا في الدرس لأننا عندنا الأخ موسى والأخ عبد الله وكل واحد ما شاء الله ماسك بمسجل فإذا لم يصلح الخطأ في حينه، نشر هذا العلم على خطأ، فلا بد من التنبيه في مكان الدرس. أما لو كان لا يحضر ولا يسمع هذا الوهم أو هذا الخطأ إلا الطلاب فإن من الأليق ألا تنبهه في مكان الدرس، بل إذا خرج تلتزم الأدب معه وتمشي معه وتقول: سمعت كذا وكذا فلا أدري أوهمت أنا في السمع أم أن الشيخ أخطأ مثلاً.

واحذر أن تعامله بما يُضجره، ومنه يُسميه المولودون: «حرب الأعصاب»^(١)، بمعنى: امتحان الشيخ على القدرة العلمية والتحمل.



هذا صحيح، بعض الناس يقول امتحن الشيخ، فيأتي بأسئلة معضلة ويبدأ بال، كلما أجاب الشيخ في جواب إذا كان كذا الحكم وإذا كان كذا ويصعده مائة درجة بهذه التقديرات ويشوف هل يضجر ويمل ويغضب فما رآه لو غضب الشيخ في هذه الحال. هل يحق له ذلك؟ نعم. ولو طرد الطالب؟ هذا ينظر فيه.

وإذا بدا لك الانتقال إلى شيخ آخر، فاستأذنه بذلك، فإنه ادعى لحرمة، وأملك لقلبه في محبتك والعطف عليك ...



إذا بدا لك أن تنتقل إلى شيخ آخر أو أن تتعلم من شيخ آخر علماً آخر غير الذي تعلم على شيخك فإنه من الأدب أن تستأذن، للفائدة الذي ذكرها الشيخ بكر: لأنه ادعى لحرمة، وأملك لقلبه ومحبتك والعطف عليك. ثم إنه قد يعلم عن الشيخ الذي تريد أنت الذهاب إليه ما لا تعلمه أنت فينصحك. لأن كثير من الشباب

(١) «معجم التراكيب» لأحمد أبو سعيد: (ص ٢٨٣)، تركيب مؤلف.

الصغار قد يغترون بأسلوب أحد من الناس وبيان وفصاحة فيظنون ذاك الرجل العظيم، لكنه على خطأ، لذلك فإستئذان الشيخ له فوائد، منها ما ذكره الشيخ بكر ومنها ما أشرنا له الآن.

إلى آخر جملة من الآداب يعرفها بالطبع كل موفق مبارك وفاء لحق شيخك في «أبوتة الدينية»، أو ما تسميه بعض القوانين باسم «الرضاع الأدبي»^(١)، وتسمية بعض العلماء له «الأبوة الدينية» أليق، وتركه أنسب. وأعلم أنه بقدر رعاية حرمة يكون النجاح والفلاح، ويقدر الفوت يكون من علامات الإخفاق.

تنبيه مهم: أعيذك بالله من صنيع الأعاجم، والطرقية، والمبتدعة الخلفية، من الخضوع الخارج عن آداب الشرع، من لحس الأيدي، وتقبيل الأكتاف، والقبض على اليمين باليمين والشمال عند السلام، كحال تودد كبار للأطفال، والانحناء عند السلام، واستعمال الألفاظ الرخوة المتخاذلة: سيدي، مولاي، ونحوها من ألفاظ الخدم والعبيد.

«أعيذك بالله» معنى هذه الجملة يريد بها التحذير من هذا «لحس الأيدي» هذا ما سمعناه أن يخرج الإنسان لسانه ويلحس الأيدي، لكن تقبيل الأيدي فلا بأس به ما لا يخرج عن حد الإفراط والزيادة، وتقبيل الأكتاف ليس أيضاً مذموم، على كل حال عندما يأتي الإنسان من سفر فلا بأس أن يقبل هامته وجبهته وكذلك بأكتافه لا يضر إلا إذا اقتضى ذلك إنحناء، كذلك القبض على اليمين باليمين والشمال هذا أيضاً لا نرى فيه بأس، فإن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «علمني النبي ﷺ التشهد كفي بين كفيه» وهذا يدل على أنه يجوز أن يقبض الكف بين الكف، وإذا اعتاد الناس أن يفعلوا ذلك عند السلام فلا حرج لأنه ليس فيه نهى، صحيح أن المصافحة باليد مع اليد فقط، لكن

(١) «مقاصد الشريعة» لعلال الفاسي: (ص ٣٣).

هذا من باب إظهار الشفقة والإكرام كما هو معروف الآن، فلا نرى أن في ذلك بأساً، الإحناء عند السلام، هذا خلق ذميم لأنه ورد النهي عن ذلك.

استعمال الألفاظ الرخوة المتخاذلة: سيدي، مولاي، هذا ما لها داعي، وإلا حقيقة الشيخ سيد إلى تلميذه ولكن ينبغي أن يتخاذل أمامه حتى يقول: سيدي، أو يقول لا، ولكن مع ذلك هو جائز من حيث الشرع.

وانظر ما يقوله العلامة السلفي الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

الجزائري (م سنة ١٣٨٠ هـ) رحمه الله تعالى في «البصائر» فإنه فائق السياق^(١).

أحالنا إلى هذا الكتاب المسمى «البصائر» فإنه فائق السياق لا أعرف الكتاب هذا لا أطلعه.

١٩ - رأس مالك - أيها الطالب من شيخك:

القدوة بصالح أخلاقه وكريم شمائله، أما التلقي والتلقين، فهو ربح زائد، لكن لا يأخذك الاندفاع في محبة شيخك فتقع في الشناعة من حيث لا تدري وكل من ينظر إليك يدري، فلا تقلده بصوت ونغمة، ولا مشية وحركة وهيئة، فإنه إنما صار شيخاً جليلاً بتلك، فلا تسقط أنت بالتبعية له في هذه.

هذا من أهم ما يكون إذا كان شيخك على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة والشمائل الطيبة، فهنا اجعله قدوة لك، لكن قد يكون الشيخ على خلاف ذلك أو

عنده نقص في ذلك، فلا تقتدي به في هذا ولا تقل إذا صار شيخك عنده خلق سيئ اقتديت به .. تقول هذا. كان شيخني مثلاً. لأن الشيخ يكون قدوة. لكن بماذا؟

بالأخلاق السليمة والشمائل الكريمة وكذلك أنت، أما التلقي والتلقين فهو رائج، والواقع أن التلقي والتلقين هو الأصل، لأن التلميذ لم يأت للشيخ من أجل أن يتعلم منه الأخلاق فقط، بل من أجل أن يتعلم منه العلم أولاً ثم الأخلاق ثانياً، ففي الحقيقة أن التلقي والتلقين أمرٌ مقصود كما أن الإقتداء به في أخلاقه أمرٌ مقصود أيضاً، ولهذا لو سألت أي طالب علم لماذا حضرت عند هذا الشيخ؟ لقال لأتلقى العلم، ولا يقول لأجعله قدوة لي في الأخلاق. وعلى كل فالشيخ شيخ في العلم وفي الأخلاق.

أما قوله: «لا تقلده بصوت ونغمة» فهذا صحيح لأن بعض الناس يملكه حبه لشيخه أو لبعض الناس حتى يبدأ بتقليد صوته ونغمته. وكذلك: «ولا مشية وحركة وهيئة» هذا أيضاً ليس على إطلاقه بل يقال: إن كانت مشية الشيخ كمشية النبي ﷺ فاقته بها، لا لأن الشيخ قدوتك، ولكن لأن رسول الله ﷺ قدوتك، وكذلك أيضاً الحركة، والحركة قد تكون في بعض المعلمين حركة ممقوتة مثلاً لو تحرك بحركة الكلمة تحرك كل جسده. نعم هذا تقتدي به في هذا، لكن حركة تبين المراد أو تبين حركة النفس من انفعال هذا لا بأس بها، وربما تكون تنشيط الطالب لأنك تجد فرقاً بين معلم يكون له حركات تُنبأ عن المعنى وعمّا في نفسه من إحساسات، وبين معلم يسرد له العلم سرداً، ولما كنت في الطلب في المعهد العلمي في الرياض يأتينا واحد يدرسنا في النحو، ما شاء الله ولكنه يتكلم ويتحرك كل شيء يحتاج إلى حركة يتحرك تجدنا مشدودين معه تماماً، حتى لو كان عندنا نوم في الأول يطير عنا النوم. لكن يأتي واحد يتكلم يسرد الحديث سرداً قد يموت حيل الإنسان.

٢٠. نشاط الشيخ في درسه:

يكون على قدر مدارك الطالب في استماعه، وجمع نفسه، وتفاعل أحاسيسه مع شيخه في درسه، ولهذا فاحذر أن تكون وسيلة قطع لعلمه، بالكسل، والفتور والاتكاء، وانصراف الذهن وفتوره.

قال الخطيب البغدادي - رحمه الله تعالى: «حق الفائدة أن لا تساق إلا إلى مبتغياها، ولا تعرض إلا على الراغب فيها، فإذا رأى المحدث بعض الفتور من المستمع، فليستك، فإن بعض الأدباء قال: نشاط القائل على قدر فهم المستمع». ثم ساق بسنده عن زيد بن وهب، قال: «قال عبد الله: حدث القوم ما رمقوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فترة، فانزع» أه.

هذه أيضاً من حلية الطالب: أن يكون له همّة وقوة في الاستماع إلى الشيوخ، واسع نطقه حتى ينشط الشيخ على هذا، ولا يظهر للشيخ أنه قد ملّ وتعب بالإنكاء، والحملة فيه تارة، أو تقليد الأوراق تارة وما أشبه ذلك، ولا ينبغي للإنسان أن يولي العلم بين الطلبة ولا بين عامة الناس إلا وهم متشوقون له حتى يكون كالغيث أصاب أرض يابسة فقبلته، أما أن يكره أو يفرض نفسه فهذا أمر لا ينبغي. أولاً لأن العادة تكون قليلة، وثانياً ربما يقع في قلب السامع الذي أكرهه على إلقاء هذه الكلمة مثلاً يقع في قلبه كراهة إما للشخص وإما لما يلقى الشخص، وكلا الأمرين مؤرّ، وأمرهما أن يكره ما يلقى الشخص.

على كل حال متى رأيت الناس متشوقين للكلام فتكلم، وإذا رأيت الأمر لا يناسب فلا تتكلم لا تثقل على الناس، وهذا قد مر معنا في البخاري في حديث ابن

عباس: إنك لا تلقي على القوم الحديث إلا وأنت تعلم أنهم يحبون ذلك وإلا ما تلقه عليهم. وهنا يسوق كلام الخطيب. وهذا صحيح: إلقاء المتكلم نشاطه على فهم المستمع، وشتاته على قدر انتباه المستمع، لأن الفهم مرتبة وراء الانتباه، ينشأ الإنسان أولاً ثم يفهم.

٢١. الكتابة عن الشيخ حال الدرس والمذاكرة:

وهي تختلف من شيخ إلى آخر فافهم. ولهذا أدب وشرط: أما الأدب، فينبغي لك أن تعلم شيخك أنك ستكتب، أو كتبت ما سمعته مذاكرة. وأما الشرط فتشير إلى أنك كتبت من سماعه من درسه^(١).

كيف تختلف من شيخ إلى آخر؟ بعضهم سريع، وبعضهم يملئ إملاءً، وبعضهم يلقي إلقاءً، وبعضهم لا يستحق أن يكتب ما يقول، ومثل هذا قد يكون إنسان يضع وقته في الجلوس إليه. وأيضاً يجب في مسألة الكتابة عن الشيخ يجب أن ينتبه الإنسان إلى مسألة مهمة، يفوته بعض الكلمات من حيث لا يشعر فيكتب خلالها ما قال الشيخ.

ونحن الآن والحمد لله في هذا الوقت لا نحتاج أن يكتب الطالب حال إلقاء الشيخ، لماذا؟ لأننا عندنا تسجيلات ينقل لك كلام الشيخ من أوله إلى آخره وأنت تستمع إليه وتفيد ما ترى أنه جدير بالتقيد.

ولابد أن تخبر الشيخ أنك ستكتب وإن كنت لا بد أن تكتب أو تسجل تخبره أنك سوف تسجل، لأن الشيخ ربما لا يرضى أن تكتب عنه شيئاً.

وأما الشرط فتشير إلى أنك كتبت من سماعه من درسه حتى يتبين للقارئ أنك لو لم تشر إلى هذا، لظن القارئ أن الشيخ أملاه عليك إملاءً، وهناك فرق بين الإملاء وبين كتابة الدرس الذي يلقيه الشيخ بدون أن يشعر أنه يملئ على الطلبة - من ما يسمى بالتقرير، فرق بين الكتابة بالتقرير والكتابة بالإملاء، لأن الإملاء سوف يكون محرراً ومنقحاً، والشيخ لا يملئ كلمة إلا ويعرف منتهائها، لكن التقرير يلقي الكلام هكذا مرسلاً ربما تدخل كلمات في بعض وربما سقطت كلمة سهواً وغير ذلك، فنفرق بين التقرير وبين الإملاء.

ولذلك ينبغي أن يستأذن الشيخ، فإن قال قائل: هل إقرار الشيخ إذن؟ بمعنى أنه رأى الطلبة يكتبون وسكت. هل يعتبر إذن؟ نعم. نقول هو إذن بشرط القدرة على الإنكار، فإن كان لا يقدر أن ينكر، يخشى أن تثور عليه الطلبة وتهيج عليه الطلبة إن قال لا تكتبون، فلا نعتبر سكوتة إقرار.

٢٢. التلقي عن المبتدع:

أحذر (أبا الجهل) المبتدع، الذي مَسَّه زَيْغُ العقيدة، وَغَشِيَتْهُ سَحَابُ الخُرافة، يُحَكِّمُ الهوى وَيُسَمِّيهِ العقل، وَيَعْدِلُ عن النص، وهل العقل إلا هي النص؟! وَيَسْتَمْسِكُ بالضعيف وَيُبْعِدُ عن الصحيح، وَيُقَالُ لهم أيضاً: «أهل الشبهات»^(١)، «أهل الأهواء»، ولذا كان ابن المبارك^(٢). رحمه الله تعالى. يُسَمِّي المبتدعة: «الأصاغر».

وقال الذهبي - رحمه الله تعالى - ^(١) : «إذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث، وهات (العقل)؛ فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيد يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهات الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حل فيه، فإن جئنت منه فاهرب، وإلا فاصرعه، وابرك على صدره، وقرأ عليه آية الكرسي، واخنقه» أهـ.

يقول رحمه الله: «احذروا الجهل» يعني صاحب الجهل - «المبتدع الذي مسه» العقيدة وغشيته سحب الخرافة» وهذا التحليل الذي قاله الشيخ بكر أمر لازم يجب أن نحذر أهل البدع وصائغوا البدع بصياغة مغرية مزخرفة، وهؤلاء الذين يتبعون أهواءهم في العقيدة يسمون ذلك العقل، والحقيقة أنه عقل ولكنه عقلهم عن الهدى إلى اتباع الهوى، فهم كما قال ابن القيم في أمثالهم: «هربوا من الرق الذي خلقوا» وابتلوا برق النفس والشيطان» يعدل عن النص ويقول: دل العقل على الخلاف سبحانه الله!! هل العقل يخالف النص؟ أبداً... لا يمكن بأي عقل صريح خالي من الشبهات والشهوات يخالف النقل الصحيح أبداً، لكن العلة إما من النقل قد يكون غير صحيح أو من العقل قد يكون غير صريح، أما مع صراحة العقل وصحة النقل فلا يمكن أن يوجد تعارض إطلاقاً، ولهذا نعي الله سبحانه وتعالى عن المخالفة للرسول، نعي عليهم عقولهم يقول: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة يس: ٦٨). وما أشبه ذلك.

فالعقل كما قال الشيخ: «وهل العقل إلا في النص ويستمسك بالضعيف ويبعد عن الصحيح». وأكثر ما يكون ذلك في الوعاظ والقصاص تجدهم يحشون أدمغتهم من الأحاديث الضعيفة من أجل تهيج الناس ترهيباً أو ترغيباً.

بأنه يقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (سورة الإخلاص: ١). يقول: قال النبي ﷺ: «إن الله من كل حرف من سورة قل هو الله أحد ألف طائر، ولكل طائر ألف لسان كلها تدعو أو يقرأ هذا الذي قراها». من قال هذا؟! وأشياء غريبة وعجيبة في فضائل الأعمال كذلك هذا يقال لهم أيضاً أهل الشبهات مع أهل الجهل وأهل الأهواء، وكان المارك يُسمي المبتدعة «الأصاغر» وهذا وصف مطابق لموصوفه، فهم أصاغر وإن دعوا أنفسهم، وكل من خالف النص فهو صغير.

أما كلام الذهبي: فالصوفية كل دينهم ذوق ووجد، والظاهر أن الذهبي رحمه الله لقي النكر من هؤلاء ولهذا شدد في تقييح أوصافهم. «فإن جئنت منه فاهرب» يعني فإن عجزت عنه أن تحاوره أو تناظره فاهرب، هذا هو الحكم، وإلا فإن كنت تستطيع أن تجادله وأن تفحمه فاصرعه صرعاً حسياً أو صراعاً «فاصرعه وابرك على صدره» هذا يدل على أنه حسي. «واقراً عليه آية الكرسي» يذهب الشيطان واخنقه».

الإنسان يسمع كلام الذهبي هذا في ظني أنه إذا صرعه ثم برك على صدره ثم أقرأ عليه آية الكرسي ثم خنقه سيموت، لأنه يكون خنقه حينئذ شديداً قوياً. ولكن على كل حال الظاهر أن الشيخ الذهبي رحمه الله قد أصابه ما أصابه من هؤلاء المعافى من عافاه الله، لو ذهبت إلى بعض البلاد الإسلامية لوجدت من هؤلاء القوم كثيراً كما يذكر عنهم العلماء السابقون واللاحقون، يعني يصلون إلى حد الجنون، يضربون بالطبول، يضربون بالعصي على الأرض ويغبرون.

والتغيير هو أن يأخذ كل واحد منهم سوط ويهللون بهليلهم وأذكارهم ثم يرقون الإنسان الأرض ومن كان أكثر غباراً كان أشد وأقوى فيكون هذا دليل على أنه

وقال أيضاً - رحمه الله تعالى - ^(١): «وَقَرَأْتُ بِخَطِّ الشَّيْخِ الْمُؤَفَّقِ قَالَ: سَمِعْنَا دَرْسَهُ - أَي: ابْنُ أَبِي عَصْرُونَ - مَعَ أَخِي أَبِي عُمَرَ وَانْقَطَعْنَا، فَسَمِعْتُ أَخِي يَقُولُ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ بَعْدَ، فَقَالَ: لِمَ انْقَطَعْتُمْ عَنِّي؟ قُلْتُ: إِنَّ نَاسًا يَقُولُونَ: إِنَّكَ أَشْعَرِيٌّ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَنَا أَشْعَرِيٌّ. هَذَا مَعْنَى الْحِكَايَةِ أَهـ.»

يستفاد أنك لا ينبغي أن تجلس لمبتدع وإن كانت بدعته حقيقية كبدعة الأشعرية ^(٢)

وعن مالك - رحمه الله تعالى - قال ^(٣): «لَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ عَنْ أَرْبَعَةٍ: سَفِيهِ يُعْلِنُ السَّفَهَ وَإِنْ كَانَ أَرَوَى النَّاسِ، وَصَاحِبِ بَدْعَةٍ يَدْعُو إِلَى هَوَاهُ، وَمَنْ يَكْذِبُ فِي حَدِيثِ النَّاسِ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَتَّهِمُهُ فِي الْحَدِيثِ، وَصَالِحِ عَابِدٍ فَاضِلٍ إِذَا كَانَ لَا يَحْفَظُ مَا يُحَدِّثُ بِهِ.»

فيا أيها الطالب إذا كنت في السعة والاختيار، فلا تأخذ عن مبتدع: رافضي، أو خارجي، أو مرجئي، أو قدري، أو قبوري، ... وهكذا، فإنك لن تبلغ مبلغ الرجال - صحيح العقد في الدين، متين الاتصال بالله، صحيح النظر، تقفو الأثر - إلا بهجر المبتدعة وبدعهم.

وظاهر كلام الشيخ - وفقه الله - أنه لا يؤخذ عن صاحب البدعة شيء حتى لا يتعلق ببذعته. فمثلاً إذا وجدنا رجلاً مبتدعاً، لكنه جيد في علم العربية: البلا

(١) «السير»: (١٢٩/٢١).

(٢) ينتسب الأشاعرة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري البصري، وكان معتزلياً فرجع الاعتزال وردَّ على المعتزلة وبين تناقضهم، ومن مذهبه: أن الواجبات كلها سمعية، وأن العقل يوجب شيئاً، وأن لله صفات أزلية قائمة بذاته تعالى، دلت أفعاله عليها، لا يمكن جردها ككم تعالى علم بعلم، قادر بقدره، حي بحية.

انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٩٤/١).

(٣) كما في: «السير»: (٦١/٨).

(١) وفي رسالة «هجر المبتدع» لراقه أصول مهمة في هذه المسألة.

والصرف. فهل يجلس إليه وتأخذ منه هذا العلم الذي هو جيد فيه أم نهجره؟
ظاهر كلام الشيخ أننا لا نجلس إليه لأن ذلك يوجب مفسدتين:

المفسدة الأولى - اغتراره بنفسه، فيحسب أنه على حق.

المفسدة الثانية - اغترار الناس به، حيث يتوارد عليه الناس وطلبة العلم ويتلقون والعامي لا يفرق بين علم النحو وعلم العقيدة.

لهذا نرى أن الإنسان لا يجلس إلى أهل البدع والأهواء مطلقاً، حتى إن كان لا علم العربية والبلاغة والصرف إلا فيهم، فسيجعل الله له خيراً منه، لأننا كوننا لهؤلاء ونتردد إليهم لا شك أنه يوجب غرورهم واغترار الناس بهم.

وَكُتِبَ السَّيْرُ وَالْإِعْتَصَامُ بِالسَّنَةِ حَافِلَةً بِأَجْهَازِ أَهْلِ السَّنَةِ عَلَى الْبَدْعَةِ، وَمُنَابَذَةُ الْمُبْتَدِعَةِ، وَالْإِبْتِعَادُ عَنْهُمْ، كَمَا يَبْتَغِي السَّلِيمُ مِنَ الْأَجْرَبِ الْمَرِيضِ، وَلَهُمْ قِصَصٌ وَوَأَقْعَاتٌ يَطُولُ شَرْحُهَا ^(١)، لَكِنْ يَطِيبُ لِي الْإِشَارَةُ إِلَى رُؤُوسِ الْمُقِيدَاتِ فِيهَا: فَقَدْ كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى يَحْتَسِبُونَ الْأَسْتِخْفَافَ بِهِمْ، وَتَحْقِيرَهُمْ، وَرَفَضُ الْمُبْتَدِعِ وَبِدْعَتِهِ، وَيَحْذَرُونَ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ، وَمَشَاوَرَتِهِمْ، وَمُؤَاكَلَتِهِمْ، فَلَا تَتَوَارَى نَارُ سَنِّي وَمُبْتَدِعِ.

وكان من السلف من لا يصلي على جنازة مبتدع، فينصرف، وقد شوهد من العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم (م سنة ١٣٨٩هـ) - رحمه الله تعالى - انصرافه عن الصلاة على مبتدع. وكان من السلف من ينهى عن الصلاة خلفهم، وينهى عن حكاية بدعهم، لأن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة.

وكان سهل بن عبد الله التستري لا يرى إباحة الأكل من الميتة .. للمبتدع عند الاضطرار، لأنه باع، لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ (سورة

البقرة: ١٧٣). الآية، فهو باغ ببدعته^(١). وكانوا يطردونهم من مجالسهم، كما في قصة الإمام مالك - رحمه الله تعالى - مع من سألته عن كيفية الاستواء، وفيه بعد جوابه المشهور: «أظنك صاحب بدعة»، وأمر به، فأخرج. وأخبار السلف متكاثرة في الثفرة من المبتدعة وهجرهم، حذراً من شرهم، وتحجيماً لانتشار بدعهم، وكسراً لنفوسهم حتى تضعف عن نشر البدع، ولأن في معاشره السنّي للمبتدع تركية له لدى المبتدئ والعامي. والعامي: مشتق من العمى، فهو بيد من يقوده غالباً.. ونرى في كتب المصطلح، وآداب الطلب، وأحكام الجرح والتعديل الأخبار في هذا^(٢).

﴿١﴾

المؤلف - وفقه الله - حذر هذا التحذير المرير من أهل البدع، وهم جديرون بذلك ولا سيما إذا كان المبتدع سليط اللسان، فصيح البيان، فإن شره يكون أشد وأعظم، ولا سيما إذا كانت بدعة مكفرة أو مفسدة، فإن خطره أعظم ولا سيما إذا كان يتظاهر أمام الناس بأنه من أهل السنة، لأن بعض أهل البدع عندهم نفاق، تجده عند من يخاف منه يتمسكن ويقول: أنا من أهل السنة وأنا لا أكره فلان ولا فلان من الصحابة وأنا معكم. وهو كاذب فمثل هؤلاء يجب الحذر منهم.

وقوله: «وكان من السلف من لا يصلي على مبتدع، على كل حال إذا كانت البدعة مكفرة فلا شك أن الصلاة عليه لا تجوز لقول الله تعالى لرسوله ﷺ في المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ (سورة التوبة: ٨٤). هذا لا يصلي عليه، أما إذا كانت غير مكفرة فهذا ينظر فيما يترتب على ترك الصلاة عليه من المفسدة وعدمها، فإذا كان أهل السنة أقويلاً وكان أهل البدعة في عنفوان بدعتهم، فلا شك أن ترك الصلاة عليهم

(١) «الفتاوي»: (٢١٨/٢٨)، انظرها، فهو مهم.

(٢) منها في: «الجامع» للخطيب، باب: تخير الشيوخ إذا تباينت أوصافهم: (١٠/١٢٧)، وفي كتاب «مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للسامرائي: (ص ٢١٥-٢٥٥)، وهو مهم، وفي (التحول المذهبي) من «الإسفار» لراقمه أمثلة من آثار مخالطتهم.

لأن أهل السنة أقوياء وهؤلاء في عنفوان دعوتهم، ربما إذا تركنا الصلاة عليهم حصل بذلك ردعاً عظيماً لهم. وما ذكر عن الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في البلاد السعودية في زمانه يدل على قوته رحمه الله وصرامته، حيث انصرف عن الصلاة على مبتدع. أيضاً الصلاة خلفه من باب أولى أن يحذر الإنسان منها، فإن بدعته مكفرة فإن الصلاة خلفه مع العلم ببدعته المكفرة لا تصح. وإن كانت ذلك فالصحيح أن الصلاة خلفه صحيحة. لكن لا ينبغي أن يصلي خلفه، أما ما عن سهل بن عبد الله التستري^(١). الذي لا يبيح أكل الميتة للمبتدع، وإن اضطر إلى ذلك، فإن كان هذا المبتدع كافراً فإنه لا يباح له عند الله أكل الميتة ولا أكل مذكاته. أول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ (سورة المائدة: ٩٣). ولقوله تعالى: ﴿قُلْ حَرَّمَ زِينَةُ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (سورة الأعراف: ٣٢). فدل هذا على أن الطيبات من الرزق والزينة التي أخرج الله لعباده ليست خالصة لغير المؤمنين يوم القيامة، بل يحاسبون عليها فإذا كانت بدعته مكفرة فنحن نقول: لا يحل له أن يأكل الميتة عند الاضطرار ولا الذكاة عند الاختيار لكن نقول: تب من بدعتك المكفرة وكل كما يأكل المؤمنون.

وإن كانت مفسدة ففي ما قاله رحمه الله نظر، لأن الصحيح فيما قاله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ (سورة البقرة: ١٧٣). أي غير مبتغ لأكل الميتة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي غير معتد لأكل ما يحتاج إليه. هذا هو الصحيح في الآية والدليل على أن هذا هو الصحيح، هو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة المائدة: ٣). ومن العلماء من قال المراد بالباغي: الباغي على الإمام وليس الفاعل معصية.

(١) سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محمد. من كبار العباد والزهاد. توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين. صفة الصفوة (٤/٤١).

ففي كلام سهل رحمه الله تفصيل: وهو إذا كانت بدعته مكفرة فلا يحل له أن يأكل من الميتة أو المذكاة ويحاسب على بدعته عند الله، وإمكانات غير مكفرة ففي قول نظر أما في طرده من المجالس، فنعم يطردون من المجالس، وللشيخ أن يطرد من مجلسه ما دون ذلك إذا رأى من أحد الطلبة أنه يريد أن يفسد الطلب عند زملائه وبحيث يعتدون على الشيخ ولا يهابونه ويحتقرونه، فله أن يطرده لأن هذا يعتد مفسداً يُطرد. والإمام مالك رحمه الله قال: ما أراك إلا مبتدعاً. لأن الذين يسألون عن مثل ذلك المبتدعة. يسألون كيف استوى؟ يخرجون بذلك أهل السنة. يقولون أخبرني كيف استوى؟ والإخبار عن ذلك سهل. أن الله أخبرنا أنه قد استوى، ولم يخبرنا كيف استوى. وهل نعلم كيفية شيء لم نعلم به وهو غائب عنا؟! أبداً.

لوقال لك قائل: إني بنيت بيتاً. فأنت قد علمت أنه بنى بيتاً وتعلم كيف بنا البيت. لكن تعرف كيفية هذا البيت وما فيه من الحجر...؟ الجواب: لا إن كنت لا تشاهده.

وقوله: «العامي من العمى» لم أعرف أنه اشتق من العمى إلى الآن، فينظر في ذلك هل هو من العمى أم هو من العموم، أي من عموم الناس. والعامي لاشك أنه هو الجاهل الذي لا يعرف؟

فيا أيها الطالب! كن سلفياً على الجادة، واحذر المبتدعة أن يفتنوك، فإنهم يوظفون للاقتناص والمخاتلة سبلاً، فيفعلون تعبيدها بالكلام المعسول. وهو: (عسل) مقلوب. وهطول الدمعة، وحسن البرة، والإغراء بالخيالات، والإدهاش بالكرامات، وتحسن الأيدي، وتقبييل الأكتاف... وما وراء ذلك إلا وحم البدعة، ورهج الفتنة، يغرُسها في فؤادك، ويعتملك في شراكه، فوالله لا يصلح الأعمى لقيادة العميان وإرشادهم.

أما الأخذ عن علماء السنة، فأعق العسل ولا تسلم. وفقك الله لرشدك، لتتهد من ميراث النبوة صافياً، وإلا فليبك على الدين من كان باكباً. وما ذكرته لك هو في حال السعة والاختيار، أما إن كنت في دراسة نظامية لا خيار لك، فاحذر منه، مع الاستعاذة من شره، ولا تتخاذل عن الطلب، فأخشى أن يكون هذا من التولي يوم الزحف، فما عليك إلا أن تتبين أمره، وتتقي شره، وتكشف ستره.

هنا إحتراز جيد، قد يلجأ الإنسان إلى المبتدع وذلك في الدراسات النظامية قد يذهب إلى التدريس في العلوم العربية مثلاً أو في العلوم الأخرى. هو مبتدع ومعروف له من أهل البدع، ولكن ماذا تفعل إذا كنت لا بد أن تدرس على هذا الشيخ؟ نقول: خذ من خيره ودع شره، إن تكلم أمام الطلاب في العقيدة فعليك بمناقشته كنت تقدر على المناقشة وإلا فارفع أمره لمن يقدر على مناقشته واحذر أن تدخل معه في نقاش لا تستطيع التخلص منه، لأن هذا ضرر لا عليك أنت، بل على القول الذي دافع عنه، لأنك إذا فشلت أمام هذا الأستاذ مثلاً صار هذا كسر للحق ونصر الباطل، لأن إذا كان عندك قدرة في مجادلته فعليك بذلك، وربما يكون في هذا مصلحة للجميع، مصلحة لك أنت يهديه الله على يدك ومصلحة له هو يهديه الله من بدعته.

وهل تقارن مثل هذا بمن أبتلي بالدراسة مع الاختلاط على الوجه النظامي؟ فيه مسيل. إن دعت الضرورة بذلك، إذا لم يكن هناك جامعات أو مدارس خالية من ذلك فهنا قد تكون هناك ضرورة، وفي هذه الحال يجب على الطالب أن يتعد عن الحواس إلى امرأة أو التحدث معها أو تكرار النظر إليها. يعني بقدر ما يستطيع بعد عن الفتنة.

أما إذا كان من الممكن أن يدرس في مدارس أخرى خالية من الاختلاط أو لها نصف اختلاط، كما أن يكون النساء في جانب والرجال في جانب آخر يلتقي الله ما استطاع.

وَمِنَ النَّتْفِ الطَّرِيفَةِ أَنْ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُقْرِيءَ حَدَّثَ عَنْ مُرْجِيٍّ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ تَحَدَّثُ عَنْ مُرْجِيٍّ؟ فَقَالَ: «أَبِيعُكُمْ اللَّحْمَ بِالْعِظَامِ»^(١). فَأُقْرِئَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - حَدَّثَ بِلَا غَرَرٍ وَلَا جَهَالَةٍ، إِذْ بَيَّنَّ فَقَالَ: «وَكَانَ مُرْجئًا»^(٢).

إلى ماذا تشير هذه القصة؟ أبيعكم اللحم بالعظام. الباء هنا للمصاحبة والمعية يعني معناها: ما من لحمة إلا وفيها عظم. فأنا أحدثكم بما حدثت به، وأقول «وكأنه مرجئاً» فيكون العظم هنا في الوسط.

وما سطرته لك هنا هو من قواعد معتقدك، عقيدة أهل السنة والجماعة، ومنه ما في «العقيدة السلفية» لشيخ الإسلام أبي عثمان إسماعيل ابن عبد الرحمن الصَّابُونِي (م سنة ٤٤٩هـ)، قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «وَيُبْغِضُونَ أَهْلَ الْبِدْعِ الَّذِينَ أَحَدَثُوا فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَلَا يُحِبُّونَهُمْ، وَلَا يَصْحَبُونَهُمْ، وَلَا يَسْمَعُونَ كَلَامَهُمْ، وَلَا يُجَالِسُونَهُمْ، وَلَا يُجَادِلُونَهُمْ فِي الدِّينِ، وَلَا يُنَازِلُونَهُمْ، وَيَرَوْنَ صَوْنَ آذَانِهِمْ عَنْ سَمَاعِ أَبَاطِيلِهِمُ الَّتِي إِذَا مَرَّتْ بِالْأَذَانِ، وَقَرَّتْ فِي الْقُلُوبِ، ضَرَّتْ، وَجَرَّتْ إِلَيْهَا مِنَ التَّوَسَّوسِ وَالْخَطَرَاتِ الْفَاسِدَةِ مَا جَرَّتْ، وَفِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (سورة الأنعام: ٦٨). أَهـ.

كلام الصابوني رحمه الله يحتاج إلى بيان. قوله: «وَيُبْغِضُونَ أَهْلَ الْبِدْعِ الَّذِينَ أَحَدَثُوا فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ» لاشك أن هذا أمر واجب على كل مسلم أن يبغض دين الله ما ليس منه، لكن إذا كانت بدعته غير مكفرة فإنه يبغض من وجه ويحب

(١) الخطيب في «جامعه»: (١/٢٢٤).

(٢) (ص: ١٠٠).

ووجه آخر، لكن بدعته تبغض بكل حال. كذلك أيضاً «ولا يصحبونه» صحبته تأليفاً ودعوتاً فلا بأس، لكن بشرط أنك إذا رأيت من صلاحه فارقته وتركته.

لا يسمعون كلامهم ولا يجالسونهم ولا يجادلونهم في الدين ولا يناظرونهم، كل هذه إلى قيود. لا يسمعون كلامهم. إذا لم يكن في ذلك فائدة، فإن كان في ذلك فائدة بحيث يسمع كلامه ليرى ما فيه من الباطل ليرى ما يرد عليه فإن السماع هنا لا يسمعون كلامهم، لأنك لا يمكن أن يرد على قوم حتى تعرفهم إذ أن الحكم على فرع من تصوره. وأيضاً لا تسمع عن أقوال أهل البدع من أعدائهم، بل من أئمتهم، لأنه ربما تشوه المقالة. فإن قلت: أنتم قتلتم كذا وكذا. يقولون: أبداً ما قلنا، لهذا يخطئ بعض الناس حين يحكم على شخص بالبدعة أو بالفسق دون أن يرجع إلى الأصل، لابد من الرجوع إلى الأصل، لأنك إذا قلت: أنتم قتلتم كذا وكذا لأحد من أهل البدع.

فقالوا: نحن لم نقل هذا. هذه كتبنا، تخسر كل الجولة ولا يوثق بكلامك ذلك أيضاً «لا يجادلونهم في الدين» هذا أيضاً يجب أن يقيد، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَدْلِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: ١٣٥). فلا بد من المجادلة، كيف نعرف غير ذلك عن الباطل إلا بالمجادلة والمناظرة. المجادلة التي يقصدها: المراء. هذه تترك الرخص، إذا علمنا أن الرجل يجادل مراء ما يقصد الحق فهذا يُترك.

وانظر إلى قصة أبي سفيان حيث جعل ينادي يوم أحد: أفيكم محمداً، أفيكم أبي قحافة، أفيكم عمر. قال النبي ﷺ: «لا تجيبوه» لماذا؟ إهانة له وإذلالاً وعدم الإلابة له. فلما قال: «أعل هبل» وافتخر بصنمه قال: «أجيبوه» الآن ما يمكن أن نقول. قالوا: ما نجيبه؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجل» إذا كان صنمك قد علا، والله أعلى وأجل. ثم قال: يوم بيوم بدر والحرب سجال. يوم بدر لمن؟ ويوم أحد؟ هؤلاء المشركين؟ قالوا له: «لا سواء» قتالنا في الجنة وقتلاككم في النار.

هذا أيضاً افتخر بقومه واستزل المسلمين، فلا بد من مجاوبته، قالوا لا سواء قتلا في الجنة وقتلاكم في النار.

«ويرون صون أذانهم ..» هذا صحيح، الإنسان الذي يخشى على نفسه من سوء البدع أن يقع في قلبه شيء، فالواجب عليه البعد وعدم السماع، وأما إذا كان عدا من اليقين والقوة والثبات ما لا يؤثر عليه سماعها، فإنه إن كان في ذلك مصابيح سمع، واستجبنا له أن يسمعها، وإن لم يكن له في ذلك مصلحة. قلنا أن الأول لك أن لا تسمعها لما في ذلك من ضياع الوقت واللغو. والآية واضحة. لكن كنت تريد أن تعرف ما هم عليه من الباطل لترده فإنه لا يدخل في الآية الكريمة.

وعن سليمان بن يسار أن رجلاً يُقال له: صبيغ، قدم المدينة، فجعل يسأل عن متشابه القرآن؟ فأرسل إليه عمر رضي الله عنه وقد أعد له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، فأخذ عرجوناً من تلك العراجين، فضربه حتى دمي رأسه، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد، ثم تركه حتى برأ، فدعى به ليعود، فقال: إن كنت تريد قتلي، فاقتلني قتلاً جميلاً، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري باليمن: لا يجالسهُ أحدٌ من المسلمين. رواه الدارمي ^(١). وقيل: كان متهماً برأي الخوارج.

هذا الحديث إذا صحَّ سنده فإنه يدل على شدة عمر رضي الله عنه على أولئك الذين يريدون التشابه من القرآن، لأنه كان يورد آيات متشابهة، فمثلاً يقول: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (سورة المرسلات: ٣٦). ثم يأتي بالآيات الأخرى التي تبين أنهم يعتذرون ولا يقبل منهم، ويأتي يقول: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (سورة النساء: ٤٢). ثم يأتي بآيات

(١) هو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن التميمي الدارمي السمرقندي، الحافظ الثقة صاحب المشهور. قال أبو حاتم: هو إمام أهل زمانه. توفي سنة ٢٥٥ (شذرات الذهب ١٣٠ / ٢).

تدل على إقرارهم على ذنوبهم، وما أشبه ذلك. وهذا لاشك أنه سعى في الأرض بالفساد.

وتشكيك الناس، وحق لمن هذه حاله أن يفعل به أمير المؤمنين رضي الله عنه ما فعل. وفيه ما أن بعض الناس قد يورد التشابهات لاشتباهاها عليه حقيقة، وهذا لا يلام. وقد تشابهت لأتفه في الأصل لم يركز نفسه على إرادة الجمع بين النصوص، فتجده ما يتبع الأشياء المتشابهة ثم يأتي فيجمع بين كذا وكذا وهذه حقيقة مهنة ليست به، وأذكر أن محمداً صلوات الله عليه الخلوئي رحمه الله كان له حاشية على متن «الممتع» وكان كلما بحث. قال: يحتمل كذا ويحتمل كذا، فلُقّب عند بعض طلاب العلم بالشكاك. لا يستقر على رأي، ولهذا ينبغي أن تأخذ لنفسك طريقاً بأن تبني على الأمور واضحة ولا تتبع التشابهات لأنك إن تتبع التشابهات ربما تزل.

والنوّي. رحمه الله تعالى. قال في كتاب «الأذكار»: «باب: التبرّي من

أهل البدع والمعاصي». وذكر حديث أبي موسى رضي الله عنه: «أن رسول الله صلوات الله عليه برئ من الصالحة، والحالقة، والشاقة». متفق عليه.

«الصالحة» هي التي ترفع صوتها بالنباح، «والحالقة»، التي تحلق شعرها تسخفاً، «الشاقة» التي تنشق الجيب عند المصيبة وإنما برئ رسول الله صلوات الله عليه من هؤلاء الثلاث لعدم إيمانهم بالقدر. ومن فعل من الرجال مثلهم حكمهم، لكنه ذكر ذلك لأن الغالب أن هذا يقع من النساء، لأن الرجال قد تحملاً من النساء.

وعن ابن عمر براءته من القدرية. رواه مسلم^(١).

لأنه لما حدث بأن عندهم قوم يقولون: إن الأمر أنف. يعني: مستأنف، وأن الله لم يقدره من قبل، قال للذي أخبره: أخبرهم بأن ابن عمر منهم بريء لأنهم أنكروا قدر الله وقدره السابق. أتدرون من هم القدرية^(٢)؟ الذين يشبّتون القدر أم الذين ينفون القدر؟ الذين ينفون القدر، وهي نسبة عكسية لأن الذي يسمع لفظ القدرية، فيظن أن المعنى: الذين يشبّتون القدر، والأمر بالعكس فهي نسبة سلب لا إيجاب، وهؤلاء القدرية يسمون مجوس هذه الأمة وقد وردت بذلك أحاديث^(٣). ووجه ذلك لأنهم جعلوا للحوادث محدثين، للحوادث الكونية التي هي من فعل الله، كالإنشاء، الغيم وإنزال المطر وما أشبه ذلك.

والحوادث التي تكون من فعل العبد، استقل بها العبد. فهم يرون أن العبد مستقل بعمله وأن الله لا علاقة له به إطلاقاً، ولهذا سُموا مجوساً لأنهم كالمجوس الذين يقولون: إن للحوادث خالقين. النور يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر.

منذر أبو سعيد

(١) وانظر أبحاثاً مهمة في: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» رحمه الله تعالى: (١٣٢/٢)، و(١١٩/٥)، و(١٤٠-٤٦٠)، و(١١٨/٣٦).

(٢) القدرية: هم نفاة القدر، ظهرت تلك الفرقة في البصرة، وأول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً ثم أسلم ثم تنصر وأخذ عنه معبد الجهني ثم غيلان الدمشقي، والقدرية أربعة أصناف: (القدرية النافية - القدرية المجبرة - القدرية المشركية - القدرية الإبلسية).

انظر: مذاهب الإسلاميين، للدكتور عبد الرحمن بدوي. ص ٩٧.

(٣) كقوله ﷺ: «إن لكل أمة مجوساً، وإن مجوس هذه الأمة القدرية، فلا تعودوهم إذا مرضوا، ولا تصلوا على جنازتهم إذا ماتوا». الحديث أخرجه الآجري رقم (٤٢٤) وابن بطه رقم (١٥١٦).

والأمر في هجر المبتدع ينبتني على مراعاة المصالح وتكثيرها، ودفع الفساد وتقليلها، وعلى هذا تنتزل المشروعية من عدمها، كما حرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في مواضع^(١).

إذا عاد الشيخ إلى ما ذكرنا. وهو: أن ننظر إلى المصالح، فإذا رأينا أن من المصلحة ألا نهجره ولكن نبين الحق، لا نDAHنه، ويبقى على بدعته ونحن على سنتنا إذا أينا من المصلحة هذا، فترك الهجر أولى، وإذا رأينا من المصلحة الهجر بأن يكون أهل السنة أقوياء، وأولئك ضعفاء مهزومين فالهجر أولى.

والمبتدعة إنما يكثرون ويظهرون، إذا قل العلم، وفشا الجهل. وفيهم يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فإن هذا الصنف يكثرون ويظهرون إذا كثرت الجاهلية وأهلها، ولم يكن هناك من أهل العلم بالنبوة والمتابعة لها من يظهر أنوارها الماحية لظلمة الضلال، ويكشف ما في خلافتها من الإلـك والشرك والمحال، أهد.

فإذا اشتد ساعدك في العلم، فاقم المبتدع وبدعته بلسان الحجة والبيان، والسلام.

صحيح. إذا اشتد ساعدك في العلم، أما إذا لم يكن عندك العلم الوافي في رد البدعة فإياك أن تجادل، لأنك إذا هُزمت وأنت سني لعلم قدرتك على مدافعة هذا المبتدع فهو هزيمة. لمن؟ للسنة، ولذلك لا نرى أن يجوز للإنسان أن يجادل مبتدعاً إلا وعنده قوة على مجادلته، وكذلك أيضاً مجادلة غير المبتدع: الكفار، لا نجادلهم إلا ونحن نعلم أننا على يقين من أمرنا وإلا كان الأمر عكسياً بدلاً أن يكون الانتصار لنا.

(١) منها في: المجموع الفتاوى: (٢١٣/٢٨)، (٢١٦-٢١٨).

الفصل الرابع أدب الزمالة

٢٣. احذر قرين السوء:

كما أن العرق دسّاس^(١)، فإن «أدب السوء دسّاس»^(٢)، إذ الطبيعة نقالة، والطباع سرّاقة، والناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض، فاحذر معاشرة من كان كذلك، فإنه العطب، «والدفع أسهل من الرفع». وعليه، فتخير للزمالة والصدقة من يعينك على مطلبك، ويقربك إلى ربك، ويوافقك على شريف غرضك ومقصدك، وخذ تقسيم الصديق في أدق المعايير^(٣):

هذه الكلمات مأخوذة من قول الرسول ﷺ: «مثل المجلس الصالح كحامل المسك ومثل المجلس السيء كنافخ الكير»^(٤). فعليك بإختيار الصديق الصالح الذي يدلّك على الخير ويبينه لك ويحثك عليه ويبين لك الشر ويحذرك منه، وإياك من جلس السوء، فإن المرء على دين خليله، وكم من إنسان مستقيم قيد له شيطان من بني آدم فصده عن الاستقامة، وكم من إنسان جائر قاصد يسر له من يده على الخير بسبب الصحبة. وبناء على ذلك نقول: إذا كان في مصاحبة الفاسق سبب كهديته فلا بأس أن تصحبه، تدعوه إلى بيتك، تأتي إلى بيته، تخرج معه للتمشي بشرط ألا يقدح ذلك

(١) وفي ذلك حديث موضوع، انظره في: «العلل المتناهية» (٢/ ١٢٣، ١٢٧)، و«شرح الإحياء»: (٣٤٨/٥).

(٢) «شرح الإحياء»: (١/ ٧٤).

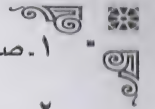
(٣) «محاضرات إسلامية» لمحمد الحفص حسين: (ص ١٢٥-١٣٦).

(٤) رواه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

منذر أبو سعيد

في عدالتك عند الناس، وكم من إنسان فاسق هداه الله تعالى بما يسر الله له من صفة الخير.

وقوله: «الدفع أسهل من الرفع» هذه قاعدة فقهية ذكرها ابن رجب في القواعد الفقهية وبمعناها قول الأطباء: الوقاية أسهل من العلاج، لأن الدفع ابتعاد عن الشر وأسبابه، لكن إذا نزل الشر صار من الصعب أن يدفعه الإنسان.



١. صديق منفعه.

٢. صديق لذة.

٣. صديق فضيلة.

فالأولان منقطعان بانقطاع موجهيهما، المنفعة في الأول، واللذة في الثاني/ وأما الثالث فالتعويل عليه، وهو الذي باعث صداقته تبادل الاعتقاد في رسوخ الفضائل لدى كل منهما.

وصديق الفضيلة هذا «عمله صعبة» يعز الحصول عليها. ومن نفيس كلام هشام بن عبد الملك (م سنة ١٢٥هـ) قوله ^(١): «ما بقي من لذات الدنيا شيء إلا أخرف مؤونة التحفظ بيني وبينه» أهـ.

ومن لطيف ما يقيد قول بعضهم ^(٢): «العزلة من غير عين العلم: زلة، ومن غير زاي الزهد: علة».

إذا لابد من علم ولابد من زهد قبل أن ينعزل الإنسان عن الناس. هؤلاء الأصدقاء قسمهم إلى ثلاثة أصدقاء:

(١) «طبقات السَّابِغِينَ»: (ص ٣١).

(٢) «العزلة» للخطابي.

صديق منفعه: وهو الذي يصادقك مادام ينتفع منك بمال أو جاه أو غير ذلك، وإذا انقطع الانتفاع فهو عدوك لا يعرفك ولا تعرفه. . وما أكثر هؤلاء، ما أكثر الذين يلمزون في الصدقات إن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون، صديق لك حميم ترى أنه من أعز الناس عندك وأنت من أعز الناس عنده يسألك يوم من الأيام يقول: اعطني كتابك أقرأ فيه. فتقول: والله الكتاب أنا محتاج إياه غداً، فتفخ عليك ويعاديك. هل هذا صديق؟ هذا صديق منفعه.

الثاني. صديق لذة: يعني لا يصادقك إلا لأنه يتمتع بك في المحادثات والمآسرات، ولكنه لا ينفك ولا تنتفع به منه أنت، كل واحد منكم لا ينفع الآخر. ليس إلا ضياع وقت فقط. هذا أيضاً احذر منه أن يضيع أوقاتك.

الثالث. صديق فضيلة: يحملك على ما يزين وينهاك عن ما يشين ويفتح لك أبواب الخير ويدلك عليه وإذا زلت ينهاك على وجه لا يخدش كرامتك، هذا هو صديق الفضيلة.



الفصل الخامس

آداب الطالب في حياته العلمية

٢٤. كِبَرُ الهِمَّةِ في العلم:

مِنْ سَجَايَا الْإِسْلَامِ التَّحَلِّي بِكِبَرِ الهِمَّةِ، مَرَكِزُ السَّالِبِ وَالْمَوْجِبِ فِي شَخْصِكَ، الرَّقِيبَ عَلَى جَوَارِحِكَ، كِبَرُ الهِمَّةِ يَجْلِبُ لَكَ بِإِذْنِ اللَّهِ خَيْرًا غَيْرَ مَجْدُودٍ، لِيَرْفِيَ إِلَى دَرَجَاتِ الْكَمَالِ، فَيُجَرِّي فِي عُرُوقِكَ دَمَ الشَّهَامَةِ، وَالرَّكْضَ فِي مِيدَانِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَلَا يَرَاكَ النَّاسُ وَاقِفًا إِلَّا عَلَى أَبْوَابِ الْفَضَائِلِ وَلَا بَاسِطًا يَدَيْكَ إِلَّا لِمُهْمَّاتِ الْأُمُورِ.

وهذا من أهم ما يكون عليه الإنسان في طلب العلم، يكون له هدف. ليس مراده مجرد قتل الوقت بهذا الطلب، بل يكون له همة، ومن أهم همم طالب العلم أن يريد القيادة والإمامة للمسلمين في علمه، ويشعر أن هذه درجة هو يرتقى إليها درجة درجة، حتى يصل إليها، وإذا كان كذلك فسوف يرى أنه واسطة بين الله - عز وجل - وبين العباد في تبليغ الشرع، هذه مزية ثانية، وإذا شعر بهذا الشعور فسوف يحرص غاية الحرص على اتباع الكتاب والسنة معرضاً عن آراء الناس، إلا أنه يستأنس بها ويستعين بها على معرفة الحق، لأن ما تكلم فيه العلماء رحمهم الله من العلم، لاشك أنه أبواب لنا، وإلا لما استطعنا أن نصل إلى درجة نستنبط الأحكام من النصوص أو معرفة الراجح من المرجوح وما أشبه ذلك.

والمهم أن يكون الإنسان عنده همة، وهو بإذن الله إن نوى هذه النية فإن الله سبحانه وتعالى سيعينه على الوصول إليها.

والتحلي بها يسلبُ منك سفاسفَ الآمالِ والأعمالِ، ويجتثُ منك شجرةَ الدُّلِّ والهوانِ: التملُّقُ والمُداهنةُ، فكبيرُ الهمةِ ثابتُ الجأشِ، لا تُرهِّبُهُ المواقفُ، وفاقِدُها جبانٌ رَعِيدٌ، تُغلقُ فَمَهُ الفهاهةُ.

هذا صحيح. التحلي يعلو الهمة، يسلبُ عنك سفاسفَ الآمالِ والأعمالِ.

الآمالُ: هو أن يتمنى الإنسان الشيء دون السعي في أسبابه، فإن المؤمن كيس فطن لا تلهه الآمال، لكن ينظر الأعمال ويرتقب النتائج.

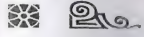
وأما ما تلهيه الآمال يقول: إن شاء الله أقرأ هذا، أراجع هذا، الآن استريح، وبعد ذلك أراجع. أو تلهيه الآمال فيما يحدث للإنسان أحياناً، يتصفح الكتاب من أجل مراجعة مسألة من المسائل، ثم ينظر في الفهرس والصفحات... تلهيه عن المقصود الذي من أجله فتح الكتاب ليراجع مسألة، وهذا يقع كثيراً، فينتهي الوقت وهو لم يراجع المسألة التي صار يراجع هذا الكتاب أو فهرس الكتاب. فإياك والآمال المخيبة. اجعل نفسك قوي العزيمة... عالي الهمة.

ولا تَغْلُظْ فتخلطَ بين كِبَرِ الهمةِ والكِبَرِ، فإنَّ بينهما من الفرق كما بينَ السماءِ ذاتِ الرُّجْعِ والأرضِ ذاتِ الصَّدْعِ. كِبَرُ الهمةِ حِلْيَةٌ وَرَثَةُ الأنبياءِ، والكِبَرُ داءُ المرضى بعلَّةِ الجبابرةِ اليُؤْسَاءِ.

«كِبَرُ الهمة» إن الإنسان يحفظ وقته ويعرف كيف يصرفه ولا يضيع الوقت بغير فائدة، وإذا جاءه إنسان يرى أن مجالسته فيها إهمال وإلهاء عرف كيف يتصرف.

«وأما كِبَرُ النفس» فهو الذي يحتقر غيره، ولا يرى الناس إلا ضفادع ولا يهتم وربما يصعر وجهه وهو يخاطبه. فكما قال الشيخ بكر: بينهما كما بين السماء ذات الرجوع والأرض ذات الصدع.

فيا طالبَ العلم! ارسمْ لنفسِكَ كِبَرَ الهمةِ، ولا تَنفَلِتْ منه وقد أوَمَّا الشرعُ إليها في فِقهياتِ تَلابُسِ حياتِكَ، لتكونَ دائماً على يَقْظَةٍ من اغتنامِها، ومنها: إباحةُ التيمُّمِ للمكَلَّفِ عند فَقْدِ الماءِ، وعدمُ إلزامِهِ بِقَبُولِ هبةٍ ثَمَنَ الماءِ للوضوءِ، لما في ذلك من المِنَّةِ التي تنال من الهمةِ منالاً، وعلى هذا فَقَسْ^(١)، والله أعلم.



من علو الهمة ألا تكون متشوقاً لما في أيدي الناس، لأنك إذا تشوقت ومن الناس عليك، ملكوك. لأنَّ المِنَّةَ ملك للرقبة في الواقع. لو أعطاك الإنسان قرشاً لوجد أن يده أعلى من يدك. كما جاء في الحديث: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(٢). واليد العليا هي المعطية، والسفلى هي الآخذة، لا تمد بصرك للناس، ولا تمد كفك إليهم. إذا كان الإنسان عادم الماء ووهب له الماء لم يلزمه قبوله، بل يعدل إلى التيمم خوفاً من المِنَّةِ مع أن الوضوء بالماء فرض للقادر عليه، لذلك فرَّق الفقهاء رحمهم الله بين أن تجد من يبيعه ومن يهديه. فقالوا: من يبيعه اشتر منه وجوباً لأنه لا مِنَّةَ له، حيث أنك تعطيه العوض. ومن أهداك لا يلزمه قبوله. من أجل أن منته تقطع رقبته، ولكن إذا كان الذي أهدى إليك الماء لا يمنُّ عليك به، بل يرى أنك أنت المانُّ عليه بقبوله، أو من جرت العادة على أن لا مِنَّةَ منه مثل الأب على ابنه، والأخ المشفق مع أخيه وما أشبه ذلك.. فهنا ترتفع العلة، وإذا ارتفعت العلة ارتفع الحكم. المهم أن من علو الهمة وكبرها ألا يكون الإنسان مستشرقاً لما في أيدي الناس.

إذا علمت الكلمة المنسوبة إلى الخليفة الراشد علي بن أبي طالب عليه السلام:
«قيمة كل امرئ ما يحسنه»، وقد قيل: ليس كلمة أحض على طلب العلم منها،
فاحذر غلط القائل: ما ترك الأول للآخر. وصوابه: كم ترك الأول للآخر!
فعليك بالاستكثار من ميراث النبي صلى الله عليه وآله، وابدأ الوُسْع في الطلب والتحصيل
والتدقيق، ومهما بلغت في العلم، فتذكر: «كم ترك الأول للآخر»!

إذا كان إنسان يحسن الفقه والشرع صار له قيمة، أحسن ممن يحسن قتل الحبال
مثلاً. لأن كلا منهما يحسن شيئاً، لكن فرق بين هذا وهذا فقيمة كل امرئ ما
يحسنه. «وقد قيل: ليس كلمة أحض على طلب العلم منها» وهذا القيل ليس بصحيح. أشد
كلمة في الحض على طلب العلم قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الزمر: ٩). وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
دَرَجَاتٍ﴾ (سورة المجادلة: ١١). وقول النبي صلى الله عليه وآله: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»
وقوله صلى الله عليه وآله: «العلماء ورثة الأنبياء»^(٢). وأشبه ذلك مما جاء في الحث على طلب
العلم، لكن ما نقل عن علي بن أبي طالب عليه السلام هي كلمة لاشك أنها جامعة، لكن
لاشك أنها ليست أحسن ما قيل في الحث على طلب العلم.

وقوله: «ما ترك الأول للآخر» إما تكون «ما» نافية أو استفهامية فإن كانت «نافية»
فالمعنى: ما ترك الأول للآخر شيئاً. وإن كانت «استفهامية» فيكون المعنى: أي شيء
ترك الأول للآخر؟

(١) رواه البخاري (٣٦٤١).

(٢) جزء من حديث طويل رواه أحمد (١٩٦/٥) وأبو داود (٣٦٤١).

وكلا المعنيين يوجب أن يتشبث الإنسان عن العلم، ويقول كل العلم أخذ من قبلي
بلا فائدة. فيكون بذلك تشبیط لهما، لأنه إذا قيل لك: أن من قبلك أخذوا كل
شيء. ستقول إذا ما الفائدة.

أما إذا قيل: كم ترك الأول للآخر، فالمعنى: ما أكثر ما ترك الأول للآخر،
هذا يحملك على أن تبحث على كل ما قاله الأولون، ولا يمنعك من الزيادة على
ما قال الأولون.

ولاشك أن المعنى الصواب: كم ترك الأول للآخر. فإن قيل: إن الشاعر
الجاهلي يقول:

ما أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا مُعَارَاً ❖❖❖ أَوْ مُعَادَاً مِنْ قَوْلِنَا مَكْرُور

فهل هذا صواب؟ الجواب: لا... هذا ليس بصواب، وما أكثر الأشياء الجديدة
التي تكلمنا بها ولم يتكلم بها من قبلنا. أما إن أراد بهذا حروف الكلمات أو
الكلمات، وهذا صحيح لو أراد المعاني.

ولعل الشاعر الجاهلي أراد أنه كل ما يقال من الكلمات والحروف فإنه إما معار
أخذه من غيره، وإما معاد.

لكن إذا كان البيت بهذا المعنى فقيمته ضعيفة جداً، رخيصة لأن هذا معلوم لا
يحتاج إلى أن ينشره الإنسان في بيت شعر.

قوله: «فعليك بالاستكثار...» يحثك على أن تستكثر من ميراث النبي صلى الله عليه وآله، وذلك
العلم لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورثوا العلم
فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر من ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ثم اعلم أن ميراث النبي صلى الله عليه وآله إما أن يكون بالقرآن الكريم أو بالسنة النبوية. فإن
كان بالقرآن الكريم، فقد كُفيت إسناده والنظر فيه، لأن القرآن لا يحتاج إلى النظر
بالسند لأنه متواتر أعظم التواتر.

أما إذا كان بالسنة النبوية فلا بد أن تنظر في السنة النبوية أولاً هل صحت نسب إلى الرسول ﷺ أم لم تصح؟ فإن كنت تستطيع أن تمحص ذلك بنفسك فهذا هو الأولى. وإلا:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ❖❖❖ وجاوزه إلى ما تستطيع

قوله: «ابذل الوسع» يعني الطاقة في التدقيق، أمر مهم لأن بعض الناس يأخذ بظواهر النصوص وعمومها دون أن يدقق. هل هذا الظاهر مراد أم غير مراد؟ وهذا هذا العام مخصص أم غير مخصص؟ أم هذا العام مُقيد أم غير مُقيد؟

فتجده يضرب السنة بعضها ببعض لأنه ليس عنده علم في هذا الأمر. وهذا يغلب على كثير من الشباب اليوم الذين يعتنون بالسنة تجد الواحد منهم يتسرع في الحكم المستفاد من الحديث، أو في الحكم على الحديث. هذا خطر عظيم.

يقول: «مهما بلغت في العلم فتذكر: كم ترك الأول للآخر» هذا طيب، ولكن نقول إن أحسن من ذلك مهما بلغت في العلم، فتذكر قول الله عز وجل: ﴿وَقَوْلاً كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة يوسف: ٧٦). وقوله ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٨٥).



وفي ترجمة أحمد بن عبد الجليل من «تاريخ بغداد» للخطيب ذكر من قصيدة له:

لا يكون السري مثل الدني ❖❖❖ لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي

قيمة المرء كلما أحسن المرء ❖❖❖ قضاء من الإمام علي



هذا سبق الكلام عليه. و«السري» يعني: الشريف عالي الهمة، مثل الوفي ونفي المماثلة ظاهر أيضاً، لا يكون الإنسان الذكي مثل الإنسان الغبي ولا ذو العلم مثل الجاهل.

«من لم يكن رحلةً لن يكون رحلةً»^(١): فمن لم يرحل في طلب العلم، للبحث عن الشيوخ، والسياسة في الأخذ عنهم، فيبعد تأهله ليُرحل إليه، لأن هؤلاء العلماء الذين مضى وقت في تعلمهم، وتعليمهم، والتلقي عنهم: لديهم من التحريات، والضبط، والنكات العلمية، والتجارب، ما يعزُّ الوقوف عليه أو على نظائره في بطون الأسفار.

قوله: «من لم يكن رحلةً لن يكون رحله» لعل: من لم يكن له .. يرجع إلى الأصل.

قوله: «التجارب» مكسور حرف الراء. والتجربة غلط ما هي لغة عربية، رغم أنها الشائع بين الناس الآن، حتى طلبة العلم، يقول: تجارب، تجربة. رغم أن باب كسر الراء. والمعنى: أن من لم يكن له رحلة في طلب العلم فلن يرحل إليه إلى الناس إليه.



واحذر القعود عن هذا على مسلك المتصوفة البطالين، الذين يفضلون «علم الخرق» على «علم الورق». وقد قيل لبعضهم: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلاق؟ وقال آخر:

إذا خاطبوني بعلم الورق ❖❖❖ برزت عليهم بعلم الخرق

فاحذر هؤلاء، فإنهم لا للإسلام نصروا، ولا للكفر كسروا، بل فيهم من كان بأساً وبلاء على الإسلام.

الصوفية يدعون أن الله يخاطبهم ويوحى إليهم، وأنه يزورهم ويزورونه وهذا من خرافاتهم.

والعبارة الأخيرة مأخوذة من كلام شيخ الإسلام رحمه الله في المتكلمين قال هؤلاء: «لا للإسلام نصر ولا للفلاسفة كسروا» يعني أنهم ما نصروا الإسلام الذي به محمد ﷺ ولا كسروا الفلاسفة الذين هاجوا وماجوا على الإسلام كله، ويدل ذلك أن هؤلاء المتكلمين حرقوا النصوص عن ظاهرها وأولوها إلى معان أو جدوا بما يزعمون أنه عقل، فسلط عليهم الفلاسفة وقالوا لهم: أنتم إذا أولتم آيات الصفات وأحاديث الصفات، مع ظهورها ووضوحها، فاسمحوا لنا أن نأول آيات المعاد، آيات اليوم الآخر فإن ذكر أسماء الله وصفاته في الكتب الإلهية أكثر بكثير من ذكر المعاد وما يتعلق به، فإذا أبحتم لأنفسكم أن تأولوا في أسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، فاسمحوا لنا أن نأول في آيات المعاد وننكر المعاد رأساً ولا شك أن هذه حجة قوية لهؤلاء الفلاسفة على هؤلاء المتكلمين، إذ لا فرق.

المهم أن الشيخ وفقه الله هاجم الصوفية، فهم جديرون بالمهاجمة، لأن بعضهم يصل إلى حد الكفر والإلحاد بالله، حتى يعتقد أنه هو الرب كما يقول بعضهم «ما هي الجبة إلا الله» يعني نفسه. ويقول:

الرب عبد والعبد رب ❖❖❖ يا ليت شعري من المكلف

يعني هما شيء واحد. إلى أمثال ذلك من الخرافات التي يقولونها، لكن ينبغي أيضاً أن نهاجم ونركز على مهاجمة أهل الكلام الذين سلبوا الله من كماله بكلامهم أنكروا الصفات، فمنهم من أنكر الصفات رأساً كالمعتزلة^(١). ومنهم من أثبت

(١) المعتزلة: تنفي الصفات عن الله تعالى خوفاً من التشبيه كما يزعمون، ولذا تأولوا جميع الصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه، وأثبتها رسول الله ﷺ ومن ذلك صفة الكلام لله تعالى، فجعلوا القرآن الذي هو كلام الله متصلاً بباب العدل الذي هو أحد أصول التوحيد الخمسة عندهم، ووجه اتصاله أن

منذر أبو سعيد

الأسماء، لكن جعلها أسماء جامدة لا تدل على معنى، وغالى بعضهم وقال: لها أسماء واحدة، وأن السميع هو البصير، وأن السميع والبصير هما العزيز وهما واحد. وغالى بعضهم فقال: هي أسماء متعددة، لكن لا تدل على معنى. سلوبة المعنى.

لأنهم لو أثبتوا لها معنى - بزعمهم - لزم تعدد الصفات، وتعددتها وتعدد الصفات يرون أنه شرك، لأنهم يقولون يلزم تعدد الصفات القديمة كالعلم والسمع والبصر، فيلزم من ذلك تعدد القدماء، وهو أشد شركاً من النصارى.

فالخاص أنه أيضاً ينبغي أن يهاجم على أهل الكلام الذين عطلوا الله عما يجب له من صفات كمال بعقول واهية.

والعلماء رحمهم الله الذين تكلموا عن الرحلة لم يدركوا هذا الأثر، الأشرطة المسجلة تغني عن الرحلة، لكن الرحلة أكبر لأن الرحلة إلى العالم، يكتسب الإنسان من علمه وأدبه وأخلاقه، ثم يترك الرجل يتكلم ليس كما يعمل إياه في الشريط. مثلاً: الخطبة، أنت عند رجل يخطب وكلامه جيد.. تتأثر به لكن لو تسمع هذا الكلام من الشريط لن تتأثر به تأثر وأنت تشاهد الخطيب.

منذر أبو سعيد

منذر أبو سعيد

القرآن فعل من أفعال الله وباب العدل كلام في أفعاله، وعلى هذا فهم يقولون: القرآن كلام الله ووحيه، وهو مخلوق محدث.

انظر: «شرح الأصول الخمسة» للفاضل عبد الجبار: (ص ٥٢٧-٥٣٩).

٢٧. حفظ العلم كتابة^(١)

ابدل الجهد في حفظ العلم (حفظ كتاب)، لأن تقييد العلم بالكتابة أمان من الضياع، وقصر لمسافة البحث عند الاحتياج، لاسيما في مسائل العلم التي تكون في غير مظانها، ومن أجل فوائده أنه عند كبر السن وضعف القوى يكون لديك مادة تستجر منها مادة تكتب فيها بلا عناء في البحث والتقصي.

«ابدل» همزة وصل، لكن عند الإبتداء بها تكون همزة قطع^(٢). بذل الجهد في الكتابة مهم، لاسيما في نواذر المسائل أو في التقسيمات التي لا تجدها في بعض الكتب.

كم من مسألة نادرة مهمة لا يقيدتها اعتماداً على أنه يقول: إن شاء الله لا أنساها. فإذا به ينساها ويتمنى لو كتبها، ولكن احذر أن تكتب على كتابك على هامشه أو بين سطوره، كتابة تطمس الأصل فإن بعض الناس يكتب على هامش الكتاب أو بين سطوره كتابة تطمس الأصل، لكن يجب إذا أردت أن تكتب على كتابك أن تجعله على الهامش البعيد من الأصل لئلا يلتبس هذا بهذا، فإن لم يتيسر هذا، كأن ما تريد تعليقه أكثر من الهامش فلا خير عليك أن تجعل ورقة بيضاء تلصقها بين الورقات وتشير إلى موضعها من الأصل وتكتب ما شئت، وكان طلبه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله يحدثونا أنهم يأخذون مذكرات صغيرة يجعلونها في الجيب كلما ذكر الإنسان منهم مسألة قيدها، إما فائدة علم في خاطر، أو مسألة يسأل عنها الشيخ فيقيدها، فاستفادوا بذلك كثيراً.

(١) «الجامع» للخطيب: (١٦/٢)، ١٨٣-١٨٥.

(٢) ارجع لكتابنا: «المؤلف في أحكام الهمزة والالف».

ولذا، فاجعل لك (كناشاً)^(١) أو (مذكّرة) لتقييد الفوائد والفرائد والأبحاث المنثورة في غير مظانها، وإن استعملت غلاف الكتاب لتقييد ما فيه من ذلك، فحسن، ثم تنقل ما يجمع لك بعد في مذكرة، مرتباً له على الموضوعات، مقيداً رأس المسألة، واسم الكتاب، ورقم الصفحة والمجلد، ثم اكتب على ما قيّدته: «نقل»، حتى لا يختلط بما لم ينقل، كما تكتب: «بلغ صفحة كذا» فيما وصلت إليه من قراءة الكتاب حتى لا يفوتك ما لم تبلغه قراءة.

وللعلماء مؤلفات عدة في هذا، منها: «بدائع الفوائد» لابن القيم، و«خبايا الزوايا» للزرّكشي، ومنها: كتاب «الإغفال»، و«بقايا الخبايا»، وغيرها. ومنها أيضاً «صيد الخاطر» لابن الجوزي، لكن أحسن ما رأيت «بدائع الفوائد» لابن القيم أربعة أجزاء في مجلدين، فيها من بدائع العلوم ما لا تكاد تجده في كتاب لكل فن. كل ما طرأ على باله قيده، لذلك تجد فيه من العقائد في التوحيد، في الفقه، في النحو، في البلاغة، في التفسير، في كل شيء.

أحياناً يبحث في كلمة من الكلمات اللغوية في صفحة تحليلاً وتفريراً واشتقاقاً من ذلك. بحث بحثاً بالغاً في الفرق بين «المدح والحمد»، كتب كتابة فائقة في ذلك، وقال: كان شيخنا إذا بحث في مثل هذا أتى بالعجب العجيب لكنه كما قيل: نالق البرق نجدياً فقلت له ❖❖❖ إليك عني فإني عنك مشغوا

يعني رحمه الله مشغول بما هو أهم من التحقق في اللغة العربية وإلا فهو - شيخ الإسلام - رحمه الله آية في اللغة العربية، لما قدم مصر اجتمع بأبي حيان المصري الشهير صاحب «البحر المحيط» في التفسير، وكان أبو حيان يثنى على شيخ الإسلام عطرًا، ويمدحه بقصائد عصامية، ومن جملة ما يقول فيه:

(١) الكناش - بضم الكاف - وتخفيف النون، وشين معجمة، على وزن (غراب)، لفظ سرياني، بمعنى: المجموعة، والمذكّرة. وانظر: «التراتييب الإدارية»: (٢/ ٢٧٠).

قام ابن تيمية في نصر شريعتنا ❖❖❖ مقام سيّد يتم إذ عصت مُضر
يعني أبي بكر يوم الردة. فلما قدم مصر شيخ الإسلام اجتمع بهذا الرجل - أبي
حيان - وتناظر معه في مسألة نحوية واحتج عليه أبو حيان بقول سيبويه في كتابه
قال إن سيبويه في كتابه قال كذا وكذا. فكيف تخالفه؟
فقال له شيخ الإسلام: «وهل سيبويه نبي النحو؟!» يعني: حتى يجب عليه
اتباعه، ثم قال: «لقد غلط في الكتاب في أكثر من ٨٠ موضعاً لا تعلمها أنت ولا
هو». سبحان الله!! هكذا يقول لسيد النحلة.

يقال: إن أبا حيان بعد ذلك أخذ عليه وصار بنفسه فأنشأ قصيدة يهجو فيها
عفا الله عنا وعنهم جميعاً. المهم أن كتاب «بدائع الفوائد» من أجمل الكتب، فيه
فوائد لا تجدّها في غيره.

وعليه، فقيّد العلم بالكتاب^(١)، لاسيّما بدائع الفوائد في غير مظانّها،
وخبائيا الزوايا في غير مساقها، ودرراً منشورة تراها وتسمعها تخشى فواتها ..
وهكذا، فإنّ الحفظ يضعف، والنسيان يعرض.
قوله: «لاسيما بدائع» الأفصح في هذا أن تكون مرفوعة بعد لاسيما، يجوز
النصب ولكن الأحسن الرفع.

ومعنى الكلام: أنه يحث على كتابة هذه الأشياء، بدائع الفوائد التي تعرض
للإنسان حتى لا ينساها وكذلك أيضاً ولاسيما إذا كانت في غير مظانها لأنك أحياناً
تبحث عن مسألة تظنّها مثلاً في باب الصيد وهي مذكورة في مكان آخر، فإذا ذكرت
في مكان آخر فقيدها، وكذلك أيضاً «خبائيا الزوايا في غير مساقها» وهي بمعنى الجملة

(١) وقد صحّ نحو هذا الأمر مرفوعاً إلى النبي ﷺ فانظره في «السلسلة الصحيحة»: (رقم ٢٠٢٦).

الأولى. و«درر منشورة تراها» وتسمعها تخشى فواتها. وهذه أيضاً مسائل تعرض لك أو
تعرض في كتب أهل العلم وهي منشورة، فهذه يجب أن تجمعها وتجعلها في كتاب.

قال الشَّعْبِيُّ: «إذا سمعت شيئاً، فاكتبه، ولو في الحائط». رواه خيثمة.

وإذا اجتمع لديك ما شاء الله أن يجتمع، فرتّبها في (تذكرة) أو (كنّاش) على
الموضوعات، فإنّه يسعّفك في أضيق الأوقات التي قد يعجز عن الإدراك فيها
كبار الأثبات.

وهل الأولى أن ترتبها على الموضوعات أو أن ترتبها على ألف باء؟ نرى أنه على
الف باء أحسن، وذلك لأن ترتيبها على الموضوعات تختلف فيه كتب العلماء، تجد
مثلاً: ترتيب الحنابلة يفترق عن الشافعية لاسيما في المعاملات، بل إن نفس المذهب
الواحد يختلف ترتيبه. ترتيب المتقدمين منهم والمتأخرين.

٢٨. حفظ الرعاية:

ابذل الوسع في حفظ العلم (حفظ رعاية) بالعمل والاتباع، قال الخطيب
البغدادي رحمه الله تعالى^(١): «يجب على طالب الحديث أن يخلص نيته في
طلبه، ويكون قصده وجه الله سبحانه. وليحذر أن يجعله سبيلاً إلى نيل
الأعراض، وطريقاً إلى أخذ الأعواض، فقد جاء الوعيد لمن ابتغى ذلك بعلمه.

جاء الوعيد لمن طلب علماً وهو ما يتغي به وجه الله لم يجد عرف الجنة، أي
ريحها، وما ذكره الخطيب البغدادي - رحمه الله - حق أن يخلص الإنسان النية في
طلب العلم بأن ينوي امتثال أمر الله تعالى والوصول إلى ثواب طلب العلم وحماية

(١) «الجامع» للخطيب: (١/٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ١٤٢).

الشرعة والذَّب عنها ورفع الجهل عن نفسه ورفع الجهل عن غيره، كل هذه تدل على الإخلاص، ولا يكون قصده نيل الأعراض كالجاه والرئاسة والمرتبة، أو طريقاً إلى أحد الأعراض كالمرتبات لا يريد هذا.

فإذا قال قائل: كل الذين يطلبون العلم في الكليات إنما يقصدون الشهادة ولذلك يرى بعضهم يريد الوصول إلى هذه الشهادات ولو بالباطل كالشهادات المزيفة والغش وما أشبه ذلك. فيقال يمكن للإنسان أن يريد الشهادة في الكلية مع إخلاص النية وذلك أن يريد بها الوصول إلى منفعة الخلق لأن مَنْ لم يحمل الشهادة لا يتمكن من أن يكون مدرساً أو مديراً أو ما أشبه ذلك مما يتوقف على نيل الشهادة.

فإذا قال: أنا أريد أن أنال الشهادة لأتمكن من التدريس في الكلية مثلاً، ولولا هذه الشهادة ما درّست. أريد الشهادة لأن أكون داعية، لأننا في عصر لا يمكن أن يكون الإنسان فيه داعياً إلى الله إلا بالشهادة.

فإذا كانت هذه نية الإنسان فهي نية حسنة لا تضر إن شاء الله هذا في العلم الشرعي. أما في العلم الدنيوي فانو فيه ما شئت مما أحله الله. لو تعلم الإنسان الهندسة وقال أريد أن أكون مهندساً ليكون الراتب ١٠ آلاف ريال. فهل هذا حرام؟ لا... لماذا؟ لأن هذا علم دنيوي، كالتاجر يتاجر من أجل أن يحصل على ربح.

وَلْيَتَّقِ الْمُفَاخَرَةَ وَالْمُبَاهَاةَ بِهِ، وَأَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ نَيْلَ الرِّئَاسَةِ، وَاتِّخَاذَ الْأَتْبَاعِ، وَعَقْدَ الْمَجَالِسِ، فَإِنَّ الْأَفْهَ الدَّاخِلَةَ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَكْثَرُهَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وقد جاء الوعيد فيمن طلب ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء^(١). فأنت لا تقصد بعلمك المفاخرة والمباهاة، وأن يكون قصدك أن تصرف وجوه الناس إليك وما

(١) من حديث كعب بن مالك: «من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار» الحديث رواه الترمذي (٢٦٥٤) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

أشبه ذلك. هذه نيات سيئة، وهي ستحصل لك مع النية الصالحة إذا نويت نية صالحة، صرت إماماً، صرت رئيساً يشير الناس إليك وأخذوا بقولك.

وَلْيَجْعَلْ حِفْظَهُ لِلْحَدِيثِ حِفْظَ رِعَايَةٍ لَا حِفْظَ رَوَايَةٍ، فَإِنْ رَوَاةُ الْعُلُومِ كَثِيرٌ وَرِعَايَتُهَا قَلِيلٌ، وَرُبَّ حَاضِرٍ كَالْغَائِبِ، وَعَالَمٍ كَالْجَاهِلِ، وَحَامِلٍ لِلْحَدِيثِ لَيْسَ مَعَهُ مِنْهُ شَيْءٌ إِذَا كَانَ فِي اطِّرَاحِهِ لِحُكْمِهِ بِمَنْزِلَةِ الذَّاهِبِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ.

ومعنى «رعاية» أن يفقه الحديث ويعمل به ويبينه للناس، لأن مجرد الحفظ بدون فقه للمعنى ناقص جداً، وقد قال النبي ﷺ: «رُبَّ مَبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»^(١). والمقصود بالأحاديث أو القرآن الكريم هو فقه المعنى حتى يعمل به الإنسان ويدعو إليه، ولكن الله سبحانه وتعالى بحكمته جعل الناس أصنافاً، منهم راوي فقط ولا يعرف من المعنى شيئاً إلا شيء واضح بين لا يحتاج الناس إلى مناقشته فيه، لكنه في الحفظ والثبات قوي جداً، ومن الناس من أعطاه الله فهماً وفقهاً لكنه ضعيف الحفظ إلا أنه يفجر ينابيع العلم من النصوص إلا أنه ضعيف الحفظ، ومن الناس من يعطيه الله الأمرين: قوة الحفظ وقوة الفقه، لكن هذا نادر، وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لما أتاه الله تعالى من العلم والحكمة مطر أصاب أرضاً فصارت الأرض ثلاثة أقسام:

قسم - قيعان ابتلعت الماء ولم تنبت الكلاً، فهذا مثل من أتاه الله العلم والحكمة ولكنه لم يرفع به رأساً ولم ينتفع به ولم ينفع به غيره.

والقسم الثاني - أرض أمسكت الماء ولكنها لم تنبت الكلاً. هؤلاء من الرواة، أمسكوا الماء فسقوا الناس واستقوا وزرعوا، لكن هم أنفسهم ليس عندهم إلا حفظ هذا الشيء.

(١) جزء من حديث رواه أحمد (٤٣٧/١) والترمذي (٢٦٥٧).

والأرض الثالثة - أرض رياض قبلت الماء فأنبئت العشب والكلأ فانتفع الناس وأكلوا وأكلت مواشيهم. وهؤلاء الذين من الله عليهم بالعلم والفقه، فنفعوا الناس وانتفعوا به.

وينبغي لطالب الحديث أن يتميز في عامة أموره عن طرائق العوام باستعمال آثار رسول الله ﷺ ما أمكنه، وتوظيف السنن على نفسه، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سورة الأحزاب: ٢١). أهـ.

«ينبغي» أحياناً يراد بها الوجوب، لكن الشائع في استعمالها أنها للندب. وهذا في الأمور التعبدية ظاهر. أنه ينبغي للإنسان أن يتميز باستعمال آثار رسول الله ﷺ في الأمور الاتفاقية التي وقعت اتفاقاً من غير قصد هل يشرع أن يتبعها الإنسان أم لا؟ كان ابن عمر رضيه الله عنهما وعن أبيه يتبع ذلك، حتى أنه يتحرى المكان الذي نزل فيه الرسول ﷺ وبال فيه، فتزل ويبول. وإن لم يكن محتاجاً للبول.

كل هذا من شدة تحريه لاتباع الرسول ﷺ لكن هذا قد خالفه أكثر الصحابة فيه وراوا أن ما وقع اتفاقاً فليس بمشروع اتباعه للإنسان. ولهذا لو قال قائل: أيسن لنا الآن ألا نقدم مكة في الحج إلا في اليوم الرابع لأن الرسول ﷺ قدم في اليوم الرابع؟ الصحيح أنه لا يشرع. لأنه من الاتفاق لا ضرورة.

ما وقع عادة فهل يشرع لنا أن نتبعه فيه؟ مثلاً: العمامة والرداء والإزار. نقول: نعم يشرع أن نتبعه فيه.

لكن ما معنى الاتباع. هل معناه اتباعه في عين ما لبس؟ أو اتباعه في جنس ما لبس؟ الجواب: الثاني. لأنه ليس ما اعتاده الناس في ذلك الوقت.

وعلى ذلك نقول: السنة لبس ما يعتاده الناس، ما لم يكن محرماً، فإن كان محرماً وجب اجتنابه.

ما وقع على سبيل التشبه فهل نتبعه فيه. كان عليه الصلاة والسلام يحب الحلوى، يحب العسل، يتبع الدباء في الأكل. هل نتبعه في ذلك.

قال أنس رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يتبع الدباء - يعني القرع - في الطعام، فمازلت أتبعها منذ رأيت النبي ﷺ يتبعها.

وعلى هذا فهل نقول من المشروع أنك تتبع الدباء، لأن النبي ﷺ يتبعه أم لا؟ الظاهر أن هذا الاتباع فيه أخرى من الاتباع فيما سبقه - وهو ما وقع اتفاقاً - لأن هذا لم يقع اتفاقاً، حيث أننا نعلم أن الرسول ﷺ حين يتبعها أنه يتبعها قصداً لا اتفاقاً، ولا شك أن الإنسان إذا تتبع الدباء من على ظهر القصعة وهو يشعر أنه يفعل كما فعل الرسول ﷺ لا شك أن هذا يوجب له محبة لرسول الله ﷺ واتباع آثاره. حيث نقول: إذا تتبعنا هذا فإنك على الخير، وقد يكون في الدباء منفعة طبية، سهل وتلين وتكون قُدماً للطعام.

قوله «باستعمال آثار» هذه العبارة فيها شيء من الركاكة، ولو قال «باتباع آثار» ما عبر بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية قال: من أصول أهل السنة والجماعة اتباع آثار النبي ﷺ ظاهراً وباطناً. وهذا هو اللفظ المطابق للقرآن. ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (سورة آل عمران: ٣١). أما استعمال الآثار فقد يتوهم واحد أن استعمال ثيابه وعمامته وما أشبه ذلك. لكن إذا قلنا اتباع آثار كان ذلك أحسن وأوضح.

وقوله: «توظيف السنن على نفسه» يراد بذلك أن يطبق توظيفها، بمعنى تطبيق السنن على نفسه لأن الله يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سورة الأحزاب: ٢١). ولم ذكر آخر الآية لكان أحسن ما هي ﴿لَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (سورة الأحزاب: ٢١).

٢٩. تعاهد المحفوظات:

تعاهد علمك من وقت إلى آخر، فإن عدم التعاهد عنوان الذهاب للعلم مهما كان. عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها، أمسكها، وإن أطلقها، ذهبت». رواه الشيخان، ومالك في «الموطأ»^(١).

لو عبر بقوله: «فإن عدم التعاهد سبب لذهاب العلم» لكان أولى لقول النبي ﷺ: «تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها»^(٢). فيدل ذلك على أن عدم التعاهد سببه النسيان، وليس عنواناً لذهاب العلم، لأن عنوان الشيء يكون بعد الشيء.

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: «وفي هذا الحديث دليل على أن من لم يتعاهد علمه، ذهب عنه أي من كان، لأن علمهم كان ذلك الوقت القرآن لا غير، وإذا كان القرآن الميسر للذكر يذهب إن لم يتعاهد، فما ظنك بغيره من العلوم المعهودة؟ وخير العلوم ما ضيبت أصله، واستذكر فرعه، وقاد إلى الله تعالى، ودل على ما يرضاه» أهـ.

هذا فيه دليل على أن من لم يتعاهد علمه ذهب عنه. وهذا واضح، أن من لم يتعاهد حفظه نسيه، وكما أن هذا في المعقول، هو أيضاً في المحسوس، فمن لم يتعاهد الشجرة بالماء تموت أو تذبل، وكذلك من لم يتعاهد أغصانها تتكاثر ويفسد بعضها بعضاً فلا يستقيم وكذلك العلوم.

(١) «التمهيد»: (١٣٣/١٤ - ١٣٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠٣١). ومسلم (٧٨٩). ومالك في كتاب القرآن (١٥) باب (٤) حديث (٦).

وقال بعضهم^(١): «كل عز لم يؤكد بعلم، فإلى دل مصيره» أهـ.

٣٠. التفقه بتخريج الفروع على الأصول:

من وراء الفقه: التفقه، ومُعْتَمَلُهُ هو الذي يُعْلَقُ الأحكام بمداركها الشرعية.

وفي حديث ابن مسعود^(٢): «أن رسول الله قال: «نَضَّرَ الله امرءَ سَمِعَ

مقائلي فحفظها، ووعاها، فأداها كما سمعها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

التفقه، يعني طلب الفقه، والفقه ليس العلم. بل هو إدراك أسرار الشريعة. وكم من سان عنده كثير ولكنه ليس بفقيه، ولهذا حذر ابن مسعود رضي الله عنه من ذلك فقال: «كيف لكم إذاكثر قراؤكم وقل فقهاؤكم».

الفقيه هو العالم بأسرار الشريعة وغاياتها وحكمها حتى يستطيع أن يرد الفروع الشاردة إلى الأصول الموجودة، ويتمكن من تطبيق الأشياء على أصولها، فيحصل له ذلك خير كثير.

قال: «نَضَّرَ الله...» نَضَّرَ بمعنى: حسنه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةً﴾ سورة القيامة: (٢٢). أي: حسنه، وقوله تعالى: ﴿فَوْقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً سُرُورًا﴾ (سورة الإنسان: ١١). نضرة: يعني حسناً في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، مجتمع لهم حسن الظاهر والباطن. لأن الإنسان قد يغتم قلبه، ووجهه قد أعطاه الله سارة لكن سرعان ما تزول. ومن الناس من يكون قلبه مسروراً لكن لم يعطه الله سارة الوجه، ومن الناس من يحصل له الأمران: السرور في القلب ونضارة في وجهه. وبذلك تتم النعمة.

(١) «شرح الإحياء»: (٩٣/١).

(٢) رواه أحمد (٤٣٧/١).

قال ابن خَيْر^(١) - رحمه الله تعالى - في فقه هذا الحديث: «وفيه بيان أن الفقه هو الاستنباط والاستدراك في معاني الكلام من طريق التفهيم، وفي ضمنه بيان وجوب التفقه، والبحث على معاني الحديث، واستخراج المكنون من سره» أهـ. وللشَيْخَيْن، شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم الجوزية رحمهما الله تعالى، في ذلك القِدْحُ المَعْلَى، وَمَنْ نَظَرَ فِي كُتُبِ هَذَيْنِ الإِمَامَيْنِ، سَلَكَ بِهِ النَّظْرُ فِيهَا إِلَى التَّفَقُّهِ طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا.

لا شك أن ما ذكره - وفقه الله - هو الصواب؛ أن الفقه هو استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة^(٢). لكن لا ينبغي أن يقتصر على الحديث، بل نقول من الأدلة في القرآن والسنة ودلالات القرآن أقوى من دلالات السنة وأثبت، لأنه لا يعتريه عيب النقل بالمعنى، وأما السنة فهي تنقل بالمعنى. وعلى هذا فيقال: «بالبحث عن معاني القرآن والحديث».

وَمِنْ أَحْسَنِ مَنْ رَأَيْتُ فِي اسْتِخْرَاجِ الْأَحْكَامِ مِنْ آيَاتِ شَيْخِنَا - رحمه الله - عبد الرحمن بن سعدي، فإنه يستخرج - أحياناً - من الآيات من الفقه ما لا تراه في كتاب آخر، وهذا الطريق - أعني طريق استنباط الأحكام من القرآن والسنة - هو طريق الصحابة، فما كانوا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلمونها، وما فيها من العلم والعمل.

(١) في «فهرسته»: (ص ٩).

(٢) انظر غير مأمور في تعريف الفقه: المعتمد (٨/١)، شرح اللمع (٥٨/١)، الأحكام للأمام (٧/١)، شرح العضد (٢٥/١)، الحدود (ص ٣٥)، معراج المنهاج (٣٩/١)، الإبهاج (٨/١)، نهاية السؤل (١٩/١)، البحر المحيط (٢١/١)، القواعد والفوائد الأصولية (ص ٤)، البرهان (٨٥/١)، المستصفى (٤/١)، شرح الورقات للدمياطي (ص ٣).

ثم أشار الشيخ بكر إلى شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم - رحمهم الله - وبيان ما وصلان إليه من الأحكام الكثيرة من الأدلة القليلة، وقد أعطاهما الله فهماً عجباً في القرآن والسنة.

ونضرب مثلاً لهذا - أعني التفقه - ، أن العلماء اتخذوا الحكم بأن أقل مدة حمل ستة أشهر من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (سورة الأحقاف: ١٥). من قوله: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ (سورة لقمان: ١٤). فإن ثلاثين شهراً، عامان وستة أشهر، فإذا كان حمل وفصاله ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وفي الآية الأخرى ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ لزم أن يكون الحمل أقله ستة أشهر.

وَمِنْ مَلِيحِ كَلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ - رحمه الله تعالى - قوله في مجلس للتفقه^(١): «أما بعد، فقد كنّا في مجلس التفقه في الدين، والنظر في مدارك الأحكام المشروعة، تصويراً، وتقريراً، وتأسيساً، وتفصيلاً، فوقع الكلام في ... فأقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا مبني على أصل وفصلين ...».

واعلم أرشدك الله أن بين يدي التفقه: (التفكير)^(٢)، فإن الله سبحانه وتعالى دعا عباده في غير ما آية من كتابه إلى التحرك بإجالة النظر العميق في (التفكير) في ملكوت السموات والأرض، وإلى أن يمعن المرء النظر في نفسه، وما حوله، فتحاً للقوى العقلية على مصراعَيْها، وحتى يصل إلى تقوية الإيمان، وتعميق الأحكام، والانتصار العلمي: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢١٩)، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٥٠).

(١) «مجموع الفتاوى»: (٢١/٥٣٤).

(٢) «مفتاح دار السعادة»: (ص ١٩٦-٣٢٤)، و«مدارج السالكين»: (١/١٤٦)، و«التفسير الإسلامي للتاريخ» لعبد الدين خليل (ص ٢١٠-٢١٥).

وعليه، فإن «التفقه» أبعد مدى من (التفكير)، إذ هو حصيلته وإنتاجه، وإلا:
﴿فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ (سورة النساء: ٧٨). لكن هذا التفقه
 محجوز بالبرهان، محجوز عن التشهي والهوى: **﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي
 جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾** (سورة البقرة: ١٢٠).



إذاً نقول: المراتب، أولاً - العلم، ثم الفهم، ثم التفكير، ثم التفقه. لا بد من
 هذا، فمن لا علم عنده كيف يتفقه؟ وكيف يعلم... من عنده علم وليس عنده
 فهم.. كيف يتفقه؟ حتى لو حاول أن يتفقه وهو مما لا يفهم لا يمكن ذلك. بعد أن
 تفهم.. تتفكر ما مدلول هذه الآيات؟ ما مدلول هذا الحديث؟ وتتفكر أيضاً في أنواع
 الدلالة، وأنواع الدلالة ثلاثة^(١):

دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام.

فدلالة اللفظ على جميع معناه، دلالة مطابقة.

ودلالته على بعض معناه، دلالة تضمن.

ودلالته على لازم خارج، هذه دلالة التزام.

وهذا النوع الثالث من الدلالة هو الذي يختلف فيه الناس اختلافاً عظيماً، إذ
 قد يلتزم بعض الناس من الدليل ما لا يلزم، وقد يفوته ما يلزم. وبين ذلك تفاوت
 عظيم، فلا بد أن يعمل هذه الدلالات حيث يوصل إلى درجة التفقه واستنباط
 الأحكام من أدلتها.

(١) انظر غير مأمور في تعريف وأنواع الدلالة:

كشاف اصطلاحات الفنون (٢/٢٨٤)، التعريفات (١٣٩)، الأحكام للأمدى (١/١٩)، سلاسل
 الذهب (ص ١٦٤)، البحر المحيط (١/٣٠٠)، ميزان العلوم للشيخ عبد السلام القويني (ص ١٠٠)
 (١٢)، القاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين (ص ١٢٠).

ويذكر أن الشافعي رحمه الله نزل ضيفاً على الإمام أحمد بن حنبل - وأحمد
 للميد الشافعي وكان يثنى عليه عند أهله - فقدم له العشاء فأكله كله ورد الصفحة^(١).
 حالية، فتعجب أهل أحمد كيف يأكل الطعام كله، والسنة أن الإنسان يأكل قليلاً.
 حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث
 لنفسه^(٢). لكن الشافعي أكل كل الطعام. هذه واحدة ثم إن الإمام أحمد انصرف إلى
 أهله ونام الشافعي فلما كان في آخر الليل قام يتهجد ولم يطلب ماءً يتوضأ به، أو
 اظنه أنه لم يقيم يتهجد، ثم أذن الفجر فخرج إلى الصلاة ولم يطلب ماءً
 للتوضوء، هذه اثنتان.

فلما أصبح قال أهل الإمام أحمد له كيف تقول في الشافعي ما تقول، والرجل
 أكل الطعام ونام وقام ولم يتوضأ كيف إذا؟

قال: «أتيتكم بالخبر..» فسأله. قال: فأما الطعام فلا أجد أحلّ من طعام الإمام
 أحمد بن حنبل فأردت أن أملأ بطني منه، أما كوني لم أتهدج فلأن التفكير في العلم
 أفضل من التهجد، وأنا جعلت أفكر في العلم واستنبط من قول الرسول ﷺ: «يا أبا
 عمير ما فعل النغير»^(٣). كذا وكذا ما أدري قال: مائة، أو ألف.

أما كوني لم أطلب ماءً وأن خارج لصلاة الفجر، فلم أشأ أن أطلب ماءً وأنا
 على وضوء. فذكر ذلك لأهله. فقالوا: الآن !!

(١) الصفحة، أكبر من القصعة وهي ما تشبع نحو من خمسة.
 (٢) أخرج أحمد (٤/١٣٢). والترمذي (٢٣٨٠). وابن المبارك في الزهد (٦٠٣).
 (٣) أخرجه البخاري (٦١٢٩)، والنغير: طير صغير.

فهي أيها الطالب! تحلّ بالنظر والتفكير، والفقه والتفقه، لتلك أن تتجاوز من مرحلة الفقيه إلى (فقيه النفس) كما يقول الفقهاء، وهو الذي يعلّق الأحكام بمداركها الشرعية، أو (فقيه البدن) كما في اصطلاح المحدثين^(١).

هناك فقه ثالث ظهر، وهو فقه الواقع الذي علّق عليه بعض الناس العلم. وقالوا: من لم يكن فقيهاً للواقع فليس بعالم، ونسوا أن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٢). ثم غفلوا عن كون الإنسان يشغل بفقه الواقع أن ذلك يشغله عن فقه الدين، بل ربما يشغله عن الاشتغال بالتعبّد الصحيح، عبادة الله وحده وانصراف القلب إلى الله والتفكير في آياته الكونية والشرعية. والحقيقة أن انشغال الشباب بفقه الواقع صدّ لهم عن الفقه في دين الله، لأن القلب إذا امتلأ بشيء امتنع عن الآخر.

فانشغال الإنسان بالفقه في الدين وتحقيق العبادة والدين والإخلاص خيرٌ له من البحث عن الواقع، وماذا فعل فلان؟ وماذا فعل فلان، وربما يتلقون فقه الواقع من روايات ضعيفة أو موضوعة في وسائل الإعلام المسموعة أو المقرّوة أو المرئية أو يبنون ما يظنون فقه واقع على تقديرات وتخمينات يقدرها الإنسان، ثم يقول هذا فعلٌ لهذا، ويعلل بتعليلات قد تكون بعيدة من الواقع.

أو ينظر إلى أشياء خطط لها أعداؤنا من قبل على واقع معين، تغير الواقع وزال بالكلية فبقيت هذه الخطط لا شيء.

(١) وانظر عن قولهم: «فقيه البدن»، «معالم الإيمان»: (٣٣٦/٢، ٣٤٠) و«الثقات» لابن حبان: (٢٤٢/٩).

(٢) سبق تخريجه.

والمهم أن فقه النفس، الذي هو صلاح القلب والعقيدة السليمة ومحبة الخير للمسلمين وما أشبه ذلك هذا يبنني عليه فقه البدن: معرفة هذا القول حلال أم حرام. هذا الفعل حلال أم حرام.

فأجل النظر عند الواردات بتخريج الفروع على الأصول، وتمام العناية بالقواعد والضوابط. وأجمع للنظر في فرع ما بين تتبّعه وإفراغه في قالب الشريعة العام من قواعد وأصولها المطردة، كقواعد المصالح، ودفع الضرر والمشقة، وجلب التيسير، وسدّ باب الحيل، وسدّ الذرائع.

لابد لطالب العلم من أصول يرجع إليها، والأصول ثلاثة: الأدلة من القرآن والسنة والقواعد والضوابط المأخوذة من الكتاب والسنة.

والمهم أن يكون لدى الإنسان علم بالقواعد والضوابط حتى يُنزل عليها الجزئيات. والفرق بين القاعدة والضابط^(١):

أن الضابط يكون لمسائل محصورة معينة. والقاعدة أصل يتفرع عليه أشياء كثيرة.

فالضابط أقل رتبة من القاعدة، كما يدل ذلك اللفظ، الضابط يضبط الأشياء ويجمعها في قالب واحد. والقاعدة أصل تفرع عنه الجزئيات.

قوله: «فأجل النظر عند الواردات بتخريج الفروع على الأصول، وتمام العناية بالقواعد والضوابط» هذا من أهم ما يكون، أن الإنسان يجعل نظره أي فكره يتجول بتخريج

(١) انظر في ذلك: الأشباه والنظائر لابن نجيم/ ١٩٢، والكلّيات/ ٧٢٨، هداية العقول (٣٦/١)، التعريفات/ ٢١٩، شرح الكوكب المنير (١٣/١)، المحلى على شرح جمع الجوامع (٢١/١).

الفروع على الأصول حتى يتمرن، لأن بعض الناس قد يحفظ القاعدة كما يحفظ الفاتحة ولكن لا يعرف أن يُخرج عليها. وهذا لاشك نقص في التفكير. فلا بد من أن يجتهد ويُجِيل نظره بتخريج القواعد على الأصول.

قوله: «وأجمع للنظر في فرع ما بين تتبعه وإفراغه في قالب الشريعة العام..» وهذا أيضاً مهم عند أهل الحديث. يأتي مثلاً نص ظاهره. الحكم بكذا لكن إذا تأملت في هذا النص وجدته مخالفاً للقواعد العامة من الشريعة، فما موقفك؟

نقول: لا بد أن نرجع إلى القواعد، ويُحكم على هذا بما تقتضيه الحاجة. وكذلك قال العلماء فيما لو خالف الإنسان الثقة الثبت من هو أرجح منه، فإن حديثه هذا - وإن كان من حيث النظر إلى مجرد الطريق نحكم بصحته - نقول: إن هذا غير صحيح. لماذا؟ لأنه شاذ. والذي أوجب لكثير من المبتدئين في طلب العلم أن يسلكوا مسلكاً شاذاً هو هذا. أعني عدم النظر إلى القواعد والأصول الثابتة. وهذا أمر مهم، وذلك لأن الشريعة إنما جاءت لجلب المصالح الدينية والدنيوية ولدرء المفسدات أو تقليلها، سواء كانت المفسدات دينية أو دنيوية، ولهذا تجد أن الله عز وجل يقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة شرعاً وقدرًا.

تنزل الأمطار على الأرض، وهذا رجل تم بُنيانه قريباً. هل يضره المطر أو لا؟ نعم يضره، لكن لا عبرة. لأن العبرة بالعموم.

وكذلك تنزل وهذا الرجل قد انتهى من السقي، والمعروف أن الزرع إذا أصابه الماء، مطراً كان أو سُقي بعد الانتهاء من سقيه أنه يضره لكن العبرة بالعموم.

فهذه مسائل ينبغي لطالب العلم أن يتبها لها، ولهذا قال الشيخ بكر رحمه الله ووفقه الله «وأصولها المطردة كقواعد المصالح».

وهنا نقف لنبين أن بعض الأصوليين أتى بدليل خامس: وهو المصالح المرسلات^(١). فقال: الأدلة هي القرآن والسنة والقياس الصحيح والمصالح المرسلات.

وهذا غلط لأن هذه المصالح الذين يدعون أنها - مصالح مرسلات - إن كان الشرع قد شهد لها أنها مصالح مرسلات فهي من الشرع داخلة في عموم الشرع: كتاب أو سنة قياس كان أو إجماع، وإن لم تكن فيها مصالح شرعية فهي باطلة فاسدة الاعتبار، وحينئذ لا تؤصل أصلاً، دليلاً ندين الله بالتعبد به بدون دليل من القرآن والسنة. لأن كونك تؤصل أصلاً يعني أنك تبني دينك على هذا.

وعلى هذا فتمسح أو فتنسخ ذكر المصالح المرسلات من الأدلة. لماذا؟ لأننا نقول: إن شهد الشرع بهذه المصلحة فهي ثابتة بالكتاب والسنة بعموميتها وقواعدها، وإن شهد بطلانها فهي باطلة.

الآن من أهل البدع من ركب بدعته على هذا الدليل. قال: هذا من المصالح المرسلات. فالإنسان يحيي قلبه ويحركه بماذا؟ ببدعة صوفية وما أشبه ذلك وقال: نحن نظمئن الآن إذا أتينا بهذه الأذكار وعلى هذه الصفة ويضرب الأرض حتى تغبر قدماء. قال: هذه مصلحة عظيمة تحرك القلوب.

ماذا نقول: لو قلنا باعتبار المصالح المرسلات كل واحد يدعي أن هذه مصلحة وأصل النزاع الذي أمر الله فيه بالرد إلى الكتاب والسنة أصله أن كل واحد يرى أن كل ما عليه مصلحة، وربما يماري ليكون قوله المقبول.

(١) انظر المصلحة المرسلات: شرح تنقيح الفصول (ص ٤٤٥)، المستصفى (١/ ٢٨٤)، الروضة (ص ١٦٩)، المحصول (٢/ ٢١٩)، نهاية السؤل (٣/ ١٣٦)، أصول مذهب الإمام أحمد (٤١٣) شفاء الغليل (ص ٢١١)، الاعتصام (٢/ ١١١)، إرشاد الفحول (ص ٢٤١) الإبهاج (٣/ ١٧٨)، مختصر ابن الحاجب مع شرح العضد (٢/ ٢٨٩)، أثر الأدلة المختلف فيها (٤١) للدكتور مصطفى البنا.

المهم أن قول الشيخ بكر «كقواعد المصالح» مراده بذلك المصالح الشرعية، فإن كان هذا مراده فهو حق، وإن كان يريد المصالح المرسلة فهو بعيد، لأنه قال بعد ذلك «ودفع الضرر والمشقة»، إن كان يشير إلى المصالح المرسلة فقد علمت فساد ما يجعلها دليلاً مستقلاً.

وقوله: «ودفع الضرر» أين نجد من القرآن والسنة دفع الضرر؟ كثير، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (سورة النساء: ٢٩). وهذه الآية تعم قتل النفس مباشرة بأن ينتحر الإنسان أو فعل ما يكون سبباً للهلاك، ولهذا استدل عمرو بن العاص رضي الله عنه بهذه الآية على التيمم خوفاً من البرد، مع أن البرد قد لا يميت الإنسان، ولكن قد يكون سبباً لموته، استدل بها، فأقره النبي ﷺ على ذلك وضحك.

هذا من القرآن. وأيضاً من القرآن قوله تعالى: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ (سورة المائدة: ٦). الشاهد قوله: ﴿مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ لماذا يتيمم وهو مريض، يقدر أن يستعمل الماء؟ لكن لثلاثا يزداد مرضه أو يتأخر برأه.

ومن دفع المشقة أن النبي ﷺ رأى زحاما وهو في السفر، ورجلا قد ظلل عليه. فقال: ما هذا؟ قالوا: صائم. قال: «ليس من البر الصيام في السفر»^(١). مع أن الرسول ﷺ يصوم وهو مسافر، وهل يفعل غير البر؟! لا لكن إذا وصلت الحال من المشقة فإنه ليس من البر، وإذا انتفى أن يكون من البر، فهو إما من الإثم وإما أن يكون من لا لك ولا عليك.

شكّي إلى النبي ﷺ أن الناس عطاش وقد شقّ عليهم الصيام، لكنهم ينظرون متى، فدعا بماء بعد صلاة العصر ووضعه على فخذه الشريفة، وجعل الناس ينظرون

(١) أخرجه البخاري (١٩٤٦) في كتاب الصوم / ومسلم في الصيام (١١١٥/٩٢).

إليه، فأخذه وشرب، والناس ينظرون. ثم قيل له إن بعض الناس قد صام. فقال: أولئك العصاة، أولئك العصاة»^(١).

هل ورد نهى أن يبقوا على صيامهم؟ لا، ولكن العموم ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (سورة النساء: ٢٩). «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» (سورة الحج: ٧٨). إذا الشرع راعي قواعد المصالح ودفع الضرر، دفع المشقة.

قوله: «وجلب التيسير» كل الإسلام تيسير، لكن هل اليسر هو ما تيسر على كل شخص بعينه أو باعتبار العموم؟ باعتبار العموم. ومع ذلك إذا حصل للإنسان ما يقتضي التيسير وجد الباب مفتوحاً: «صل قائماً...»^(٢). إذا هذا تيسير، بل قال رسول الله ﷺ: «إن الدين يسر ولا يُشاد الدين أحداً إلا غلبه»^(٣).

كل الدين يسر، وكان إذا بعث البعوث يقول: «يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنصروا»^(٤) فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»

فالحمد لله. هذا الدين للإنسان دين يسر، وبناء على ذلك هل يعتمد الإنسان على العبادة على وجه يشق عليه أو أن يفعلها على الوجه الأيسر. أيهما أقرب إلى مقاصد الشريعة؟

الثاني، ولهذا لو أن رجلاً في البرد حانت صلاة الفجر وعنده ماء، أحدهما ساخن والآخر بارد.

فقال أنا أريد أن أتوضأ بالماء البارد حتى أنال أجر إسباغ الوضوء على المكاره. وقال الثاني أنا أريد أن أتوضأ بالماء الساخن حتى أوافق مراد الله الشرعي، حيث قال:

(١) أخرجه مسلم (١١١٤).

(٢) أخرجه البخاري (١١١٧) في كتاب تقصير الصلاة/ باب إذا لم يُطق قاعداً صلى على جنب.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩) في كتاب الإيمان/ باب الدين يسر.

(٤) أخرجه مسلم (١٧٣٢/٦).

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ (سورة البقرة: ١٨٥) . أيهما أصوب؟ الثاني بالإجماع بلا شك هو الموافق للشرعة، لأن إسباغ الوضوء على المكاره ليس المراد منه أن يتقصد الإنسان ما يكره. المراد إذا لم يمكن الوضوء إلا بمكره . . يتوضأ هذا معناه.

والا لكان يقول أحجج البيت على قدميك . . . سر من أفغانستان إلى مكة على قدميك، فإن لم تفعل فعلى سيارة خربة، تمشي قليلاً وتقف كثيراً لماذا؟ لأنها أشق. فإن لم تستطع فعلى طائرة. ليس هذا بصحيح!! أيهما أفضل الطائرة لأنها أسهل وأيسر.

وأول ما خرجت الطيارات كنا نُحَدِّث ونحن صغار أن الحج على الطائرة ثمن الحج. وعلى السيارة نصف الحج.

والشاهد على كل حال: جلب التيسير هو الموافق لروح الدين. من هنا نرى أنه إذا اختلف عالمان في رأي، ولم يتبين لنا الأرجح من قولهما لا من حيث الدليل، ولا من حيث الاستدلال، ولا من حيث المستدل.

وأحدهما أشد من الثاني، فمن تتبع الأيسر أم الأشد؟ الأيسر. وقيل الأشد لأنه أحوط. لكن في هذا القول نظر لأننا نقول ما هو الأحوط؟ هل هو الأشد على بني آدم أم هو الموافق للشرع؟ الثاني. . . ما كان أوفق للشرع.

ثم قال: «وسد الحيل وسد الذرائع». إن هذه الأمة اتبعت سنن من كان قبلها في مسألة الحيل، وأشد الناس حياءً ومكرًا هم اليهود، وهذه الأمة فيها من تشبه باليهود وتحابلوا على محارم الله.

والحيلة: أصلها حوكة من حال يحول. هذا في اللغة.

أما في الشرع والإصطلاح: هي التوصل إلى إسقاط واجب أو انتهاك محرم بما طاهره الإباحة^(١).

مثال ذلك: رجل سافر في نهار رمضان، قصده أن يفطر في رمضان وليس له قصد في السفر إلا أن يفطر. ظاهر فعله أنه حلال، لكن أراد بذلك إلى إسقاط واجب وهو الصوم.

مثال آخر: رجل تزوج بمطلقة صاحبه ثلاثاً، ورآه محزوناً عليها فذهب وتزوجها من أجل أن يحللها للزوج الأول - الذي هو صاحبه - ليس له غرض في المرأة، وإنما يريد أن يجامعها ليلة ثم يدعها.

نقول: هذا تحيل على محرم، لأن هذه المرأة لا تحل لزوجها الأول الذي طلقها ثلاثاً وأراد أن يحللها له.

(١) تنقسم الحيلة إلى ثلاثة أقسام:

الأول - ما لا خلاف في بطلانه، كحيل المنافقين والمرائين. ومثال ذلك: ما سجله القرآن الكريم على المنافقين الذين اتخذوا مسجد الضرار. (انظر تفسير الآيات ١٠٧-١١٠ من سورة التوبة). وأيضاً الحيل على أخذ أموال الناس بالباطل وجعل ما ليس بشعري لابساً المظهر الشرعي. ومن ذلك قوله ﷺ: «لا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة». أخرجه البخاري (١/١٥٢) فهذا نهي عن الاحتيال لإسقاط الواجب أو تقليبه، وقوله ﷺ: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود والنصارى يستحلون محارم الله بادن الحيل». أخرجه ابن بطه في إبطال الحيل برقم (٤٢) وانظر الضعيفة (٤١٦)، فهذه الحيل وأمثالها لا يستريب مسلم في أنها حرام من كبائر الإثم وأقبح المحرمات، وهي من التلاعب بدين الله.

الثاني - ما لا خلاف في جوازه كالنطق بكلمة الكفر حالة الإكراه. قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة النحل: ١٠٦). قال ابن القيم: فهذه وأمثالها هي الحيل التي أباحتها الشريعة وهي تحيل الإنسان بفعل المباح على تخلصه من ظلم غيره وأذاه، لا الاحتيال على إسقاط فرائض الله واستباحة محارمه.

الثالث - ما لم يتبين بدليل قاطع موافقته لمقصد الشارع أو مخالفته، وهذا محل خلاف بين العلماء. انظر: الموافقات (٢/٣٨٢) و(٤/٢٠١) وإعلام الموقعين (٣/١٤٣) و(٣/٢٩١) والطرق الحكيمة (٤١)، قاعدة سد الذرائع (٧٢) للدكتور محمود حامد عثمان.

ولهذا جاء في الحديث بما هو أهل له حيث سُمي «التييس المستعار». ومن باب الحيل أيضاً ما يفعله كثير من الناس اليوم في مسائل الربا رجل باع سلعة بـ ١٠ آلاف إلى سنة، ثم اشتراها نقداً بـ ٨ آلاف. هذه حيلة على أن يعطي ٨ آلاف ويأخذ ١٠ آلاف لأن هذا العقد صوري. ولهذا قال فيه عبد الله بن مسعود أنه دراهم بدراهم دخلت بينهم حريرة، يعني قطعة قماش.

«سد الذرائع» الذرائع جمع ذريعة، وهي الوسيلة^(١). والفرق بينها وبين الحيلة: أن فاعل الحيلة قد قصد التحيل. وفاعل الذريعة لم يقصد، ولكن فعله يكون ذريعة إلى الشر والفساد.

مثال ذلك: بعض النساء اليوم صارت تلبس النقاب، تغطي وجهها بالنقاب^(٢)، لكن هل إن المرأة بقيت على هذا. بمعنى أنها لم تخرق فيه لستر وجهها إلا مقدار العين؟ ... لا. إذا يُمنع النقاب لأنه ذريعة يتوصل به إلى شيء محرم؟

وهكذا هُدِيت لِرُشْدِكَ أَبَدًا، فَإِنْ هَذَا يُسَعِفُكَ فِي مَوَاطِنِ الْمَضَاقِقِ. وَعَلَيْكَ بِالتَّفَقُّهِ كَمَا أَسْلَفْتُ فِي نُصُوصِ الشَّرْعِ، وَالتَّبَصُّرِ فِيمَا يَحْفُ أَحْوَالُ التَّشْرِيعِ، وَالتَّأَمُّلِ فِي مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، فَإِنْ خَلَا فَهَمُّكَ مِنْ هَذَا، أَوْ نَبَا سَمْعُكَ، فَإِنْ وَقَّتَكَ ضَائِعٌ، وَإِنْ أَسَمَ الْجَهْلُ عَلَيْكَ لَوَاقِعٌ. وَهَذِهِ الْخَلَّةُ بِالذَّاتِ هِيَ الَّتِي تُعْطِيكَ التَّمْيِيزَ الدَّقِيقَ، وَالْعِيَارَ الصَّحِيحَ، لِمَدَى التَّحْصِيلِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى التَّخْرِيجِ:

(١) انظر في الذريعة:

قاعدة سد الذرائع (٥٧)، الفروق للقرافي (٣/٣٣)، أعلام الموقعين (٣/١٢٠)، الموافقات (٤/١٩٩)، الحدود للباي (ص ٦٨)، أحكام القرآن لابن العربي (٢/٢٦٥)، المقدمات للمهدات (٢/٥٢٤)، تفسير القرطبي (٢/٧٥) الفتاوى الكبرى (٣/١٨٩)، تقريب الوصول (٣٣).

(٢) النقاب الذي يقصده الشيخ رحمه الله هو ما يسمى البرقع. حيث تظهر المرأة عينيها منه. وليس مقصوده النقاب المتعارف عليه في بلادنا.

فالفقيه هو مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ النَّازِلَةُ لَا نَصَّ فِيهَا فَيَقْتَبِسُ لَهَا حُكْمًا. وَابْلَاغِي لَيْسَ مَنْ يَذْكُرُ لَكَ أَقْسَامَهَا وَتَضْرِيْعَاتَهَا، لَكِنَّهُ مَنْ تَسْرِي بِصِيرَتِهِ ابْلَاغِيَّةً فِي كِتَابِ اللَّهِ، مَثَلًا، فَيُخْرِجُ مِنْ مَكْنُونِ عِلْمِهِ وَجْوهًا، وَإِنْ كَتَبَ أَوْ خَطَبَ، نَظَّمَ لَكَ عَقْدَهَا. وَهَكَذَا فِي الْعُلُومِ كَافَّةً.

هذا صحيح .. الفقيه حقيقة هو الذي يستنبط الأحكام من النصوص وينزل الأحكام عليها، وليس من يقرأ النصوص.

من يقرأ النصوص فهو كنسخة من الكتاب، لكن من يشق النصوص وينزل الوقائع عليها، كالبلاغي ... وهل البلاغي هو من يبين لك البلاغة وأقسامها، الفصاحة وأقسامها؟ أم من يكون كلامه بليغاً؟ ... الثاني، من يكون كلامه بليغاً هو البلاغي، حتى ولو لم يكن يعرف من البلاغة شيئاً.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يطبق المعلومات على الواقع. بمعنى: أنه إذا نزلت نازلة عرف كيف يتصرف في النصوص حتى يعرف الحكم، وإذا عرف شيئاً يمرن نفسه على أن يطبق هذا في حياته القولية والفعلية.

٣١. اللُّجُوءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الطَّلَبِ وَالتَّحْصِيلِ:

لَا تَفْزَعْ إِذَا لَمْ يَفْتَحْ لَكَ فِي عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ، فَقَدْ تَعَاصَتْ بَعْضُ الْعُلُومِ عَلَى بَعْضِ الْأَعْلَامِ الْمَشَاهِيرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَرَّحَ بِذَلِكَ كَمَا يُعْلَمُ مِنْ تَرَاجِمِهِمْ، وَمِنْهُمْ: الْأَصْمَعِيُّ فِي عِلْمِ الْعَرُوضِ، وَالرُّهَآوِيُّ الْمُحَدِّثُ فِي الْخَطِّ، وَابْنُ الصَّلَاحِ فِي الْمُنْطَقِ، وَأَبُو مُسْلِمٍ النَّحْوِيُّ فِي عِلْمِ التَّصْرِيفِ، وَالسُّيُوطِيُّ فِي الْحِسَابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِي الْأَنْصَارِيُّ، وَأَبُو الْحَسَنِ الْقَاطِعِيُّ، وَأَبُو زَكْرِيَّا يَحْيَى بْنُ زِيَادٍ الْفَرَّاءُ، وَأَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ، خَمْسَتُهُمْ لَمْ يَفْتَحْ لَهُمْ بِالنَّحْوِ.

لكن هذا لا يضر . . . مادامنا نطلب الفقه لا يضرنا أن نتكلم بكلام أو ألا نعرف النحو. لكن لاشك إذا تكلم بكلام مطابق للغة العربية فإن كلامه يكون مقبولاً محبوباً للنفس، والإنسان الذي يعرف العربية أكره ما يسمع أن يتكلم الإنسان ويلبس يكره الكلام من هذا الرجل كراهية عظيمة.

فإن عجزت عن فن فالجأ إلى الله عز وجل، ومَرَّ علينا في خلاف الأدباء أن أئمة النحو - إذا لم يكن الكسائي - فهو مثله، طلب النحو وعجز عن إدراكه في يوم من الأيام رأى غلة تريد أن تصعد بطنها من الجدار فكلما صعدت سقطت ثم تأخذ هذا الطعام وتمشي ثم تسقط ثم تصعد وربما كل مرة تقول: أرفع قليلاً حتى اقتحمت العقبة وتجاوزته، فقال: إذا كانت هذه تحاول وتفشل عدة مرات ولكنها استمرت حتى انتهت أمرها، فرجع إلى علم النحو وتعلمه حتى صار من أئمة.

فأنت حاول لا تقول عجزت هذه المرة، تعجز هذه المرة، لكن المرة الثانية يقرب لك الأمر.

فيا أيها الطالب! ضاعف الرغبة، وافزع إلى الله في الدعاء واللجوء إليه والانكسار بين يديه. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - كثيراً ما يقول في دعائه إذا استعصى عليه تفسير آية من كتاب الله تعالى: «اللهم يا معلم آدم وإبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني». فيجد الفتح في ذلك^(١).

❦

وهذا من باب التوسل بأفعال الله، والتوسل بأفعال الله جائز، لأن التوسل جائز ومتنوع، وإن شئت فقل: مشروع وغير مشروع.

(١) «فتاوى ابن تيمية»: (٤/٣٨).

التوسل إلى الله بأسماء وصفاته وأفعاله من المشروع، وكذلك التوسل إلى الله تعالى بذكر شكوى الحال وأنه مفتقر إليه، والتوسل إلى الله بالإيمان به، والتوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، والتوسل إلى الله تعالى بدعاء من يرجى استجابة دعائه. كل هذا مشروع.

٣٢. الأمانة العلمية:

يجب على طالب العلم فائق التحلي بالأمانة العلمية في الطلب، والتحمل، والعمل، والبلاغ، والأداء: «فإن^(١) فلاح الأمة في صلاح أعمالها، وصلاح أعمالها في صحة علومها، وصحة علومها في أن يكون رجالها أمانة فيما يروون أو يصفون، فمن تحدث في العلم بغير أمانة، فقد مس العلم بقرحه، ووضع في سبيل فلاح الأمة حجر عثرة.

❦

من أهم ما يكون في طالب العلم أن يكون أميناً في علمه، فيكون أميناً في نقله، ويكون أميناً في وصفه. إذا وصف الحال فيكون أميناً لا يزيد ولا ينقص، وإذا نقل فليكن أميناً في النقل لا يزيد ولا ينقص وكثير من الناس تنقصه هذه الأمانة، فتجده يصف في كثير من الحال ما يوافق رأيه ويحذف الباقي، وينقل من أقوال أهل العلم، بل ومن النصوص ما يوافق رأيه ويحذف الباقي فيكون كالذي قال:

ما قال ربك لأؤوى سكرؤا ❖❖ بل قال ربك ويل للمصلين

وحذف ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (سورة الماعون: ٥). وهذا لاشك أنه حجر عثرة وأنه تدليس على العلم، لأن الواجب النقل بأمانة والوصف بأمانة، وما يضرك إذا كان الدليل على خلاف ما تقول، فإنه يجب عليك أن تتبع الدليل وأن تنقله للأمة حتى تكون على بصيرة من الأمر.

(١) «رسائل الإصلاح»: (١/١٣).

ومثل هذه الحال - أعني عدم الأمانة - يوجب أن يكون الإنسان فاسقًا لا يوثق له بخبر ولا يقبل له نقل لأنه مدلس.

لَا تَخْلُو الطَوَائِفُ الْمُنْتَمِيَّةُ إِلَى الْعُلُومِ مِنْ أَشْخَاصٍ لَا يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ لِيَتَحَلَّوْا بِأَسْنَى فَضِيلَةٍ، أَوْ لِيَنْفَعُوا النَّاسَ بِمَا عَرَفُوا مِنْ حِكْمَةٍ، وَأَمثالُ هَؤُلَاءِ لَا تَجِدُ الْأَمَانَةَ فِي نَفْسِهِمْ مُسْتَقَرًّا، فَلَا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَرُوءُوا مَا لَمْ يَسْمَعُوا، أَوْ يَصِفُوا مَا لَمْ يَعْلَمُوا، وَهَذَا مَا كَانَ يَدْعُو جَهَابِذَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى نَقْدِ الرِّجَالِ.

نعم... لأن طلب العلم يؤدي إلى التحلي بأسنى فضيلة، وبأن ينقلوا إلى الناس ما عرفوا من الحكمة، وإنما يطلبون العلم من أجل نصر آرائهم فتجده يبحث في الكتب ليجد شيئًا يقوي به رأيه، سواء كان خطأً أو صوابًا، وهذا والعياذ بالله هو المراء والجدال المنهي عنه، أما من يقلب بطون الكتب ليعرف الحق فيصل إليه، فلا شك أن هذا هو الأمين المنصف.

وَتَمَيِّيزُ مَنْ يُسْرِفُ فِي الْقَوْلِ مِمَّنْ يَصُوغُهُ عَلَى قَدَرٍ مَا يَعْلَمُ، حَتَّى أَصْبَحَ طُلَّابُ الْعِلْمِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ قِيَمَةِ مَا يَقْرَءُونَهُ، فَلَا تَخْضِي عَلَيْهِمْ مَنْزِلَتُهُ، مَنْ الْقَطْعُ بِصِدْقِهِ، أَوْ كَذِبِهِ، أَوْ رُجْحَانِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ، أَوْ احْتِمَالُهُمَا عَلَى سِوَاءٍ أَه.

٣٣. الصَّدُقُ (١):

صَدُقُ اللَّهْجَةِ: عَنَوَانُ الْوَقَارِ، وَشَرَفُ النَّفْسِ، وَنَقَاءُ السَّرِيرَةِ، وَسُمُوُّ الْهَمَّةِ، وَرُجْحَانُ الْعَقْلِ، وَرَسُولُ الْمَوَدَّةِ مَعَ الْخَلْقِ، وَسَعَادَةُ الْجَمَاعَةِ، وَصِيَانَةُ الدِّيَانَةِ، وَلِهَذَا كَانَ قَرَضُ عَيْنٍ، فَيَا خَيْبَةً مَنْ فَرَّطَ فِيهِ، وَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ مَسَّ نَفْسَهُ وَعِلْمَهُ بِأَذَى.

(١) «فتاوى شيخ الإسلام»: (٢٠/٧٤-٨٥).

الصدق هنا قريب من مسألة الأمانة العلمية، لأن الأمانة العلمية تكون بالصدق، والصدق كما قال: عنوان الوقار، وشرف النفس، ونقاء السريرة وإذا كان الكذب نجسًا، فإن الصدق أنجى وأنجى. وإن كان الكذب أيضًا لا يدوم، لأنه سرعان ما يتبين الكذب ويفتضح الكاذب.

لكن الصدق عاقبته حميدة. فعليك بالصدق، ولو كنت تتخيل أنه يضره فاصبر، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا.

واني لأذكر رجلاً من عامة الناس شُهر بالصدق، فكان الناس يتناقلون أخباره في الجالس على التلذذ بها أكثر مما يذكرون أخبار العلماء الذين في وقته لأن الصدق رفع الله به من اتصف به، لاسيما في مسائل العلم.

فلا تقل إن الله حرم هذا وهو لم يحرمه، ولا أوجب هذا وهو لم يوجبه، ولا قال فلان كذا وهو لم يقله. بل تجنب هذا كله.

وكان الإمام أحمد - رحمه الله - وغيره من الأئمة لا يصرحون بالتحريم إلا ما جاءت النصوص به، وإلا فإنك تجد الإمام أحمد يقول: أكره كذا، لا يعجبني، لا تفعل. وما أشبه ذلك.

وقول الشيخ بكر - وفقه الله - «ولهذا كان فرض عين»، يعني الصدق فرض عين، لا فرض كفاية، فلا يقول: أنا أكذب، والثاني يصدق... لا يجوز أن تكذب.

استثنى بعض العلماء ما جاء عن طريق التورية، ولكن لا حاجة للاستثناء، لأن التورية صدق باعتبار ما في نفس القائل، كمث قول إبراهيم عليه السلام للملك الجبار هذه أختي.

وهذا ليس بالكذب، وإن كان إبراهيم اعتذر عن الشفاعة بأنه كذب ثلاث كذبات، لكنه كذب من وجه وهو التلبس على الظالم المعتدي، ولكنه صدق باعتبار ما في نفس القائل.

استثنى بعض العلماء أيضاً ما جاء في الحديث أنه لا يجوز الكذب إلا في ثلاث في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث المرأة لزوجها وحديث الرجل لزوجته. ولكن بعض العلماء يقول: إن هذا محمولٌ على التورية، وليس على الحقيقة، فالحرب خدعة، بأن تُرى عدوك أنك تريد جهة ما، وأنت تريد الجهة الأخرى، أو تُرى عدوك أن عندك جنود كثيرة بحيث أن تجعل الجيش يتراسم، كما فعل القعقاع بن عمرو في إحدى غزواته، قسم الجيش وهم عدد قليل، لكن العدو يظنه عدداً كثيراً. كذلك الإصلاح بين الناس... لا تكذب، ولكن تأل. إذا قال لك فلان: يقول في كذا وكذا. تقول: لا لم يقل فيك شيئاً.

كذلك حديث المرأة لزوجها وحديث الرجل زوجته، يعني: على سبيل التورية لا التصريح وهذا القول ليس ببعيد، لأن الكذب كما قال الرسول ﷺ يهدي إلى الفجور، لا يهدي إلى الخير. ثم إن الإنسان إذا اعتاد هذا - لاسيما مع الزوجة وصار كلما حدثها بحديث وبحث عنه وجدته كذباً لم تثق فيه بعد ذلك، وربما يكون سبباً لفقدانها إياه وللغراق التام.

وعند العامة يستثنى كذباً أكثر من ذلك يقولون: الكذب الحرام ما كان فيه أكل للمال بالباطل، وأما ما سواه فهو كذب أبيض ويقسمون الكذب إلى قسمين: كذب أبيض وكذب أسود. والأبيض حلال، والأسود حرام. والأسود ما فيه أكل المال بالباطل، والأبيض ما ليس كذلك، ولكن هذا هو دين العامة وليس شريعة محمد ﷺ.

قال الأوزاعي: رحمه الله تعالى: «تعلّم الصدق قبل أن تتعلّم العلم». وقال وكيع: رحمه الله تعالى: «هذه الصنعة لا يرتفع فيها إلا صادق»^(١). فتعلّم - رحمك الله - الصدق قبل أن تتعلّم العلم، والصدق: إلقاء الكلام على وجه مطابق للواقع والاعتقاد، فالصدق من طريق واحد، أما نقيضه الكذب فضرّوب وألوان ومساكن وأودية، يجمعها ثلاثة^(٢):

١. كذب المتملق: وهو ما يخالف الواقع والاعتقاد، كمن يتملق لمن يعرفه فاسقاً أو مبتدعاً فيصِفُه بالاستقامة.
٢. وكذب المنافق: وهو ما يخالف الاعتقاد ويُطابق الواقع، كالمنافق ينطق بما يقولُه أهل السنة والهداية.

٣. وكذب الغبي: بما يخالف الواقع ويُطابق الاعتقاد، كمن يعتقد صلاح صوفي مبتدع فيصِفُه بالولاية.

الصدق لاشك أنه سبيلٌ واحد، والكذب سُبُل، وهكذا الهداية والضلالة. الهداية سبيلها واحد، والضلالة سبيل متفرقة. قال الله تعالى: ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (سورة الأنعام: ١٥٣). وأما قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ (سورة المائدة: ١٦). فقد جمعها باعتبار تنوع الشرائع... صلاة، زكاة، صيام، حج، بر، صلة، صدقة - وما أشبه ذلك فجمعها باعتبار وتوحيدها باعتبار آخر.

أما الكذب فضرّوب وألوان متعددة، ويتعدد بتعدد أغراضه فهو يجمعها ثلاثة. يقول:

(١) «الجامع»: (٣٠٤/١)، (٧/٢) للخطيب البغدادي.

(٢) «رسائل الإصلاح»: (١٠٥-٩٥/١) مهم.

١ - «كذب المتملق: وهو ما يخالف الواقع والاعتقاد، كمن يتملق لمن يعرفه فاسقاً أو مبتدعاً فيصفه بالاستقامة».

تعرف أن هذا الرجل فاسق ثم تأتي إليه وتقول: ما شاء الله أنت رجل مستقيم، مستقيم الأخلاق، مستقيم الدين، مستقيم المنهج. وأنت تعرف أنه أفسق عباد الله. هذا ماذا يُقال له؟ يقال له متملق وهذا أكثر ما يكون عند الملوك والأمراء، تجذ الرجل يتملق إلى الأمير أو الملك ويقول: أنت فيك كذا وأنت فيك كذا، وهذا من النفاق والعياذ بالله. ^{العلمي} : د. أحمد بن

٢ - «كذب المنافق: وهو ما يخالف الاعتقاد ويُطابق الواقع» ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ﴾ . وكونه رسول الله مطابق للواقع . ما الدليل؟ قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ . لكن شهادتهم هذه مخالفة لاعتقادهم، لأن الله قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة المنافقون: ١).

أي في قولهم نشهد أنك لرسول الله لا في قولهم إنه لرسول الله . هذا يخالف الاعتقاد ويطابق الواقع .

وهذا باعتبار قول المنافق في غيره، أما باعتبار قوله في نفسه مثلاً أنه صالح، فهو يخالف الاعتقاد، ويخالف الواقع إلا ظاهراً.

٣ - «كذب الغبي: بما يخالف الواقع ويطابق الاعتقاد». وهو أن يقول الشيء ما ليس فيه لغباء، فيقول مثلاً عن أهل الكلام أنهم هم العقلاء، وأنهم أهل العلم والحكمة، أما أهل السنة فهم أغبياء يفوضون النصوص ولا يعرفون لها معنى.

نقول: هذا غبي، ولهذا عبر شيخ الإسلام - رحمه الله - في كتابه الفتوى الحموية، عبر بهذا الوصف فقال: «قال بعض الأغبياء: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم».

وكذلك من يشاهد الصوفية وتصنعهم وعباداتهم، فيقول: إنهم أهل الصلاح وأهل الولاية.

نقول: أنت غبي لا تعرف حقيقتهم فلا تحكم عليهم بالصلاح حتى تعرف الحقيقة، وإلا كنت غبياً.

فهذا كاذب، فهل يعذر بكذبه؟ نقول: إذا فرط في البحث فلا يُعذر وإن كان هذا منتهى علمه، فإنه يعذر لأنه جاهل. أما الأول فهو متملق، والثاني فهو منافق فلا عذر لهم في ذلك.

فَالزَّمِ الْجَادَّةَ (الصَّدُقْ)، فَلَا تَضْغُطْ عَلَى عَكْدِ اللِّسَانِ، وَلَا تَضْمِ

شَفَتَيْكَ، وَلَا تَفْتَحْ فَاكَ نَاطِقًا إِلَّا عَلَى حُرُوفٍ تُعَبِّرُ عَنْ إِحْسَاسِكَ الصَّادِقِ فِي الْبَاطِنِ، كَالْحُبِّ وَالْبُغْضِ، أَوْ إِحْسَاسِكَ فِي الظَّاهِرِ، كَالَّذِي تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُ الْخَمْسُ: السَّمْعُ، الْبَصَرُ، الشَّمُّ، الذَّوْقُ، اللمسُ. فالصَّادِقُ لَا يَقُولُ: «أَحْبَبْتُكَ» وَهُوَ مُبْغِضٌ، وَلَا يَقُولُ: «سَمِعْتُ» وَهُوَ لَمْ يَسْمَعْ، وَهَكَذَا ... وَاحْذَرِ أَنْ تَحُومَ حَوْلَكَ الظُّنُونُ، فَتَخُونَكَ الْعِزِيمَةُ فِي صَدَقِ اللَّهْجَةِ، فَتُسَجَّلَ فِي قَائِمَةِ الْكَذَّابِينَ. وَطَرِيقُ الضَّمَانَةِ لِهَذَا - إِذَا نَارَعَتَكَ نَفْسُكَ بِكَلَامٍ غَيْرِ صَادِقٍ فِيهِ: أَنْ تَقْهَرَهَا بِذِكْرِ مَنْزِلَةِ الصِّدْقِ وَشَرَفِهِ، وَرَذِيلَةِ الْكَذْبِ وَدَرَكِهِ، وَأَنْ الْكَاذِبَ عَنْ قَرِيبٍ يَنْكَشِفُ. وَاسْتَعِنِ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ.

ولا تفتح لنفسك سابلة المعاريض في غير ما حصره الشرع. فيا طالب

العلم! احذر أن تمرّق من الصدق إلى المعارض الكذب، وأسوأ مرامي هذا المروق (الكذب في العلم)، لداء منافسة الأقران، وطيران السمعة في الأفق.

هنا إضافة مهمة جداً، هو أن بعض الناس يتسرع في الرقي إلى العلو بما يَلْقَهُ ويوهم الناس به من أنه عنده علم واسع، وأنه عبقرى، وأنه فى كل فن له يد وما

أشبه ذلك . وهذا لاشك أنه غلط عظيم، فهو مع جمعه الكذب، فيه خيانة الناس وإيهامهم بخلاف الواقع . وفيه أيضاً التغرير بالنفس، أن الإنسان يزهو بنفسه حتى يحجمها ويكبرها وهي دون ذلك، وكم من إنسان هلك بمثل هذا سواء في طريق العلم أو في طريق العبادة، ولكن سرعان ما ينكشف، سرعان ما يرد عليه شيء يعجز عنه وحينئذ إما أن يقول ما هو معلوم كذبه فينكشف، وإما أن يتذبذب ويفتضح أمره . ولهذا كان مما قاله عبد الله بن مسعود: «إن من العلم أن تقول لما لا تعلم لا أعلم» .

وذكر بعضهم أن قول القائل: «لا أعلم» هي نصف العلم، ولكن في الواقع: العلم كله، والإنسان إذا عرف بالتحري وأنه يقول بما لا يعلم «لا أعلم» وثق الناس بقوله، أما إذا كان يجيب على كل ما يسأل حتى لو كان لا يعرف شيئاً فيما سئل فيه، فإنه سوف ينكشف أمره وسوف لا يثق الناس بقوله حتى ولو كان حقاً . ولكن ما الذي يحمل على الإنسان على أن يقول مثل هذا؟

يحملة طلب العلو، أن يكون فائقاً على الأقران، أو طلب الصيت والشهرة بحيث يقال العلامة، الفهامة، البحر الزاخر وما أشبه ذلك .

وهذه لاشك إنها من مكائد الشيطان، فالواجب عليك أن تعرف قدر نفسك وأن لا تنزلها فوق منزلتها، ثم إن القول في مسائل الدين أخطر ما يكون لأنه قولٌ على الله بلا علم، وقد قال الله عز وجل ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الاعراف: ٣٣) .

بعض الناس إذا عُثر على خطئه قال: سبحان الله، سبحان الذي لا ينسى . نعم . . . لكن أنت لم تنس، بل أنت جاهل من أصله .

ومن تطلع إلى سُمعة فوق منزلته فليعلم أن في المرصاد رجالات يحملون بصائر نافذة، وأقلاماً نافذة، فيزنون السُمعة بالأثر، فتتم تعريتك عن ثلاثة معان:

١ . فقد الثقة في القلوب .

٢ . ذهاب علمك وانحسار القبول .

٣ . أن لا تصدق ولو صدقت .

وبالجُملة، فمن يحترف زُخرف القول، فهو أخو الساحر، ولا يفلح الساحر .
حيث أتى ^(١) . والله أعلم .

هذا صحيح . . الإنسان إذا تطلع إلى السمعة فقط ونزل فوق منزلته فسرعان ما ينكشف، ثم إن النية في طلب العلم يجب فيها الإخلاص لله عز وجل، ولهذا ورد عن النبي ﷺ : «أن من طلب علماً وهو مما يبتغى به وجه الله لا يريد إلا أن ينال عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة» . وأن من طلب العلم ليماري به السفهاء أو ليجاري به العلماء فليتبوء مقعده من النار ^(٢) . فالمسألة خطيرة، ولا سيما العلوم الشرعية . وذكر ثلاث مضار .

أولاً . فقد الثقة في القلوب: متى تُفقد؟ إذا تبين أنه قال عن جهل؛ ما يثقون به وينصرفون إلى غيره .

ثانياً . ذهاب علمك وانحسار القبول: لأنه إذا فقدت الثقة لم يقبله الناس فإذا كان يقبله مثلاً (١٠)، فإنهم إذا فقدوا الثقة انحسروا إلى (٥) أو إلى (٤) .

ثالثاً . أن لا تصدق ولو صدقت: حتى لو حدثتهم بحديث يعرفونه . قالوا: هذا رمية من غير رام .

فالحاصل أن الإنسان يجب أن يعرف مقدار نفسه وأن يحترم العلم، وأن لا يجعله له وسيلة للرفي الخادع.

٣٤. جنة طالب العلم:

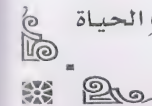
جنة العالم (لا أدري) ويَهْتِكُ حجابَه الاستنكافُ منها، وقوله: يُقال ...
وعليه، فإن كان نصفُ العلم (لا أدري)، فنصفُ الجهل (يُقال) و(أظن) ^(١).

هذا صحيح ... هذا متمم لما قبله، أن الإنسان يجب عليه إذا لم يعلم أن يقول: لا أعلم ولا يضره، بل يزيده ثقة بقوله.

وأما قوله: «نصف الجهل أظن» أو يقال هذا صحيح. بعض العوام الآن يتصل ويقول هذا حلال أو حرام أظنه حرام. يُقال لهذا أيضاً. نصف الجهل، ولكن هل أثن بكلام عامي؟! لا ... لا يجوز، ولهذا كم من الناس أقاتهم العوام بفتاوى خاطئة ولا سيما في أيام الحج.

٣٥. المحافظة على رأس مالك (ساعات عمرك):

الوقت الوقت للتحصيل، فكن حلفَ عملٍ لا حلفَ بطالةٍ وبطَرٍ، وحلَسَ مَعْمَلٍ لا حلَسَ تَلَهٍ وسَمَرٍ، فالحفظُ على الوقتِ بالجدِّ والاجتهادِ، ومُلازمةِ الطلبِ، ومُثاقفةِ الأشياخِ، والاشتغالِ بالعلمِ قراءةً وإقراءً، ومُطالعةً وتدبيراً وحفظاً وبحثاً، لاسيما في أوقات شَرخِ الشبابِ، ومُقتَبَلِ العمرِ، ومعدن العافية، فاغتنم هذه الفرصةَ الغاليةَ، لتنالَ رُتَبَ العلمِ العاليةِ، فإنها «وقتُ جمعِ القلبِ، واجتماعِ الفكرِ»، لقلةِ الشواغلِ والصوارفِ عن التزاماتِ الحياةِ والتروُّسِ، ولخفةِ الظَّهْرِ والعيالِ:



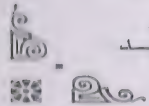
ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «تفقهوا قبل أن تسودوا» وفي لفظ «تسودوا» لأن الإنسان إذا ساد كثرت المشاكل، وكثرت أفكاره وتفرقت وتمزقت عزائمه، فبينما يعزم على شيء إذا بحاجة نزلت به أشد إلحاحاً مما عزم عليه ... فيتفرق. ولذلك اجتهد مادمت في زمن الإمهال وانتبح، واعمل، وابحث، واجعل بطون الكتب هي مرثياتك حتى تعتاد على هذا، واعلم أنك إذا اعتدت على هذا - يعني على الجد والاجتهاد - صار طبيعة لك بحيث لو أنك إذا كسلت يوماً من الأيام في الرحلة فإنك تستنكر هذا وتجده الفراغ وليكن بحثك مُركِّزاً، بحيث لا تقطف من كل زهرة جزءاً، اجعل بحثك مُركِّزاً الأهم فالأهم، حتى يكون لك ملكة تستطيع أن تخرج المسائل على القواعد والفروع على الأصول.

❖ ❖ ❖ ما للمُعِيلِ وَلِلْعَوَالِي إِنَّمَا ❖ ❖ ❖ يَسْعَى إِلَيْهِنَّ الْفَرِيدُ الْفَارِدُ ❖ ❖ ❖

المُعِيل: كثير العيال. والعوالي: جمع عالية - يعني المنازل العالية فإذا كثرت العيال وكثرت المشاغل أَلْهَتْكَ لأن الإنسان بشر، والطاقة محدودة، فما دمت متفرغاً فلن تكن متفرداً. ولا تظن أن المؤلف يريد بهذا إلا تطلب العيال والنكاح، بل إن النكاح قد يكون من أسباب الراحة إذا وفق الإنسان فيه ويسرت له امرأة صالحة.

❖ ❖ ❖ وإياك وتأمير التسويفِ على نَفْسِكَ، فلا تُسَوِّفْ لِنَفْسِكَ بعد الفراغ من ❖ ❖ ❖ كذا، وبعد (التقاعد) من العمل هذا ... وهكذا، بل البِدَارُ قبل أن يَصْدُقَ عليك قول أبي الطَّحَّانِ القَيْنِي:

حَنَنْتِي حَانِيَاتِ الدَّهْرِ حَتَّى ❖ ❖ ❖ كَأَنِّي خَاتِلٌ أَدْنُو لَصِيدِ ❖ ❖ ❖
قَصِيرُ الْخَطْوِ يَحْسِبُ مَنْ رَأَنِي ❖ ❖ ❖ وَلَسْتُ مُقَيِّداً أَتِي بِقَيْدِ ❖ ❖ ❖



خاتل أدنو لصيد: الرجل يكسر ظهره كأنه راكب يمشي ببطء على الأرض يخشى أن الطير يحسُّ به فيطير.

«ولست مقيداً أني بقيد، وهذا صحيح، لأن الله عزَّ وجلَّ قال في كتابه ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (سورة الروم: ٥٤).

والإنسان في حالة شبابه يظن أنه لن يتعب ولن يسأم ولن يمل، لكن إذا كبر فكما قال عن زكريا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (سورة مريم: ٤). لا بد أن يتعب، لا بد أن يمل، فكون الإنسان يتنزه الفرصة هذا أمرٌ لا بد منه.

وقال أسامة بن مُنقذ:

مَعَ الثَّمَانِينَ عَاثَ الضَّعْفُ فِي جَسَدِي ❖❖❖ وَسَاءَ نِي ضَعْفُ رِجْلِي وَاضْطِرَابُ يَدَيَّ
إِذَا كَتَبْتُ فَخَطِي خَطٌ مُضْطَرِبٌ ❖❖❖ كَخَطِ مُرْتَعِشِ الْكَفَّيْنِ مُرْتَعِدٍ
فَاعْجَبُ لِضَعْفِ يَدَيَّ عَنْ حَمَلِهَا قَلَمًا ❖❖❖ مِنْ بَعْدِ حَمَلِ الْقَنَاءِ فِي لَبَّةِ الْأَسَدِ
فَقُلْ لِمَنْ يَتَمَنَّى طَوْلَ مُدَّتِهِ ❖❖❖ هَذِي عَوَاقِبُ طَوْلِ الْعُمُرِ وَالْمُدَدِ
فَإِنْ أَعْمَلْتَ الْبِدَارَ، فَهَذَا شَاهِدٌ مِنْكَ عَلَى أَنَّكَ تَحْمِلُ «كِبَرَ الْهَمَّةِ فِي الْعِلْمِ».

هذه كلها أبيات تدل على الحكمة، أن الإنسان مآله إلى هذا. يقول: «مع الثمانين عاث الضعف في جسدي» أي: انتشر وشاع.

لكن المؤمن - والحمد لله - مادام عقله باقياً وقلبه ثابتاً، فإن بلغ هذا المبلغ من العجز البدني، فالقلب حاضر يستطيع أن يشغل وقته بذكر الله عزَّ وجلَّ والتفكير في آياته، لأن هذا لا عجز عن مراده إلا الغفلة، والغفلة شيء مشكل.

على كل حال فالمؤلف - وفقه الله - يدعونا إلى انتهاز الفرصة وألا نضيع الأوقات واعلم أنك إذا اعتدت على تضييع الوقت، عجزت بعد ذلك عن الحرص عليه وعن الانتفاع به، لأنك تكون قد اعتدت على الكسل. فإن قال قائل: أليس لنفسك عليك حقاً؟

فالجواب: بلى، إن لنفسك عليك حقاً، ونحن لا نقول إذا تعبت أو مللت استمر. نقول: لا استرح، حتى إن الإنسان الذي يصلي إذا أتاه النعاس مأمور أن يدع الصلاة وينام.

لكن مادمت نشيطاً فاحرص، لأن هناك فرقاً بين العجز والكسل. الكسل ضعف في الإرادة، والعجز ضعف في البدن، وضعف البدن لاحيلة فيه. لكن الإرادة هي التي يستطيع الإنسان يعود نفسه على الهمة العالية كي يستغل.

٣٦. إجمام النفس:

خُذْ مِنْ وَقْتِكَ سَوِيَعَاتٍ تُجَمُّ بِهَا نَفْسُكَ فِي رِيَاضِ الْعِلْمِ مِنْ كُتُبِ
الْمُحَاضِرَاتِ (الثقافة العامة)، فَإِنَّ الْقُلُوبَ يَرْوَحُ عَنْهَا سَاعَةً فَسَاعَةً. وفي المأثور
عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «أَجْمُوا هَذِهِ الْقُلُوبَ، وَابْتَغُوا
لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ، فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ»^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في حكمة النهي عن
التطوُّع في مُطْلَقِ الْأَوْقَاتِ^(٢): «بَلْ فِي النَّهْيِ عَنْهُ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ مَصَالِحُ آخَرٍ
مِنْ إِجْمَامِ النَّفُوسِ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ، مِنْ ثِقَلِ الْعِبَادَةِ، كَمَا يُجَمُّ بِالنَّوْمِ وَغَيْرِهِ،
وَلِهَذَا قَالَ مُعَاذٌ: إِنِّي لَا أَحْتَسِبُ نَوْمَتِي، كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي ...».

(١) «جامع بيان العلم وفضله».

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٨٧/٢٣).

وقال^(١): «بل قد قيل: إن من جملة حكمة النهي عن التطوع المطلق في بعض الأوقات: إجمام النفوس في وقت النهي لتنشط للصلاة، فإنها تنبسط إلى ما كانت ممنوعة منه، وتنشط للصلاة بعد الراحة، والله أعلم» أهـ.

وهنا يجب أن نعلم أن إجمام النفس وإعطائها شيئاً من الراحة حتى تنشط في المستقبل وحتى تستريح بعض الراحة مما سبق أن هذا من الأمور الشرعية التي دل عليها قول النبي ﷺ: «**إن لنفسك عليك حقاً ولربك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ولنزوك عليك حقاً فاعط كل ذي حق حقه**»^(٢). وهذا الحديث هو الميزان الحقيقي الذي تطمئن إليه النفس لا المروي عن عمر ولا عن علي ولا عن غيره، فلو أن المؤلف استدل بهذا الحديث لكان أبين وأظهر، والنفس إذا جعلتها دائماً في جد لا بد أن تمل وتسأم، وأما ما قيل أن من جملة النهي عن التطوع المطلق في بعض الأوقات. فهذا من جملة الحكمة، وليس هو الحكمة، بل الحكمة الطبيعية هو ما ذكره النبي ﷺ: «**إن الشمس إذا طلعت فإنها تطلع بين قرني شيطان**» **وحيث يسجد لها الكفار وكذلك إذا غربت يسجدون لها**»^(٣). فهم يسجدون لها استقبلاً، ويسجدون لها وداعاً.

أما وقت الزوال فإن الحكمة فيه: أنه الوقت التي تسجر فيه جهنم فيلحق النفس من التعب ومن الحر لاسيما في أيام الصيف ما ينهي أن يصلي الإنسان فيه. وليس هذا القيل الذي قيل معارض للحديث ولكنه من جملة الحكمة، والله أعلم.



منذر أبو سعيد

(١) «مجموع الفتاوى»: (٢١٧/٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٩/٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٣) في كتاب مواقيت الصلاة/ باب الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس.

ولهذا كانت العطل الأسبوعية للطلاب منتشرة منذ أمد بعيد، وكان الأغلب فيها، يوم الجمعة، وعصر الخميس، وعند بعضهم يوم الثلاثاء، ويوم الاثنين، وفي عيدي الفطر والأضحى من يوم إلى ثلاثة أيام وهكذا ..

صحيح ... العطل الأسبوعية منتشرة من زمان، لكن بعضهم يقتصر على الجمعة فقط، وبعضهم يضيف إلى الجمعة يوم الخميس، وبعضهم يجعل الجمعة ونصف الأسبوع، وكان شيخنا - رحمه الله - السعدي يفعل هذا، تكون العطلة يوم الجمعة، ويوم الثلاثاء الذي هو وسط الأسبوع لأجل لا يتوالى يومان كلاهما عطلة، وكلي لا يمل الإنسان، وهذا يرجع على كل حال إلى أحوال الناس والأحوال تختلف، فيجعل من العطل ما يناسب.

ونجد ذلك في كُتُب آداب التعليم، وفي السير، ومنه على سبيل المثال: «**آداب المعلمين**» لسُحُنُون: (ص ١٠٤)، و«**الرسالة المفصلة**» للقايسي: (ص ١٣٥-١٣٧)، و«**الشقائق النعمانية**» (ص ٢٠)، وعنه في: «**أبجد العلوم**»: (١/١٩٥-١٩٦)، وكتاب «**أليس الصبح بقريب**» للطاهر بن عاشور، و«**فتاوى رشيد رضا**»: (١٢١٢)، و«**معجم البلدان**»: (١٠٢/٣)، و«**فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**»: (٣٢٩، ٣٢٠-٣١٨/٢٥).

٣٧. قراءة التصحيح والضبط:

أحرص على قراءة التصحيح والضبط على شيخ مُتَقَنٍّ، لتأمن من التحريف والتصحيف والغلط والوهم. وإذا استقرأت تراجم العلماء وبخاصة الحفاظ منهم - تجد عدداً غير قليل ممن جرد المطولات في مجالس أو أيام قراءة ضبط على شيخ متقن.

منذر أبو سعيد

هذه الفقرة من أهم الفقرات، وهو إتقان العلم وضبطه ومحاولة الرسوخ في القلب، لأن ذلك هو العلم، ولا بد أن يكون على شيخ متقن أما الشيخ المتمشيق فيأياك إياك فقد يضرك ضرراً كثيراً والإتقان يكون في كل فن بحسبه، قد تجد رجلاً متقناً في علم الفرائض مثلاً غير متقن في أحكام الصلاة، وتجد رجلاً متقناً لعلوم العربية غير عارف بالعلوم الشرعية وآخر بالعكس، فخذ من كل عالم ما يكون متقناً فيه ما لم يتضمن ذلك ضرراً، مثل أن نجد رجلاً متقناً في علوم العربية، لكنه منحرف في عقيدته وسلوكه فهذا لا ينبغي أن نجلس إليه لأننا إذا جلسنا إليه اغترَّ به الآخرون وظنوا أنه على حق، فنحن نطلب العلم على غيره وإن كان أجود الناس في هذا الفن، لكن ما دام منحرفاً فلا ينبغي أن نجلس إليه.

فهذا الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - قرأ «صحيح البخاري» في عشرة مجالس، كلُّ مجلسٍ عشر ساعات، و«صحيح مسلم» في أربعة مجالس في نحو يومين وشيء من بكرة النهار إلى الظهر.

كم عدد الساعات؟ ! ١٠٠ ساعة .. الله المستعان، ولكن على كل حال هو قراءة فقط دون الشرح والتأمل.

وانتهى ذلك في يوم عرفة، وكان يوم الجمعة سنة ٨١٣هـ، وقرأ «سنن ابن ماجه» في أربعة مجالس، و«معجم الطبراني الصغير» في مجلس واحد، بين صلاتي الظهر والعصر. وشيخه الفيروز آبادي قرأ في دمشق «صحيح مسلم» على شيخه ابن جهبل قراءة ضبط في ثلاثة أيام. وللخطيب البغدادي والمؤتمن الساجي، وابن الأبار وغيرهم في ذلك عجائب وغرائب يطول ذكرها، وانظرها في: «السير» للذهبي: (٢٧٩، ٢٧٧/١٨)، و(٣١٠/١٩)، و(٢٥٣/٢١)، و«طبقات الشافعية» للسبكي: (٣٠/٤)، و«الجواهر والدرر» للسحاي: (١٠٣/١).

(١٠٥)، و«فتح المغيب»: (٤٦/٢)، و«شذرات الذهب»: (١٢١/٨، ٢٠٦)، و«خلاصة الأثر»: (٧٣-٧٢/١)، و«فهرس الفهارس» للكتاني، و«تاج العروس»: (٤٦-٤٥/١). فلا تنس حظك هذا. الظاهر ما لنا حظاً أبداً ... والله المستعان.

٣٨. جرد المطولات:

الجرد للمطولات من أهم المهمات، لتعدد المعارف، وتوسيع المدارك، واستخراج مكنونها من الفوائد والفرائد، والخبرة في مظان الأبحاث والمسائل، ومعرفة طرائق المصنفين في تأليفهم واصطلاحهم فيها. وقد كان السالِفون يكتبون عند وقوفهم: «بلغ»، حتى لا يفوته شيء عند المعاودة، لاسيما مع طول الزمن.

هذه فيها نظر - يعني الجرد في المطولات - قد يكون فيه مصلحة للطالب وقد يكون فيه مضرة، فإذا كان الطالب مبتدئ، فإن جرد المطولات له هلكة، كرجل لا يحسن السباحة يرمي نفسه في البحر.

فإذا كان عند الإنسان علم، ولكنه أراد أن يصل إلى هذه المطولات من أجل أن يكسب فوق علمه الذي عنده، فهذا قد يكون حسن.

فهذه الفقرة تحتاج إلى تفصيل. لو أن رجلاً بدأ بالعلم من الآن ونقول له راجع المغني وراجع المجموع شرح المذهب وراجع الحاوي الكبير .. راجع كذا وأعددت له الكتب الموسعة. هذا معناه أنك أهلكته ورميته في بحر لحي يغشاه موج من فوقه موج. أما الإنسان الذي أعطاه الله العلم وأراد أن يتبحر ويتوسع فهنا نقول: عليك بالمطولات، وقد ذكر لي بعض الإخوة أن الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين لم يتجاوز «الروض المربع» في مراجعته للفقهاء، ومع ذلك كان يطلق عليه مفتي الديار

النجدية وله حواشي على الروض المربع وهو لم يتجاوزه، لكنه يكرره ويتأمله مطوياً ومفهوماً إماماً وإشارة.

أما كتابه «بَلَّغْ» فهذا طيب إنك إذا راجعت كتاباً فاكتب عند المنتهى «بَلَّغْ» لتستفيد فائدتين:

الأولى - ألا تنس ما قرأت، لأن الإنسان قد ينسى فلا يدري أبلغ هذه الصفحة أم لا؟ وربما يفوته بعض الصفحات إذا ظن أنه قد تقدم في المطالعة.

الثانية - أن يعلم الآتي بعدك أنك قد أحصيته وأكملته فيثق به أكثر.

٣٩. حُسْنُ السُّؤَالِ:

الْتَزَمْ أَدَبَ الْمُبَاحَثَةِ مِنْ حُسْنِ السُّؤَالِ، فَالِاسْتِمَاعُ، فَصَحَّةُ الْفَهْمِ لِلْجَوَابِ، وَإِيَّاكَ إِذَا حَصَلَ الْجَوَابُ أَنْ تَقُولَ: لَكِنَّ الشَّيْخَ فَلَانًا قَالَ لِي كَذَا، أَوْ قَالَ كَذَا، فَإِنَّ هَذَا وَهْنٌ فِي الْأَدَبِ، وَضَرْبٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ بِبَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، فَاحْذَرْ هَذَا. وَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعْلَمْ، فَكُنْ وَاضِحًا فِي السُّؤَالِ، وَقُلْ: مَا رَأَيْتُكَ فِي الْفَتَاوَى بِكَذَا، وَلَا تُسَمِّ أَحَدًا.

من آداب طالب العلم:

أولاً - أن يكون عنده حسن سؤال، حسن إلقاء مثل أن يقول: أحسن الله إليك ما تقول في كذا، وإن لم يقل هذه العبارة فليكن قوله رقيقاً بأدب.

الثاني - حسن الاستماع، أما أن تقول: يا شيخ أحسن الله إليك ماذا تقول في كذا وكذا... وانتظر.

الثالث - صحة الفهم للجواب... وهذا أيضاً يفوت بعض الطلبة، تجده إذا سأل وأجيب. يستحي أن يقول ما فهمت.

بعد هذا يأتي بعض الناس بعدما يستمع للجواب يقول: لكن قال الشيخ الفلاني كذا وكذا... في وسط الحلقة. هذا من سوء الأدب، معنى هذا إنك لم تقتنع بجوابه، ومعنى هذا إثارة البلبلة بين العلماء.

وإن كان لابد فيقول: قال قائل... ثم يورد ما قاله الشيخ فلان لأن أحداً لا يفهم إذا قال إن قال قائل أنه أراد بذلك جواب شيخ آخر. لهذا يقول: «لكن إن كنت لابد فاعلاً فقل ما رأيك في الفتوى بكذا» وهذا أيضاً ما هو بحسن.

أحسن منه أن تقول (فإن قال قائل)، لأنك إذا قلت: ما رأيك في الفتوى بكذا - وهي خلاف ما أفتاك به - فيعني إنك تريد أن تعارض فتواه بفتوى آخر، لكن هي أحسن من قولك: قال الشيخ الفلاني كذا.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى^(١): «وقيل: إذا جَسَّتْ إِلَى عَالَمٍ، فَسَلْ تَفَقُّهَا لَا تَعَنَّأْ أَهْ».

وقال أيضاً: «وللعلم ستُّ مراتب:

أولها - حُسْنُ السُّؤَالِ. الثانية - حُسْنُ الْإِنْصَاتِ وَالِاسْتِمَاعِ.

الثالثة - حُسْنُ الْفَهْمِ. الرابعة - الْحِفْظُ.

الخامسة - التَّعْلِيمُ. السادسة - وَهِيَ ثَمَرَتُهُ، الْعَمَلُ بِهِ وَمُرَاعَاةُ

حُدُودِهِ» أَهْ. ثم أخذ في بيانها ببحث مهم.

ترتيبها على هذا الوجه لاشك أنه مناسب.

حسن السؤال: إذا دعت الحاجة إلى حسن السؤال أما إذا لم تدعُ إلى السؤال فلا تلق السؤال، لأنه لا ينبغي للإنسان أن يسأل إلا إذا احتاج هو إلى السؤال، أو أظن

أن غيره يحتاج إلى السؤال قد يكون مثلاً هو فاهم الدرس ولكن فيه مسائل صعبة يحتاج إلى بيانها إلى بقية الطلبة، بل من أجل حاجة غيره.

والسائل من أجل حاجة غيره كالمعلم، لأن النبي ﷺ لما جاءه جبريل وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشرطها. قال: **«هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»** (١).

فإذا كان الباعث على السؤال حاجة السائل. فسؤاله واضح أنه وجيه أو حاجة غيره إن سئل ليعلم غيره فهذا أيضاً طيب، أما إذا سأل ليقول الناس: ما شاء الله فلان عنده حرص على العلم كثير السؤال، وابن عباس رضي الله عنهما يقول: لما سئل بما أدركت العلم؟ قال: «بلسان سؤول وقلب عقول ويدن غير ملول»، فهذا غلط، وعلى عكس من ذلك من يقول: لا أسأل حياءً. فالثاني مُفَرِّط.

والأول - مُفَرِّط، وخير الأمور الوسط.

الثاني - حسن الاتصال. **بإضافات ولا سمحاً**

الثالث - حسن الفهم.

الرابع - الحفظ، وهذا الحفظ ينقسم إلى قسمين: قسم غريزي يهبه الله لمن يشاء، فتجد الإنسان يمر عليه المسألة والبحث فيحفظه ولا ينساه، وقسم آخر كسبي. بمعنى أن يمرن الإنسان نفسه على الحفظ ويتذكر ما حفظ، فإذا عود نفسه تذكر ما حفظ، سهل عليه الحفظ.

الخامسة - التعليم، والذي أرى أن تكون هي السادسة وأن العمل بالعلم قبل السادسة، فيعمل بالعلم ليصلح نفسه قبل أن يبدأ بإصلاح غيره ثم بعد ذلك يعلم الناس. قال النبي ﷺ: **«ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»** (٢). فالعمل به قبل تعليمه. بل قد

(١) أخرجه مسلم (١) في الإيمان.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٣٠) والبيهقي (٤/ ١٨٢).

تقول أن تعليمه من العمل به، لأن من جملة العمل بالعلم أن تفعل ما أوجب الله عليك فيه من بثه ونشره.

٤٠. المناظرة بلا مُماراة (١).

أيك والمماراة، فإنها نعمة، أما المناظرة في الحق، فإنها نعمة، إذ المناظرة الحق فيها إظهار الحق على الباطل، والراجع على المرجوح، فهي مبنية على المناصحة، والحلم، ونشر العلم، أما المماراة في المحاورات والمناظرات، فإنها تحجج ورياء، ولغط وكبرياء، ومغالبة ومراء، واختيال وشحناء، ومُجَاراة للسفهاء، فاحذرهما واحذر فاعلها، تسلم من المآثم وهتك المحارم، وأعرض تسلم وتكبت المآثم والمغرم.

المناظرة والمناقشة تشخذ الفهم وتعطي الإنسان قدرة على المجادلة. والمجادلة في الحق مأمور بها كما قال الله تعالى: **«ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»** (سورة النحل: ١٢٥).

فإذا تمرن الإنسان على المناظرة والمجادلة حصل على خير كثير، وكم من إنسان جادل بالباطل فغلب صاحب الحق لعدم قدرته على المجادلة. لكن المجادلة نوعان: مجادلة المماراة، يماري بذلك السفهاء ويجادل الفقهاء ويريد أن ينتصر قوله، فهذه مذمومة.

والثاني لإثبات الحق وإن كان عليه، فهذه محمودة مأمور بها. وعلامة ذلك = المجادلة الحققة - أن الإنسان إذا بلغه الحق اقتنع وأعلن الرجوع، أما المجادل الذي يريد الانتصار لنفسه فتجده لو بان الحق، وكان ظاهر الحق مع خصمه يورد إيرادات: لو

(١) وانظر: «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: (١٧٢/٢٤ - ١٧٤).

قال قائل. ثم إذا أجيب. ولو قال قائل. ثم إذا أجيب، قال ولو قال قائل. ثم تكون سلسلة لا تنتهي لها، ومثل هذا عليه خطر أن لا يقبل قلبه الحق، لا بالنسبة للمجادلة مع الآخر، لكن حتى في خلوته، ربما يورد الشيطان عليه هذه الإيرادات. قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَّتْهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةً وَنَزَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١١٠). وقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ (سورة المائدة: ٤٩).

فعليك يا أخي ابتغاء الحق سواء كان بمجادلة غيرك أو بمجادلة نفسك متى تبين قل: سمعنا وأطعنا. لهذا تجد الصحابة يقبلون ما حكم به النبي ﷺ وما أخبر به دون أن يوردوا عليه الاعتراضات أو قول: أريت... أريت.

ولهذا جادل رجل عبد الله بن عمر فقال له: أريت؟ قال له: «اجعل أرايت في اليمن». لأنه من أهل اليمن.

عندما سأل أهل العراق عن دم البعوضة. وهل يجوز قتل البعوضة؟! قال: سبحان الله!! أهل العراق يقتلون ابن بنت رسول الله ﷺ ويأتون يسألون عن دم البعوضة!! هذه مجادلة ولا شك.

٤١. مُذَاكِرَةُ الْعِلْمِ:

تتمتع مع البصراء بالمذاكرة والمطارحة، فإنها في مواطن تفوق المطالعة، وتشحذ الذهن، وتقوي الذاكرة، ملتزماً الإنصاف والملاطفة، مبتعداً عن الحيف والشغب والمجازفة. وكُنْ على حذر، فإنها تكشف عوار من لا يصدق. فإن كانت مع قاصر في العلم، بارد الذهن، فهي داء ومنافرة، وأما مذاكرتك مع نفسك في تقليبك لمسائل العلم، فهذا ما لا يسوغ أن تنفك عنه. وقد قيل: إحياء العلم مذاكرته.

وهذا أيضاً الذي ينبغي لطالب العلم أن يقوم به، وهو المذاكرة. والمذاكرة نوعان: مذاكرة مع النفس. ومذاكرة مع الغير.

المذاكرة مع النفس: تجلس مكانك جلسة واحدة، ثم تقلب مسألة من المسائل أو تظنها مثلاً مرت عليك، ثم تأخذ في محاولة ترجيح ما قيل في هذه المسألة بعضها على بعض. يعني ترجيح بعض الأقوال بعضها على بعض في هذه المسألة.

أما المذاكرة مع الغير: فهي أيضاً واضحة يختار الإنسان مع إخوانه من الطلبة - من يكون معه - يعينه على طلب العلم، مفيداً له فيجلس معه ويتذكرا، يقرأ مثلاً ما حفظاه كل واحد يقرأ على الآخر قليلاً أو يتذكرا مسألة من المسائل بالمراجعة أو بالمفاهمة إن قدرا على ذلك، فإنه مما ينمي العلم ويزيده.

ولكن إياك والشغب والصلت، لأن هذا لا يفيد. أنت الآن تحتاج في مقام الإقناع. واعلم أنه لن يقتنع كلما اشتد غضبك عليه، بل ربما إذا اشتد غضبك عليه، اشتد غضبه عليك ثم ضاع الحق بينكما، لكن بالهدوء.

أما لو علمت منه الإعانت، مثل أن تكون أنت أعلم منه وتفهم من العلم ما لا يفهم، ولكن عرفت أن هذا الرجل يريد العنت. فحينئذ لك أن تشدد عليه وأن تقول لن أفهمك لقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ (سورة المائدة: ٤٢). ولهذا قال المؤلف: «فإن كانت مع قاصر في العلم بارد الذهن فهي داء ومنافرة».

٤٢. طَالِبُ الْعِلْمِ يَعِيشُ بَيْنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَعِلْمِهَا:

فهما له كالجنأحين للطائر، فاحذر أن تكون مهيض الجناح. هذا أيضاً من آداب طالب العلم. طالب العلم يعيش بين الكتاب والسنة، كالطائر لا يطير إلا بجناحين إذا انكسر أحدهما لم يطر، إذا لا تراعي السنة وتغفل عن القرآن، أو القرآن وتغفل عن السنة، كثير من طلبة العلم يعتني بالسنة وشروحها

ورجالها، ومصطلحها إعتناء كاملاً، ولكن لو سألتها عن آية من كتاب الله. ما قدم الإجابة، ولا عرف شيئاً.

هذا غلط، لكن لابد أن يكون القرآن والسنة جناحين لك، والجناح الأصل هو القرآن.

وثم أيضاً شيء ثالث - لكن هو داخل في قول المؤلف وعلومها: كلام العلماء، لا تهمل كلام العلماء ولا تغفل عنهم، لأن العلماء أشد منك رسوخاً في العلم، وعندهم من قواعد الشريعة وضوابط الشريعة ما ليس عندك فلا تغفل عنهم.

ولذلك كان العلماء الأجلاء المحققون إذا ترجح عندهم قول يقولون: «إن كان أحد قال به وإلا فلا نقول به».

شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على سعة علمه وإطلاعه، إذا قال قولاً لا يعلم له قائلًا. قال: «أنا أقول به إن كان قد قيل به». ولا يأخذ برأيه، يقول: خلاص أنا فهمت من القرآن كذا ولا عليّ من الناس.

هذا غلط. أنت إذا رأيت أكثر العلماء على قول، فلا تعدل على أكثر العلماء إلا بعد التمحيص والتحقيق، لأنه من المستبعد أن يكون الأقل هم أهل العلم.

منذر أبو سعيد

٤٣ - استكمال أدوات كل فن:

لن تكون طالب علم متقناً متفناً. حتى يلج الجمل في سم الخياط. ما لم تستكمل أدوات ذلك الفن، ففي الفقه بين الفقه وأصوله، وفي الحديث بين علمي الرواية والدراية... وهكذا، وإلا فلا تتعن. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ (سورة البقرة: ١٢١). فيستفاد منها أن الطالب لا يترك علماً حتى يتقنه^(١).

استكمال أدوات كل فن. يريد بذلك: أنك إذا أردت أن تكون طالب علم في فن معين، وهو ما يعرف عندنا بالتخصص، فلا بد أن تكون مستكماً لأدوات ذلك الفن، يعني عندك علماً به، فمثلاً في الفقه إذا كنت تريد أن تكون عالماً بالفقه، فلا بد أن تقرأ الفقه وأصول الفقه لتكون متبحراً فيه، وإلا فيمكن أن تعرف الفقه بدون علم الأصول، ولكن لا يمكن أن تعرف أصول الفقه بدون الفقه. يعني: يمكن أن يستغني الفقيه عن أصول الفقه، لكن لا يمكن أن يستغني الأصولي عن الفقه، إذا كان يريد الفقه.

ولهذا اختلف العلماء، علماء الأصول: هل الأولى لطالب العلم أن يبدأ بأصول الفقه لإبتناء الفقه عليه أو بالفقه لدعاء الحاجة إليه، حيث أن الإنسان يحتاجه في عمله، حاجاته، ومعاملاته قبل أن يفتن إلى أصول الفقه.

والثاني - هو الأولى وهو المتبع غالباً. وهنا استدل بقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ (سورة البقرة: ١٢١). والمراد بالتلاوة هنا: التلاوة اللفظية، والتلاوة المعنوية، والتلاوة العملية، مأخوذة من تلاه إذا اتبعه، فالذين آتاهم الكتاب لا يمكن أن يوصفوا بأنهم أهل الكتاب حتى يتلوه حق تلاوته.

قوله: «وفي الحديث بين علمي الرواية والدراية» يعني بذلك الرواية في أسانيد الحديث ورجال الحديث. والدراية في فهم معناه.

منذر أبو سعيد

الفصل السادس
التحلي بالعمل

٤٤. من علامات العلم النافع:

تسأل مع نفسك عن حظك من علامات العلم النافع، وهي:

١. العمل به.

٢. كراهية التزكية، والمدح، والتكبر على الخلق.

٣. تكاثر تواضعك كلما ازددت علماً.

٤. الهرب من حب التروؤس والشهرة والدنيا.

٥. هجر دعوى العلم.

٦. إساءة الظن بالنفس، وإحسانه بالناس، تنزهاً عن الوقوع بهم.

هذه من علامات العلم النافع:

أولاً. العمل به: وهذا بعد الإيمان، أن تؤمن بما علمت ثم تعمل إذ لا يمكن العمل إلا بإيمان، فإن لم يوفق الإنسان لذلك، بأن كان يعلم الأشياء ولكن لا يعمل بها فعلمه غير نافع، لكن هل هو ضار أم لا نافع ولا ضار؟ هو ضار... لأن النبي ﷺ قال: «القرآن حجة لك أو عليك»^(١) ولم يقل: لا لك ولا عليك فالعلم إما نافع أو ضار. ثانياً. كراهية التزكية، والمدح، والتكبر على الخلق: وهذه ابتلي به بعض الناس، فيزكي نفسه ويرى أن ما قاله هو الصواب وأن غيره إذا خالفه فهو مخطأ وما أشبه

(١) أخرجه أحمد (٣٤٣/٥) وابن ماجه (٢٨٠). ومسلم (٢٢٣).

ومتى كان في المجلس تصدر المجلس، وإذا أراد أحد أن يتكلم يقول: اسكت أنا أعلم منك.

سادساً. إساءة الظن بالنفس، وإحسانه بالناس، تنزهاً عن الوقوع بهم: أن يسيئ الظن بنفسه لأنها ربما تغرّه وتأمّره بالسوء فلا يحسن الظن بالنفس، وكلما أملت عليه أخذ بها.

أما قوله: «إحسانه بالناس» فهذا يحتاج إلى تفصيل. الأصل إحسان الظن بالناس وإنك متى وجدت محملاً حسناً للكلام غيرك فأحمله عليه ولا تسيئ الظن، لكن إذا علم عن شخص من الناس أنه محل لإساءة الظن، فهنا لا حرج أن تسيئ الظن من أجل أن تحترس منه لأنك لو أحسنت الظن به لأفضت إليه كل ما في صدرك، ولكن ليس الأمر كذلك.

وقد كان عبد الله بن المبارك إذا ذكر أخلاق من سلف ينشد:

لَا تَعْرِضَنَّ بِنَكْرِنَا مَعَ ذِكْرِهِمْ ❖❖❖ لَيْسَ الصَّحِيحُ إِذَا مَشَى كَالْمُقْعَدِ

٤٥. زكاة العلم:

أد (زكاة العلم): صادعاً بالحق، أماراً بالمعروف. نهاءً عن المنكر، موازناً بين المصالح والمضار، ناشراً للعلم، وحُبّ النفع، وبَذْلُ الجاه، والشفاعة الحسنة للمسلمين في نوائب الحق والمعروف.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله، إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». رواه مسلم وغيره^(١).

(١) مسلم رقم (١٦٣١/١٤) في الوصية/باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

ذلك، كذلك يحب المدح. تجده يسأل ماذا قالوا لما تحدثوا عنه؟ وإذا قالوا: إنهم مدحوك، انتفخ وزاد انتفاخه حتى يعجز جلده عن تحمل بدنه، كذلك التكبر على الخلق، بعض الناس - والعياذ بالله - إذا آتاه الله علماً تكبر. الغني بالمال ربما يتكبر، ولهذا جعل النبي ﷺ: العائل المستكبر من الذين لا يكلمهم الله عز وجل يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.

لأنه ليس عنده مال يوجب الكبرياء، ولكن العالم لا ينبغي أن يكون كالغني كلما ازداد علماً ازداد تكبراً، بل ينبغي العكس كلما ازداد علماً ازداد تواضعاً، لأن من العلوم التي يقرؤها أخلاق النبي ﷺ، وأخلاقه كلها تواضع للحق، وتواضع للخلق، لكن على كل حال إذا تعارض التواضع للخلق أو الحق. أيهما يقدم؟ التواضع للحق.

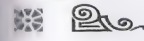
ثالثاً. تكاثر تواضعك كلما ازدادت علماً: وهذا في الحقيقة فرع من الثاني، يعني تتكبر على الخلق، وينبغي كلما ازدادت علماً تزداد تواضعاً.

رابعاً. الهرب من حب التروؤ والشهرة والدنيا: هذه أيضاً قد تكون متفرعة عن كراهية التزكية والمدح، يعني لا تحاول أن تكون رئيساً لأجل علمك، لا تحاول أن تجعل علمك مطية إلى نيل الدنيا، فإن هذا يعني أنك جعلت الوسيلة غاية، والغاية وسيلة، ولكن هل معنى ذلك لو أنك كنت تجادل شخصاً لإثبات الحق هل ينبغي أن تجعل نفسك فوقه أو دونه؟ فوقه لأنك لو شعرت بأنك دونه ما استطعت أن تجادله، أما لو أنك شعرت أنك فوقه من أجل أن الحق معك، فإنك حينئذ تستطيع أن تسيطر عليه.

خامساً. هجر دعوى العلم: معناها: لا تدعي العلم. لا تقول أنا العالم.

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ❖❖❖ متى أضع العمامة تعرفوني

قال بعض أهل العلم^(١): هذه الثلاث لا تجتمع إلا للعالم الباذل لعلمه، فبذله صدقة، ينتفع بها، والمتلقي لها ابن للعالم في تعلمه عليه. فاحرص على هذه الحلية، فهي رأس ثمرة علمك. ولشرف العلم، فإنه يزيد بكثرة الإنفاق، وينقص مع الإسفاق، وأفته الكتمان. ولا تحملك دعوى فساد الزمان، وغلبة الفساق، وضعف إفادة النصيحة عن واجب الأداء والبلاغ، فإن فعلت، فهي فعلة يسوق عليها الفساق الذهب الأحمر، ليتم لهم الخروج على الفضيلة، ورفع لواء الرذيلة.



هذا زكاة العلم. تكون بأمور:

منها: نشر العلم. كما يتصدق الإنسان بشيء من ماله، فهذا العالم يتصدق بشيء من علمه، وصدقة العلم أبقى دواماً وأقل كلفة ومؤنة.

أبقى دواماً لأنه ربما كلمة من عالم تُسمع ينتفع بها فئام^(٢) من الناس ومازلنا الآن ننتفع بأحاديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولم ننتفع ب درهم واحد من الخلفاء الذين كانوا في عهده.

وكذلك العلماء تنتفع بكتبهم وعلومهم، فهذه زكاة. وهذه الزكاة لا تنقص العلم بل تزيده.

يزيد بكثرة الإنفاق منه ❖❖❖ وينقص إن به كفا شددت

ومن زكاة العلم أيضاً: العمل به لأن العمل به دعوة إليه بلاشك، وكثير من الناس يتأسون بالعالم وبأعماله، أكثر مما يتأسون بأقواله وهذا بلاشك زكاة أيما زكاة، لأن الناس يشربون منها ويتفعون.

(١) «تذكرة السامع والمتكلم».

(٢) جماعة.

ومنها أيضاً: ما قاله المؤلف أن يكون صداعاً للحق. وهذا من جملة النشر، ولكن النشر قد يكون في حال السلامة والأمن على النفس، وقد يكون في حالة الخطر، فيكون صداعاً بالحق.

ومنها: أي من تركية العلم - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لاشك أنه من ركة العلم، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو عارف بالمعروف وعارف بالمنكر، ثم قائم بواجبه نحو هذه المعرفة.

والمعروف: كل ما أمر به الله ورسوله. والمنكر: كل ما نهى الله عنه ورسوله. موازناً بين المصالح والمضار. لأنه قد يكون من الحكمة ألاّ تنهى حسب ما تقتضيه المصلحة، فالإنسان ينظر إلى المصالح والمضار.

وقوله: «ناشراً للعلم وحب النفع» يعني تنشر العلم بكل وسيلة للنشر من قول باللسان وكتابة بالبنان. وبكل طريق، وفي عصرنا هذا سخر الله لنا الطرق لنشر العلم، فعليك أن تنتهز هذه الفرصة من أجل أن تنشر العلم الذي أعطاك الله إياه، فإن الله تعالى أخذ على أهل العلم ميثاق أن يبينوه للناس ولا يكتمونه، ثم ساق المؤلف حديث أبي هريرة رضي الله عنه والشاهد في قوله «أو علم ينتفع به».

أما قوله: «قال بعض أهل العلم.. فبذله صدقة ينتفع بها والمتلقي لها ابن للعالم في تعلمه عليه».

هذا قصور. والصواب خلاف ذلك. أن المراد بالصدقة الجارية، صدقة المال. وأما صدقة العلم فذكرها بعده بقوله «أو علم ينتفع به أو ولد صالح» المراد به الولد بالنسب، لا الولد بالتعليم.

فحمل الحديث على أن المراد بالعالم يُعلم فيكون صدقة ويبقى علمه بعد موته ينتفع به ويكون طلابه أبناء له، فهذا لاشك تقصير في تفسير الحديث.

والصواب: أن الحديث دلّ على ثلاثة أجناس مما ينتفع به الإنسان بعد موته الصدقة الجارية، والصدقة إما جارية وإما مؤقتة. فإذا أعطيت فقيراً يشتري طعاماً فهذه صدقة لكنها مؤقتة، وإذا حفرت بئراً ينتفع به المسلمون بالشرب فهذه صدقة جارية.

والأولى أن يقال «ولبركة العلم» فهذا أمثل، لكونه يزيد بكثرة الإنفاق. ووجه زيادته أن الإنسان إذا علّم الناس مكث علمه في قلبه واستقر، وإذا غفل نسي.

ثانياً - أنه إذا علّم الناس فلا يخلو هذا التعليم من الفوائد الكثيرة، بمناقشة أو سؤال، فينمي علمه ويزداد، وكم من أستاذ تعلم من تلاميذه. قد يذكر التلميذ مسألة ما جرت على بال الأستاذ وينتفع بها الأستاذ فلماذا كان بذل العلم سبباً في كثرته وزيادته.

ثم لا تياس ولا تقل: إن الناس غلب عليهم الفسق والمجون والغفلة، لا! أبذل النصيحة ما استطعت ولا تياس لأنك إذا تقاعست واستحسرت فمن يفرح بذلك؟ الفساق والفجار. كما قيل:

خلا لك الجو ❖❖❖ فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري

فلا تياس، فكم من إنسان يأس من صلاحه، ففتح الله عليه وصلاح.

منقري

منذر أبو سعيد

منذر أبو سعيد

٤٦. عزّة العلماء:

التَّحَلِّي بِ (عِزَّةِ الْعُلَمَاءِ): صيانة العلم وتعظيمه، وحماية جناب عزّه وشرفه، ويقدّر ما تبدّله في هذا يكون الكسب منه ومن العمل به، ويقدّر ما تهدرّه يكون الفوت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وعليه، فاحذر أن يتمنّد بك الكبراء، أو يمتطيك السفهاء، فتلاين في فتوى أو قضاء، أو بحث، أو خطاب ... ولا تسع به إلى أهل الدنيا، ولا تقف به على أعتابهم، ولا تبدّله إلى غير أهله وإن عظم قدره.

هذا فيه شيء صواب، وشيء فيه نظر، صيانة العلم وتعظيمه وحماية جنابه، لاشك أنه عزّ وشرف. فإن الإنسان إذا صان علمه عن الدناءة وعن التطلع إلى ما في أيدي الناس، وعن بذل نفسه فهو أشرف له وأعزّ، ولكن كون الإنسان لا يسعى به إلى أهل الدنيا ولا يقف على أعتابهم ولا يبلغه إلى غير أهله وإن عظم قدره فيه تفصيل.

فيقال إذا سعيت به إلى أهل الدنيا وكانوا ينتفعون بذلك فهذا خير، وهو داخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما إن كانوا يقفون من هذا العالم الذي دخل عليهم وأخذ يحدثهم، موقف الساخر المتملل، فهنا لا ينبغي أن يهدي العلم إلى هؤلاء، لأنه إهانة له وإهانة لعلمه. ولنفرض أن رجلاً دخل على أناس من هؤلاء النفر، وجلس، وجعل يتحدث إليهم بأمور شرعية، ولكنه يشاهدهم تتمعر وجوههم، ويتململون ويتغامزون، فهؤلاء لا ينبغي أن يحوم حولهم لأن هذا ذل له ولعلمه.

أما إذا دخل على هؤلاء وجلس وتحدث، ووجد وجوههم تهش، وأفئدة تطمئن، ووجد منهم إقبالا، فهنا يجب أن يفعل، ولكل مقام مقال.

منذر أبو سعيد

لو كان دخل طالب علم صغير على هؤلاء المترفين، فلربما يقفون منه موقف الإستهزاء والسخرية، لكن لو دخل عليهم من له وزن عندهم وعند غيرهم لكان الأمر بالعكس، فلكل مقام مقال.

وَمَتَّعَ بَصْرَكَ وَبَصِيرَتَكَ بِقِرَاءَةِ التَّرَاجِمِ وَالسِّيَرِ لِأَثْمَةِ مَضُوءٍ، تَرَ فِيهَا بِذُلِّ النَّفْسِ فِي سَبِيلِ هَذِهِ الْحِمَايَةِ، لِأَسِيْمًا مِنْ جَمْعٍ مَثَلًا فِي هَذَا، مِثْلُ كِتَابِ «مِنْ أَخْلَاقِ الْعُلَمَاءِ» لِمُحَمَّدِ سُلَيْمَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - (١). وَكِتَابِ «الْإِسْلَامُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَّامِ» لِعَبْدِ الْعَزِيزِ الْبَدْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَكِتَابِ «مَنَاهِجِ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ» لِفَارُوقِ السَّامِرَائِيِّ (٢).

وأرجو أن ترى أضعافاً ما ذكره في كتاب «عِزَّةُ الْعُلَمَاءِ» يَسُرُّ اللَّهُ إِتِمَامَهُ وَطَبْعَهُ. وَقَدْ كَانَ الْعُلَمَاءُ يُلْقِنُونَ طُلَّابَهُمْ حِفْظَ قَصِيدَةِ الْجُرْجَانِيِّ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ (م سنة ٣٩٢ هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا نَجِدُهَا عِنْدَ عَدَدٍ مِنْ مُتَرَجِمِيهِ، وَمُطْلَعُهَا:

ومن أحسن ما رأيت في هذا كتاب «روضة العقلاء» للبسنِي، كتاب عظيم على اختصاره، فيه فوائد عظيمة ومآثر كريمة للعلماء المحدثين وغيرهم، وكان مقرراً في المعاهد أيام كنا ندرس في المعهد، مقرراً كتاب مطالعة للطلاب وانتفع به الكثير.

أما ما ذكره الشيخ بكر، بعضها اطلعنا عليه، وبعضها لم نطلع عليه، لكن بعضها مختصر جداً، لا يستفيد الإنسان منه كثير فائدة. لكن سير أعلام النبلاء مفيد أيضاً فائدة كبيرة، فمراجعتة عظيمة. أما كتاب «عِزَّةُ الْعُلَمَاءِ» فهو من كتابات المؤلف، وهو يدعو الله تعالى أن ييسر إتمامه وطبعه.

(١) مطبوع مراراً.

(٢) طبع بجدة عام ١٤٠٧ هـ، نشر دار الوفاء بجدة.

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ❖❖❖ رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْضِعِ الدُّلِّ أَحْجَمًا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عِنْدَهُمْ ❖❖❖ وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أَكْرَمًا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ❖❖❖ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النَّفْسِ لَعَظَّمُوا
• (لَعَظَّمُوا)، بفتح الظاء المعجمة المشالة.

هذا الضبط فيه نظر، والظاهر: ولو عظموه في النفوس لَعَظَّمُوا. يعني لكان عند الناس عظيمًا، لكنهم لم يعظموه في النفوس، بل أهانوه وبذلوه لكل غالٍ ورخيص. وهذه مرت عليّ في البداية والنهاية لابن كثير في ترجمة الناظم الذي نظمها.

صيانة العلم:

إِنْ بَلَغْتَ مَنْصِبًا، فَتَذَكَّرْ أَنَّ حَبْلَ الْوَصْلِ إِلَيْهِ طَلَبُكَ لِلْعِلْمِ، فَبِضَلِّ اللَّهُ ثُمَّ بِسَبَبِ عِلْمِكَ بَلَغْتَ مَا بَلَغْتَ مِنْ وِلَايَةٍ فِي التَّعْلِيمِ، أَوِ الْفُتْيَا، أَوِ الْقَضَاءِ ...
وهكذا، فأعطِ الْعِلْمَ قَدْرَهُ وَحَظَّهُ مِنَ الْعَمَلِ بِهِ وَإِنزَالِهِ مِنْزِلَتَهُ. وَاحْذَرْ مَسْلَكَ
مَنْ لَا يَرْجُوَنَّ لِلَّهِ وَقَارًا، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْأَسَاسَ (حِفْظُ الْمَنْصِبِ)، فَيَطْوُونَ
أَسْنَتَهُمْ عَنْ قَوْلِ الْحَقِّ، وَيَحْمِلُهُمْ حُبُّ الْوِلَايَةِ عَلَى الْمَجَارَةِ. فَالْزَمْ رَحِمَكَ
اللَّهُ. الْمُحَافَظَةُ عَلَى قِيَمَتِكَ بِحِفْظِ دِينِكَ، وَعِلْمِكَ، وَشَرَفِ نَفْسِكَ، بِحِكْمَةٍ
وَدِرَايَةٍ وَحُسْنِ سِيَاسَةٍ: «أَحْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ» «أَحْفَظْ اللَّهَ فِي الرِّخَاءِ
يَحْفَظْكَ فِي الشَّدَةِ ...».

إذا أراد بهذا الحديث، فليس هذا لفظ الحديث، والجملة الثانية «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»، هذا نص الحديث.

يريد بهذه الآداب: أن الإنسان يصون علمه، فلا يجعله مبتذلاً، بل يجعله محترماً، معظمًا، فلا يلين في جانب من لا يريد الحق، بل يبقى طوراً شامخاً، ثابتاً، وأما أن يجعله الإنسان سبيلاً إلى المداينة وإلى المشي فوق بساط الملوك وما أشبه ذلك، فهذا أمر لا ينبغي، ولم يكن الإنسان صائناً لعلمه إذا سلك الإنسان هذا المسلك.

والواجب قول الحق، لكن قول الحق قد يكون في مكان دون مكان، والإنسان ينتهز الفرصة فلا يفوتها، ويحذر الذلة فلا يقع فيها.

قد يكون من المستحسن أن لا أتكلم في هذا المكان بشيء، وأن أتكلم في مكان آخر، لأنني أعرف أن كلامي في الموضوع الآخر أقرب إلى القبول والاستجابة. فلكل مقام مقال، ولهذا يقال: «بحكمة ودراية وحسن سياسة»، فلا بد أن الإنسان يكون عنده علم ومعرفة وسياسة، بحيث يتكلم إذا كان للكلام محل، ويسكت إذا كان ليس للكلام محل.

وقوله: «وفي الحديث **«احفظ الله يحفظك»**» يعني: احفظ حدود الله كما قال الله تعالى في سورة التوبة: **﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾** (سورة التوبة: ١١٢). فلا ينتهكونها بفعل محرم، ولا يضيعونها بترك واجب.

وقوله «يحفظك» يعني في دينك ودنياك وفي أهلك ومالك. فإن قال قائل: إننا نرى بعض الحافظين لحدود الله يصيبهم ما يصيبهم. فنقول: هذا زيادة في تكفير سيئاتهم ورفع درجاتهم، ولا ينافي قوله **﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾** مع **«احفظ الله يحفظك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»** قوله «يعرفك» لا تظن أن الله تعالى لا يعرف الإنسان إذا لم يتعرف إليه، لكن هذه معرفة خاصة، فهي كالنظر الخاص المنفي عمن نُفي عنه كما في قوله تعالى: **﴿وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾** (سورة آل عمران: ٧٧). مع أن الله لا يغيب عن نظره شيء، لكن النظر، نظران:

نظر خاص، ونظر عام. كذلك المعرفة: معرفة خاصة، ومعرفة عامة. والمراد هنا المعرفة الخاصة.

بقي أن يقال: إن المشهور عند أهل العلم أن الله تعالى لا يوصف بأنه عارف. يُقال: عالم، ولا يقال عارف.

وفرقوا بين العلم والمعرفة^(١). بأن المعرفة تكون للعلم اليقيني والظني وأنها - أي معرفة - انكشاف بعد خفاء. وأما العلم فليس كذلك.

فنقول ليس المراد بالمعرفة هنا ما أراده الفقهاء أو أراده الأصوليون إنما المراد بالمعرفة هنا: أن الله تعالى يزداد عناية لك ورحمة بك، مع علمه بأحوالك - عز وجل.

وإن أَصْبَحْتَ عاطلاً من قلادة الولاية - وهذا سبيلك ولو بعد حين - فلا بأس، فإنه عزلٌ محمّدة لا عزلٌ مذمّة ومنقصة.

هذه قاعدة مهمة: وهي أن الإنسان إذا أصبح عاطلاً عن قلادة الولاية، - وهذا سبيلك ولو بعد حين - يعني سوف تترك الولاية ولو بقيت في الولاية حتى الموت فإنك ستتركها لابد.

وقوله: «فلا بأس، فإنه عزلٌ محمّدة لا عزلٌ مذمّة ومنقصة». هذا أيضاً ليس على عمومته، لأن من الناس من يُعزل عزلٌ محمّدة وعزة لكونه يقوم بالواجب عليه من

(١) انظر - غير مأمور - تعريف العلم وما قيل فيه في: المعتمد للبصري (١/ ١٠)، البرهان لإمام الحرمين (١/ ٩٧)، شرح اللمع للشيرازي (١/ ٤٤٦)، المستصفى للغزالي (١/ ٢٤)، المحصول للرازي (١/ ١٢)، الأحكام للأمدى (١/ ١٣)، المسودة (ص ٥١٤)، نهاية الوصول للهندي (١/ ٦)، شرح مختصر الطوخى (٢/ ١٥٣)، شرح العضد على ابن الحاجب (١/ ٤٧)، شرح المواقف للسيد الشريف الجرجاني (١/ ٧١)، التعريفات (ص ١٣٥)، البحر المحيط (١/ ٥١)، شرح المحلى على جمع الجوامع مع حاشية العطار (١/ ٢٠٣)، الآيات البينات للعبادي (١/ ٢٢٢)، إرشاد الفحول (ص ٣).

الملاحظة والنزاهة، لكن يضيق على من تحته فيحفرون له حتى يقع، وهذا كثير مع الأسف. ومن الناس من يُعزل لأنه قد تبين أنه ليس أهلاً للولاية، فهل هذا العزل عزل محمداً أم عزل مذمة؟ عزل مذمة لا شك.

ومن العجيب أن بعض من حُرِمَ قَصْداً كبيراً من التَّوْفِيقِ لا يكون عنده الالتزام والإنابة والرجوع إلى الله إلا بعد (التقاعُد) فهذا وإن كانت توبته شرعية، لكن دينه ودين العجائز سواء، إذ لا يتعدى نفعه، أما وقت ولايته، حال الحاجة إلى تعدي نفعه، فتجده من أعظم الناس فجوراً وضرراً، أو بارد القلب، أخرس اللسان عن الحق. فنعوذ بالله من الخذلان.

من العجب أن بعض الناس إذا عُزل عن الولاية وترك المسؤولية إزداد إنابة إلى الله عز وجل، لأنه إن عُزل في حالة يُحمد عليها لجأ إلى الله وعرف أنه لا يغنيه أحد عن الله عز وجل، وعرف افتقاره إلى الله تبارك وتعالى، فصلحت حاله. وإن كان انفصاله إلى غير ذلك فلربما يَمُنُّ الله عليه بالتوبة لتفرغه وعدم تحمله المسؤولية، فيعود إلى الله تبارك وتعالى.

وأما قوله: «وأما في وقت ولايته، وقت تعدي نفعه، فتجده من أعظم الناس فجوراً وضرراً» هذا موجود بلا شك، لكنه ليس كثيراً في الناس، والحمد لله. لكن من الناس من يكون متهاوناً في أداء وظيفته، فإذا تركها رجع إلى الله عز وجل.

٤٨. المداواة لا المداهنة:

المداهنة خُلِقَ مُنْحَطّاً أما المداواة، فلا، لكن لا تَخْلُطُ بينهما، فتحملك المداهنة إلى حصار النفاق مجاهرة، والمداهنة هي التي تَمَسُّ دينك^(١).

لا بد أن تعرف ما الفرق بين المداهنة والمداواة.

المداهنة: أن يرضى الإنسان بما عليه قبيله، كأن يقول: لكم دينكم ولي دين، ويتركهم.

وأما المداواة: فهو أن يعزم في قلبه على الإنكار عليه، لكنه يداريه فيتألفه تارة، ويؤجل الكلام تارة أخرى، وهكذا حتى تتحقق المصلحة.

فالفرق بين المداواة والمداهنة، أن المداواة يراد بها الإصلاح لكن على وجه الحكمة والتدرج في الأمور.

وأما المداهنة، فإنها الموافقة ولهذا جاءت بلفظ الدهن، لأن الدهن يسهل الأمور، والعامّة يقولون في أمثالهم: ادهن السيل يسير يعني: اعطي الرشوة إذا أردت أن تمشي أمورك.

(١) انظر «الغرائب» للأجري: (ص ٧٩-٨٠) مهم، و«روضة العقلاء»: (ص ٧٠) لابن حبان

٤٩. الغرام بالكتب^(١):

شَرَفَ العلمَ معلومٌ، لِعُمومِ نفعِهِ، وشِدَّةِ الحاجةِ إليه كحاجةِ البدنِ إلى الأنفاسِ، وظهورُ النقصِ بِقَدَرِ نقصِهِ، وحصولُ اللذةِ والسُّرورِ بِقَدَرِ تحصيلِهِ، ولهذا اشتدَّ غَرَامُ الطُّلَّابِ بِالطَّلَبِ، والغرامُ بجمعِ الكُتُبِ مع الانتقاءِ، ولهم أخبارٌ في هذا تطولُ، وفيه مَقِيدَاتٌ في «خبر الكتاب» يسرُّ الله إتمامَهُ وطبعَهُ. وعليه، فأحرزَ الأصولُ من الكُتُبِ، وأعلمَ أنه لا يُغْنِي منها كتابٌ عن كتابٍ، ولا تحسُرُ مكتبتك وتُشَوِّشُ على فكرِكَ بالكُتُبِ الغثائيةِ، لاسيما كُتُبَ المبتدعةِ، فإنَّها سُمُّ نافعٌ.

جمع الكتب مما ينبغي لطالب العلم أن يهتم به، ولكن يبدأ بالأهم فالأهم. فإذا كان الإنسان قليل الراتب فليس من الخير ولا من الحكمة أن يشتري كتباً كثيرة يلزم نفسه بغرامة قيمتها، فإن هذا من سوء التصرف.

ولذلك لم يأمر النبي ﷺ الرجل الذي أراد أن يزوجه ولم يجد شيئاً، أن يقترض ويستدين.

واحرص على كتب الأمهات، الأصول، دون المؤلفات الحديثة لأن بعض المؤلفين حديثاً ليس عنده علم راسخ، ولهذا إذا قرأت كتاباً ما تجد أنه سطحي، قد ينقل الشيء بلفظه، وقد يحرفه إلى عبارة طويلة، لكنها غثاء.

فعليك بالأمهات، عليك بالأصل ككتب السلف، فإنها خيرٌ وأبرك بكثير من كتب الخلف.

(١) انظر: «روضة المحبين»: (ص ٦٨-٦٩) مهم، و«مفتاح دار السعادة»: (ص ٨١) ففيهما أخبار طريفة وحكايات طريفة.

ثم احذر أن تضم مكتبتك الكتب التي ليس فيها خير، لا أقول التي فيها ضرر، بل أقول التي ليس فيها خير لأن الكتب تنقسم إلى ثلاثة أقسام: خير، وشر، ولا خير ولا شر.

فاحرص أن تكون مكتبتك خالية من الكتب التي ليس فيها خير. هناك كتب يقال لها كتب أدب، لكنها تقطع الوقت وتقتله من غير فائدة، هناك كتب غامضة ذات أفكار معينة ومنهج معين، فهذه أيضاً لا تدخل مكتبتك.

٥٠. قوام مكتبتك:

عليك بالكُتُبِ المنسوجة على طريقة الاستدلال، والتفقه في علل الأحكام، والغوص على أسرار المسائل، ومن أجلها كُتِبَ الشيخين: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وتلميذه ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى. وعلى الجادة في ذلك من قبل ومن بعد كُتِبَ:

١. الحافظ ابن عبد البر (م سنة ٤٦٣ هـ) رحمه الله تعالى، وأجل كتبه «التمهيد».

٢. الحافظ ابن قدامة (م سنة ٦٢٠ هـ) رحمه الله تعالى، وأساس كتبه «المغني».

٣. الإمام الحافظ النووي (م سنة ٦٧٦ هـ) رحمه الله تعالى.

٤. الحافظ الذهبي (م سنة ٧٤٨ هـ) رحمه الله تعالى.

٥. الحافظ ابن كثير (م سنة ٧٧٤ هـ) رحمه الله تعالى.

٦. الحافظ ابن رجب (م سنة ٧٩٥ هـ) رحمه الله تعالى.

٧. الحافظ ابن حجر (م سنة ٨٥٢ هـ) رحمه الله تعالى.

٨. الحافظ الشوكاني (م سنة ١٢٥٠ هـ) رحمه الله تعالى.

٩. الإمام محمد بن عبد الوهاب (م سنة ١٢٠٦ هـ) رحمه الله تعالى.

١٠. كتب علماء الدعوة ومن أجمعها «الدرر السنية».

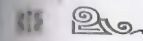
١١. العلامة الصنعاني (م سنة ١١٨٢هـ) رحمه الله تعالى، لاسيما كتابه. النافع

«سبل السلام».

١٢. العلامة صديق حسن خان القنوجي (م سنة ١٣٠٧هـ) رحمه الله تعالى.

١٣. العلامة محمد الأمين الشنقيطي (م سنة ١٣٩٣هـ) رحمه الله تعالى. لاسيما

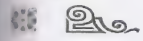
كتابه: «أضواء البيان».



هذا أيضاً مهم، أن يختار الإنسان في مكتبته الكتب الأصيلة القديمة، لأن غالب المتأخرين قليلة المعاني، كثيرة المباني، تقرأ صفحة كاملة يمكن أن تلخصها في سطر أو سطرين مع التعرّيج والمطاب والتعزيزات في بعض الكلمات التي لا تفهم إلا بعد افتراض، لكن كتب السلف تجدها سهلة لينة رصينة، لا تجد كلمة واحدة ليس لها معنى.

٥١. التعامل مع الكتاب:

لا تستفد من كتاب حتى تعرف اصطلاح مؤلفه فيه، وكثيراً ما تكون المقدمة كاشفة عن ذلك، فابدأ من الكتاب بقراءة مقدمته.



التعامل مع الكتاب يكون بأمور:

الأول - معرفة موضوعه، حتى يستفيد الإنسان منه لأنه يحتاج إلى التخصص.

الثاني - أن تعرف مصطلحاته، وهذا في الغالب يكون في المقدمة، لأن معرفة المصطلحات يحصل بها في الواقع أنك تحفظ أوقات كثيرة، وهذا يفعله الناس في مقدمات الكتب، فمثلاً نعرف أن صاحب بلوغ المرام إذا قال: متفق عليه، يعني رواه البخاري ومسلم. لكن صاحب المتقى إذا قال: متفق عليه في الحديث يعني أنه رواه

الإمام أحمد والبخاري ومسلم. كذلك أيضاً كتب الفقه يفرق بين القولين، الوجهين، الروايتين، والإحتمالين، كما يعرف الناس من تتبع كتب الفقهاء. الروايتين عن الإمام، والوجهين عن أصحابه، لكن أصحاب المذهب الكبار أهل التوجيه، والإحتمالين للتردد بين قولين: والقولين أعم من ذلك كله.

كذلك يحتاج أن تعرف إذا قال المؤلف: إجماعاً أو إذا قال: وفقاً. إذا قال: إجماعاً يعني بين الأمة، وفقاً مع الأئمة الثلاثة كما هو اصطلاح صاحب الفروع في فقه الحنابلة.

الثالث - معرفة أسلوبه وعباراته، ولهذا تجد أنك إذا قرأت الكتاب أول ما تقرأ لاسيما من الكتب العلمية المملوءة علماً، تجد أنك تمر بك العبارات تحتاج إلى تأمل وتفكير في معناها، لأنك لم تألفها فإذا كررت هذا الكتاب ألفته، وانظر مثلاً إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، الإنسان الذي لا يتمرن على كتبه يصعب أن يفهمها لأول مرة، لكن إذا تمرن عرفها بيسر وسهولة.

أما ما يتعلق بأمور خارجي عن التعامل مع الكتاب، وهو التعليق بالهامش أو بالخواشي، فهذا أيضاً مما يجب لطالب العلم أن يغتنمه، وإذا مرت به مسألة تحتاج إلى شرح أو دليل أو إلى تعليق ويخشى أن ينساها فإنه يعلقها، إما بالهامش وهو الذي على يمينه أو يساره وإما بالحاشية، وهي التي تكون أسفل.

وكذلك أيضاً إذا كان الكتاب فيه فقه مذهب من المذاهب ورأيت أنه يخالف المذهب في حكم هذه المسألة، فإنه من المستحسن أن تقيّد المذهب في الهامش أو الحاشية حتى تعرف أن الكتاب خرج عن المذهب، ولاسيما إذا كان المذهب أقوى مما ذهب إليه صاحب الكتاب.

٥٢. ومنه:

إذا حُزَّتْ كتاباً، فلا تُدْخِلْهُ في مكتبتك إلا بعد أن تَمُرَّ عليه جِرداً، أو قراءة مُقدِّمته، وفهرسه، ومواضع منه، أمّا إن جعلته مع فنّه في المكتبة، فَرُبَّما مَرَّ زمان وفات العُمُرُ دونَ النَّظَرِ فيه، وهذا مُجَرَّبٌ، والله المُوَفِّقُ.

٥٣

هذا صحيح . . . وهو حاصل كثيرًا، أكثر ما يكون في حال الإنسان إذا جاء كتاب جديد يتصفحه، أو إذا كان كثيرًا يقرأ الفهرس. قلَّ أن تجد شخصًا - مثلاً - أو مر بك حال من حين يأتيك الكتاب أن تقرأه هذا قليل.

وإنما قال الشيخ هذا، لأجل إن احتجت إلى مراجعته عرفت أنه يتضمن حكم الذي تريد، أما إذا لم تجرده مراجعة ولو مرورًا فإنك لا تدري ما فيه من الفوائد والمسائل، فيفوتك شيء كثير موجود في هذا الكتاب الذي عندك في الرف.

٥٣. إجماع الكتابة:

إذا كَتَبْتَ فأعجم الكتابة بإزالة عجمتها، وذلك بأمر:

١. وُضُوحِ الخَطِّ.
٢. رَسْمُهُ على ضوءِ قواعدِ الرسمِ (الإملاء). وفي هذا مؤلِّفات كثيرة من أهمها: «كتابُ الإملاء» لحُسينِ والي^(١). «قواعد الإملاء» لعبد السلام محمد هارون^(٢). «المُفْرَدُ العِلْمُ» للهاشمي، رحمهم الله تعالى^(٣).

(١) طبع ثم صور عام ١٤٠٥ هـ، بيروت/ دار القلم.

(٢) طبع الخانجي بمصر عام ١٣٩٩ هـ، الطبعة الرابعة.

(٣) الطبعة الثانية والعشرون، المكتبة البخارية الكبرى بمصر.

٣. النِّقْطُ لِلْمُعْجَمِ والإِهْمَالُ لِلْمُهْمَلِ^(١).

٤. الشَّكْلُ لما يُشَكِّلُ.

٥. تثبیت علامات الترقیم في غیر آیه أو حدیث^(٢).



لا بد أن تكون عالمًا، أخشى أن تقع في قول القائل: يريد أن يعربه فيعجمه، لا بد أن تكون عالمًا بالنحو، وإذا شكلت عليك الكلمة فأرجع إلى مظاهرها، إذا أشكل عليك تركيب الكلمة أو حركاتها في تركيبها لا في إعرابها فأرجع إلى كتب اللغة لأن هناك أخطاء شائعة بين الناس، مثلاً يقولون: تجربة وتجارب. ثم ذكر قواعد إملائية يجب مراعاتها.



(١) لأن الترك يؤدي إلى الاشتباه.

(٢) «الترقيم وعلاماته»، أحمد زكي باشا، طبع عام ١٣٣٠ هـ.

الفصل السابع

المحاذير

٥٤. حِلْمُ الْيَقَظَةِ:

إِيَّاكَ وَ (حِلْمُ الْيَقَظَةِ)، وَمِنْهُ بَأْنُ تَدْعِي الْعِلْمَ لِمَا لَمْ تَعْلَمْ، أَوْ إِتْقَانَ مَا لَمْ تَتَّقِنَ، فَإِنْ فَعَلْتَ؛ فَهُوَ حِجَابٌ كَثِيفٌ عَنِ الْعِلْمِ.

هذا صحيح . . . أحياناً بعض الناس يُرِي الحاضرين بأنه عالم مطلع، فتجده إذا سئل . . . يسكت قليلاً - كأنه يتأمل ويطلع على الأسرار ثم يرفع رأسه ويقول: هذه المسألة فيها قولان للعلماء!!

فلا تدعي ولا تنصب نفسك عالماً مفتياً وأنت لا علم عندك؛ لأن هذا من السفه بالعقل وضلال في الدين. ولهذا قال: «إِنْ فَعَلْتَ فَهُوَ حِجَابٌ كَثِيفٌ عَنِ الْعِلْمِ».

٥٥. احْذَرِ أَنْ تَكُونَ «أَبَا شَيْءٍ»^(١)

فَقَدْ قِيلَ: الْعِلْمُ ثَلَاثَةُ أَشْبَارٍ، مَنْ دَخَلَ فِي الشَّبَرِ الْأَوَّلِ، تَكَبَّرَ، وَمَنْ دَخَلَ فِي الشَّبَرِ الثَّانِي، تَوَاضَعَ، وَمَنْ دَخَلَ فِي الشَّبَرِ الثَّالِثِ، عِلْمٌ أَنَّهُ مَا يَعْلَمُ.

يتكبر لأنه ما عرف نفسه حقيقةً، والثاني تواضع، لكن يرى نفسه عالماً، والثالث يرى نفسه جاهلاً لا يعلم.

(١) تذكرة السامع والمتكلم: ص ٦٥.

شرح كتاب حلية طالب العلم

فضيلة الشيخ ابن عثيمين

لكن هذه الأخيرة محمودة أم لا؟ لو رأيت نفسك جاهلاً فاعلم أنك لن تقدم على عزم في الفتيا، ولذلك ترى بعض طلبة لا يعطيك جزماً يقول: الذي يظهر... يحتمل... إلخ.

مادام الله فتح عليك وكنت عالماً حقاً، فاعتبر نفسك عالماً... اجزم بالمسألة، لا تجعل الإنسان السائل طريق الاحتمال، وإلا ما أفدت الناس. أما الإنسان الذي ليس عنده علم ومتمكن فهذا ينبغي أن يرى نفسه غير عالم.

٥٦. التَّصَدُّرُ قَبْلَ التَّأْهِلِ:

احذر التصدر قبل التأهل، فهو آفة في العلم والعمل. وقد قيل: مَنْ تَصَدَّرَ قَبْلَ أَوَانِهِ، فَقَدْ تَصَدَّى لِهَوَانِهِ.

هذا أيضاً مما يجب الحذر منه، أن يتصدر الإنسان قبل أن يكون أهل للتصدر؛ لأنه إذا فعل ذلك كان هذا دليلاً على أمور:

الأول - إعجابه بنفسه، حيث تصدر فهو يرى نفسه علم الأعلام.

الثاني - أن ذلك يدل على عدم فقهه ومعرفته بالأمور، وإذا الناس رأوه متصدراً، أوردوا عليه من المسائل ما يبين عواره.

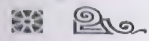
الثالث - إنه إذا تصدر قبل أن يتأهل، لزمه أن يقول على الله ما لا يعلم، لأن غالب من كان هذا قصده الغالب أنه لا يبالي أن يحطم العلم تحطيماً وأن يجب عن كل ما سئل عنه.

الرابع - أن الإنسان إذا تصدر فإنه في الغالب لا يقبل الحق، لأنه يظن بسفهفه أنه إذا خضع لغيره، وإن كان معه الحق كان هذا دليلاً على أنه ليس بأهل في العلم.

٥٧. التَّثَمُّرُ بِالْعِلْمِ:

احذر ما يتسلى به المفلسون من العلم، يراجع مسألة أو مسألتين. فإذا كان في مجلس فيه مَنْ يُشارُ إليه، أثار البحث فيهما؛ ليُظهرَ علمه! وكم في هذا من سواة، أقلها أن يعلم أن الناس يعلمون حقيقته.

وقد بينت هذه مع أخوات لها في كتاب «التعالم»، والحمد لله رب العالمين.



يأتي الإنسان بمسألة من المسائل ويبحثها ويحققها بأدلتها ومناقشة العلماء، عالم يشار إليه بالبنان يقول: ماذا تقول أحسن الله إليك في كذا وكذا؟ قال: هذا حرام. قال كيف؟ بماذا نجيب علي قول النبي ﷺ كذا وعن قول فلان بكذا ويجب بالأدلة التي لا يعرفها العالم؛ لأن العالم ليس ملماً بكل شيء، لكي يظهر نفسه أنه أعلم من هذا العالم، ولذلك تجد العوام يتحدثون: والله فلان البارحة جالس مع فلان - كبير من العلماء - وأفحمه في المسألة وصار كبير كبار العلماء.

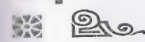
وهذا واقع كثير من العلماء الآن وطلبة العلم، يكون له اختصاص معين كان يدرس باب النكاح مثلاً ويحقق فيه. لكن لو تخرج به إلى باب البيع - الذي هو قبل باب النكاح في ترتيب الفقهاء - لن تجد عنده شيئاً، كثير من الناس الآن يتنمر في علم الحديث، يقول روى فلان عن فلان وفيه انقطاع، وسبب انقطاعه كذا. ثم لو تسأله عن آية من كتاب الله ما أجاب.

٥٨. تحبير الكاغد:

كما يكون الحذر من التأليف الخالي من الإبداع في مقاصد التأليف الثمانية^(١)، والذي نهايته «تحبير الكاغد»^(٢)، فالحذر من الاشتغال بالتصنيف قبل استكمال أدواته، واكتمال أهليته، والنضوج على يد أسيادك، فإنك تسجل به عاراً، وتبدي به شئاراً.

أما الاشتغال بالتأليف النافع لمن قامت أهليته، واستكمل أدواته، وتعددت معارفه، وتمرس به بحثاً، ومراجعة، ومطالعة، وجرداً لمطولاته، وحفظاً لمختصراته، واستذكراً لمسائله، فهو من أفضل ما يقوم به النبلاء من الفضلاء.

ولا تنس قول الخطيب: «من صنف، فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس».



هذه الشروط التي ذكرها، الآن متعذرة. الآن تجد رسائل في مسألة معينة يكتبها أناس ليس لهم ذكر ولا معرفة، وإذا تأملت ما كتبوه وجدت أنه ليس صادراً عن علم راسخ، وأن كثيراً منه نقولات، وأحياناً ينسبون النقل إلى قائله، وأحياناً لا ينسبون، وعلى كل حال نحن لا نتكلم عن النيات، فالنية علمها عند الله عز وجل. لكن نقول: انتظر... انتظر.

وإذا كان لديك علم وقدرة فاشرح هذه الكتب الموجودة شرحاً لأن بعض هذه الكتب لا يوجد فيه الدليل على وجه كامل.

(١) أول من ذكر ابن حزم في «نقطة العروس»، وانظر تسلسل العلماء لذكرها في «إضاءة الراموس» (٢٨٨/٢) مهم.

(٢) هو القرطاس: فارسي معرب.

٥٩. موقوفك من وهم من سبقك:

إذا ظفرت بوهم لعالم، فلا تفرح به للحط منه، ولكن افرح به لتصحيح المسألة فقط؛ فإن المنصف يكاد يجزم بأنه ما من إمام إلا وله أغلاط وأوهام، لاسيما أكثرين منهم.

وما يشغب بهذا ويفرح به للتقص، إلا متعالم «يريد أن يطب زكاماً فيحدث به جذاماً»^(١).

نعم؛ ينبه على خطأ أو وهم وقع لإمام غمر في بحر علمه وفضله، لكن لا يثير الرهج عليه بالتقص منه، والحط عليه فيغتر به من هو مثله.

هذا أيضاً مهم جداً، وهو موقف الإنسان من وهم من سبقه أو من عاصره أيضاً. هذا الموقف له جهتان:

الجهة الأولى - التصحيح وهذا أمر واجب، ويجب على كل إنسان عثر على وهم إنسان - ولو كان من أكابر العلماء في عصره - أو فيمن سبقه - يجب عليه أن ينبه على هذا الوهم وعلى هذا الخطأ، لأن بيان هذا الوهم أمر واجب، ولا يمكن أن يضيع الحق لاحترام من قال بالباطل، لأن احترام الحق أولى من مراعاته.

لكن هل يصرح بذكر قائل الخطأ أو الوهم، أو يقول: توهم بعض الناس وقال كذا وكذا؟ هذا ينظر إلى المصلحة. قد يكون من المصلحة ألا يصرح، كما لو كان يتكلم عن عالم مشهور في عصره، موثق عند الناس محبوب إليهم. فيقول: قال فلان كذا وكذا خطأ، فإن العامة لا يقبلون منه شيئاً بل يسخرون به، ويقولون: من أنت حتى ترد على فلان، ولا يقبلون الحق. ففي هذه الحال يجب أن يقول: من الوهم أن يقول القائل كذا وكذا. ولا يقل: فلان.

وقد يكون هذا الرجل - الذي توهم - متبوعاً يتبعه شرذمة من الناس وليس له قدر في المجتمع، فحينئذ يصرح، لئلا لا يغتر الناس به، فيقول: قال فلان كذا وكذا وهو خطأ.

الجهة الثانية - في موقف الإنسان من وهم من سبقه أو من عاصره أن يقصد بذلك بيان معاييه لا إظهار الحق من الباطل.

وهذه إنما تقع من إنسان حاسد - والعياذ بالله - يتمنى أن يجد قولاً ضعيفاً أو خطأ لشخص ما، فيشره بين الناس ولهذا نجد أهل البدع يتكلمون في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وينظرون إلى أقرب شيء يمكن أن يقدح به، فينشرونه ويعيونه، فيقولون: خالف الإجماع في أن الثلاث طلاقات واحدة، فيكون هذا شاذاً. ومن شذو شذ في النار، يحكم بأن الإنسان إذا قال لإمرأته أنت طالق، بأن يكفر كفارة يمين، مع أنه لم يتكلم باليمين إطلاقاً، وإنما قال: إذا فعلت كذا فأنت طالق مثلاً.

يقول بأن الله تعالى لم يزل فعلاً ولم يزل فاعلاً، وهذا يستلزم أن يكون مع الله قديم، لأن هذه المقولات الواقعة بفعل الله، إذا جعل فعل الله قديماً لم يزل، لزم أن تكون المفعولات قديمة، فيكون قد قال بوجود إلهين . . . وما أشبهها من هذه الكلمات التي يأخذونها زلة من زلاته يشيعونها بين الناس، مع أن الصواب معه. لكن الحاسد الناقم - والعياذ بالله - له مقام آخر.

فأنت في وهم من سبقك يجب أن يكون قصدك الحق، ومن كان قصده الحق وفق للقبول، أما من كان قصده أن يظهر عيوب الناس، فإن من تتبع عورة أخيه، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في بيت أمه.

ثم يقول: «إذا ظفرت بوهم لعالم فلا تفرح به للحط منه، ولكن افرح به لتصحيح المسألة فقط». والحقيقة إنني أقول: لا تفرح به إطلاقاً، إذا عثرت على وهم عالم فحاول أن

تدفع اللوم عنه وأن تذب عنه، لاسيما إذا كان من العلماء المشهود لهم بالعدالة والخير ونصح الأمة.

أما أن أفرح بها، فهذا لا ينبغي حتى وإن كان قصدي تصحيح الخطأ. ولهذا لو كانت العبارة «إذا ظفرت بوهم عالم فلا تفرح به للحط منه ولكن التمس العذر له وصحح الخطأ» هذا صواب العبارة.

ثم قال: «فإن المنصف يكاد يجزم بأنه ما من إمام إلا وله أغلاط وأوهام، ولاسيما المكثرين منهم». والأفصح أن يقول: «لاسيما المكثرون منهم».

يقول أن المنصف يعني الذي يتكلم بالعدل ويتبع أقوال العلماء يعلم أنه ما من عالم إلا وله أوهام وأخطاء، ولاسيما المكثرون الذين يكثر الكتابة والفتوى. ولهذا قال بعضهم: من كثر كلامه، كثر سقطه. ومن قل كلامه، قل سقطه.

ثم قال: «وما يُشغِبُ بهذا ويفرح به للمتقص، إلا متعالم» يريد أن يُطبَّ زُكَّاماً فيحدث به جذاماً.

في الحقيقة لا يفرح به للمتقص إلا إنسان معتدي لا متعالي. معتدي يريد العدوان على الشخص نفسه، ويريد العدوان على العلم الصحيح، لأن الناس إذا وجدوا هذا العالم أخطأ في مسألة ضعف قوله، أو ضعفت قوة قوله عندهم حتى في المسائل الصحيحة.

٦٠. دَفْعُ الشُّبُهَاتِ (١):

لَا تَجْعَلْ قَلْبَكَ كَالسَّفِينَةِ تَتَلَقَّى مَا يَرِدُ عَلَيْهَا، فَاجْتَنِبْ إِثَارَةَ الشُّبُهَةِ وَإِيرَادَهَا عَلَى نَفْسِكَ أَوْ غَيْرِكَ، فَالشُّبُهَةُ خَطَافَةٌ، وَالْقُلُوبُ ضَعِيفَةٌ، وَكَثْرُ مَنْ يُلْقِيهَا حَمَالَةُ الْحَطَبِ. الْمُبْتَدَعَةُ. فَتَوَقَّهْمُ.

هذه الوصية أوصى بها شيخ الإسلام ابن تيمية تلميذه ابن القيم قال: «لا تجعل قلبك كالسفنجة يشرب ويقبل كل ما ورد عليه، ولكن اجعله زجاجة صافية تبين ما وراءها ولا تتأثر بما يرد عليها».

كثير من الناس يكون قلبه غير مستقر ويورد شبهات. وقد قال العلماء رحمهم الله قولاً حقاً وهو: أننا لو طاوينا الإيرادات العقلية ما بقي علينا نص إلا وهو محتمل مشتب، ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يأخذون بظاهر القرآن وبظاهر السنة، ولا يوردون: ولو قال قائل.

نعم إن كان الإيراد قوياً أو كان هذا الإيراد قد أورد من قبل فحينئذ يبحث الإنسان، أما أن يجعل يفكر إذا نام على فراشه «إنما الأعمال بالنيات» أفلا يحتمل بالأعمال العبادات الأثم: كالصلاة والزكاة والحج والصوم، والباقي لا نية له. يمكن، فيه احتمال عقلياً؛ ثم يبنى على الاحتمال الذي أورده على نفسه احتمالات أخرى. وما أكثر هذا في بعض الناس، نجده دائماً يورد إيرادات وهذا في الواقع ثلّم عظيم في تلقي العلم.

اترك الإيرادات وامش على الظاهر فهو الأصل، ولهذا اقرأوا الآن سير النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة والأحاديث تجدون المسألة على ظاهرها.

(١) «مفتاح دار السعادة»: (ص ١٥٣).

لَمَّا حَدَّثَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الصَّحَابَةَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي الثَّلَاثِ الْآخِرِ.

قالوا: يا رسول الله كيف ينزل؟ وهل السماء تسعه؟ وهل يخلو من العرش؟ هل قالوا هكذا؟! أبداً.

لَمَّا حَدَّثَهُمْ أَنَّ الْمَوْتَ يُوْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى صُورَةِ كَبْشٍ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ بَلَا مَوْتَ، ثُمَّ يَذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

قالوا: كيف يكون الموت كبشاً؟ ما قالوا هذا!!

لذلك أنصح نفسي وإياكم ألا تورّدوا هذا على أنفسكم، لاسيما في أمور الغيب المحضة، لأن العقل بحار فيها، ما يدركها، فدعها على ظاهرها ولا تتكلم فيها.

قل سمعنا وآمنا وصدقنا، وما وراءنا أعظم مما نتخيل. فهذا مما ينبغي لطالب العلم أن يسلكه.

٦١. احْذَرِ اللَّحْنَ:

ابْتَعِدْ عَنِ اللَّحْنِ فِي اللَّفْظِ وَالْكَتَبِ، فَإِنَّ عَدَمَ اللَّحْنِ جَلَالَةٌ، وَصِفَاءُ ذَوْقٍ، وَوُقُوفٌ عَلَى مِلَاحِ الْمَعَانِي لِسَلَامَةِ الْمَبَانِي: فَعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ، فَإِنَّهَا تَزِيدُ فِي الْمُرُوءَةِ» (١). وَقَدْ وَرَدَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَضْرِبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَى اللَّحْنِ (٢). وَأَسْنَدَ الْخَطِيبُ (٣). عَنِ الرَّحْبِيِّ قَالَ: «سَمِعْتُ

(١) «الجامع» للخطيب: (٢/ ٢٥).

(٢) «الجامع» للخطيب: (٢/ ٢٨، ٢٩).

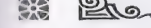
(٣) «الجامع» للخطيب: (٢/ ٢٨).

بعض أصحابنا يقول: إذا كَتَبَ لِحَانَ، فَكَتَبَ عَنِ اللَّحَّانِ لِحَانَ آخَرَ، صار الحديث بالفارسية^(١)! وأنشد المبرد.

النَّحْوُ يَبْسُطُ مِنْ لِسَانِ الْأَلَكِنْ ❖❖❖ وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنْ
فَإِذَا أَرَدْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجْلَهَا ❖❖❖ فَأَجْلُهَا مِنْهَا مُقِيمُ الْأَلْسُنِ^(٢)

وعليه، فلا تحفل بقول القاسم بن مَخِيْمِرَةَ. رحمه الله تعالى: «تَعْلَمُ النَّحْوُ: أَوَّلُهُ شَغْلٌ، وَآخِرُهُ بَغْيٌ».

ولا بقول بِشْرِ الحافي. رحمه الله تعالى: «لَمَّا قِيلَ لَهُ: تَعْلَمُ النَّحْوُ قَالَ: أَضِلُّ. قَالَ: قُلْ ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا. قَالَ بِشْرٌ: يَا أَخِي! لِمَ ضَرَبْتَهُ؟ قَالَ: يَا أَبَا نَصْرٍ! مَا ضَرَبْتَهُ وَإِنَّمَا هَذَا أَصْلٌ وَضَعْتُ. فَقَالَ بِشْرٌ: هَذَا أَوَّلُهُ كَذِبٌ، لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ». رواهما الخطيب في «اقتضاء العلم العمل».



اللحن معناه: الميل سواء كان في قواعد التصريف أو في قواعد الإعراب. قواعد الإعراب يمكن الإحاطة بها، فيعرف الإنسان القواعد ويطبق لفظه أو كتابته عليها.

قواعد التصريف هي المشكلة، أحياناً يأتي الميزان الصرفي على غير قياس، يأتي سماعياً بحثاً، وحينئذ لا يخلو إنسان في الغلط فيه.

عندك جموع التكسير، تحتاج إلى ضبط. عندك أبنية المصادر تحتاج إلى ضبط، ومع هذا لو ضبطها سوف تجد شاذاً كثيراً عنها، ولكن نقول: سدد وقارب. فعليك بأن تعدل لسانك وأن تعدل بنانك، وأن لا تكتب إلا بعربية، ولا تنطق إلا بعربية،

(١) «الجامع» للخطيب : (٢ / ٢٨).

(٢) لبعض العلماء تعقيب على ما أنشده المبرد من أن أجل العلوم علم التوحيد، لكن الجملة هنا نسبة إلى علوم الآلة. والله أعلم.

فإن عدم اللحن جلالة وصفاء لون ووقوف على ملامح المعاني لسلامة المباني. كلما سلم المبني اتضح المعنى.

وعن عمر رضي الله عنه قال: «تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة». هذه يقولها في عهده، يأمر بتعلم العربية خوفاً من أن تتغير بلسان الأعاجم بعد الفتوحات.

لكن مع الأسف أننا في هذا الزمن - الذي ليس لنا شخصية وصرنا أذياً وأتباعاً لغيرنا - صار منا من يرى أن من تكلم بالإنجليزية أو بالفرنسية هو ذو مروءة، ويفخر إذا كان يعرف الإنجليزية أو الفرنسية، بل إن بعضنا يعلم أولاده اللغة غير العربية. بعض الصبيان يأتي يقول مع السلامة، فيقول: باي باي.

في الهاتف يقول: آلو. لماذا لم تقل: السلام عليكم، لأنك الآن تستأذن، فهذه أشياء - مع الأسف - لما كنا ليس لنا شخصية، ويجب أن يكون لنا شخصية، لأننا والحمد لله أهل دين وشريعة، لكن صار بعضنا أذياً.

عمر يقول: «تعلموا العربية فإنها تزيدكم مروءة»، وبناءً على ذلك: كلما كان الإنسان أعلم بالعربية صار أكبر مروءة وأكثر.

قال: «وقد ورد عن جماعة من السلف أنهم كانوا يضربون أولادهم على اللحن، واللحن قليل في ذلك الوقت، ومع ذلك يضربونهم عليه. عندنا الآن لا أحد يضرب على اللحن لا أولاده ولا تلاميذه ولا غيره، على الأقل بالنسبة للتلاميذ إذا أخطأ الإنسان في العربية فرد عليه حتى لا يكون أخطأ، وظن أن سكوتك يدل على صحة ما نطق به».



٦٢. الإجهاض الفكري:

احذر (الإجهاض الفكري)، بإخراج الفكرة قبل نضوجها.



هذا بمعنى ما سبق، أنك لا تتعجل فيما يتبين لك شيئاً تخرجه، لاسيما إذا كان هذا الشيء الذي أنت تريد أن تخرجه مخالفاً لقول أكثر العلماء أو مخالفاً لما تقتضيه الأدلة الأخرى الصحيحة، لأن بعض الناس يمشي مع بُنيات الطريق، فتجده إذا مرّ بحديث - ولو كان ضعيفاً شاذاً - أخذ به، ثم قام يتكلم به في الناس، فيظن الناس لهذا أنه أدرك من العلم ما لم يدركه غيره. فنقول الذي بينك وبين الله: إذا رأيت حديثاً يدل على حكم تعارضه الأحاديث الصحيحة التي هي عماد الأمة، والتي تلقاها الأمة بالقبول فلا تتعجب، وكذلك إذا رأيته على حكم خالف الجمهور، فلا تتعجب. لكن إذا تبين لك الحق فلا بد من القول به.

٦٣. الإسرائيليات الجديدة^(١):

احذر الإسرائيليات الجديدة في نَفَثَاتِ المستشرقين، من يهودٍ ونصارى، فهي أشدُّ نكايَةً وأعظمُ خَطَرًا من الإسرائيليات القديمة، فإن هذه قد وضَحَ أمرها ببيان النبي ﷺ الموقف منها، ونَشَرُ العلماءِ القولَ فيها، أما الجديدة المُتَسَرِّبَةُ إلى الفكرِ الإسلامي، في أعقابِ الثَّورَةِ الحضارية، واتِّصالِ العالمِ ببعضه ببعض، وكَبْحِ المدِّ الإسلامي، فهي شرٌّ محضٌ، وبلاءٌ مُتَدَفِّقٌ، وقد أخذت بعضُ المسلمين عنها سِنَةً، وخَفَضَ الجَنَاحَ لها آخرون، فاحذَرُوا تَقَعَّ فيها، وقى الله المسلمين شرَّها.



يريد بهذا الأفكار الدخيلة التي دخلت على المسلمين بواسطة اليهود والنصارى، فهي ليست إسرائيلية إخبارية، بل إسرائيلية فكرية دخل على كثير من الكتاب

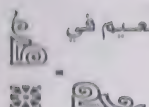
(١) «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها» لعَلَّالِ الفاسي: (صفحة ب)

الأدبيين، وغير الأدبيين، أفكار دخيلة في الواقع منها ما يتعلق بالمعاملات، ومنها ما يتعلق بالعبادات، ومنها ما يتعلق بالأنكحة، حتى أن بعض الكتاب ينكر تعدد النساء الذي ذهب كثير من العلماء إلى أن التعدد أفضل من الإفراء، وهو ينكر التعدد ويقول هذا في زمن وكى وراح، ولم يدر أن التعدد في هذا الزمن أشدَّ إلحاحاً منه فيما سبق لكثرة النساء وكثرة الفتن واحتياج النساء إلى ما يحصن فروجهن. كذلك أيضاً من بعض الأفكار ما يتعلق بالخلافة والإمامة، كيف كان أبو بكر يُبَايع له دون أن يستشار الناس كلهم، حتى العجوز والطفل... وما أشبه ذلك.

٦٤. احذر الجدال البيزنطي^(١):

أي الجدال العقيم، أو الضئيل، فقد كان البيزنطيون يتحاورون في جنس الملائكة والعدو على أبواب بلدتهم حتى داهمهم. وهكذا الجدال الضئيل يصد عن السبيل.

وهدي السلف: الكف عن كثرة الخصام والجدال، وأن التوسع فيه من قلة النوع، كما قال الحسن، إذ سمع قومًا يتجادلون. «هؤلاء ملأوا العبادة، وخف عليهم القول، وقل ورعهم، فتكلموا». رواه أحمد في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية»^(٢).



وهذا مهم، الحذر من الجدال البيزنطي، وهو الجدال العقيم، الذي لا فائدة منه، أو الجدال الذي يؤدي إلى التنطع في المسائل والتعمق فيها بدون أن يكلفنا الله ذلك، فدع هذا الجدال واتركه، لأنه لا يزيدك إلا قسوة في القلب وكراهة للحق، إذا كان مع خصمك وغلبك فيه، فلهذا دع هذا النوع من الجدال.

(١) «معجم التراكيب»: (ص ٢٨٠).

(٢) وذكره الحافظ ابن رجب في «فضل علم السلف على الخلف».

منذر أبو سعيد

٢٢

أما الجدل الحقيقي الذي يُقصد به الوصول إلى الحق، ويكون جدل مبني على السماحة، وعدم التنطع. فهذا أمر مأمور به. قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: ١٢٥).

ثم ذكر المؤلف - وفقه الله - مثلاً للجدل العقيم: جنس الملائكة ما هم؟ يجادل هؤلاء المتكلمون: جنسهم من كذا، وجنسهم من كذا.

ونحن نعلم أنهم خلقوا من نور وأنهم أجسام وأنهم لهم أجنحة وأنهم يصعدون وينزلون إلى آخر ما ذكره الله في الكتاب أو ما ذكره الرسول ﷺ في السنة من أوصافهم، ولا نتعد في أمور الغيب غير ما بلغنا، ولا نسأل: كيف ولم؟ لأن هذا أمر فوق العقل، وأيضاً سمعنا قصة مماثلة، كان العدو على أبواب المدينة، وكان الناس يتجادلون: أيما خلق أولاً: الدجاجة أم البيضة.

ومن ذلك أيضاً، ما ابتلي به أهل الكلام فيما يتعلق بالعتيدة وصاروا ينتطعون ويقولون مثلاً، كلام الله هل هو صفة فعلية أم ذاتية، وهل هو حادث أو قديم وما أشبه ذلك. من الكلام، وهل نزول الله إلى السماء الدنيا حقيقة أم مجاز وهل أصابعه حقيقة أم مجاز، وكم أصابعه وما أشبه ذلك. والله يا أخوة إن هذا البحث يقسي القلب ويتنزع الهيبة - هيبة الله عز وجل - وتعظيمه وإجلاله من القلب.

إن كان الإنسان يريد أن يتكلم عن صفات الله كأنه يشرح جثة ميت!! سبحان الله!! الناس قبل أن يدخلوا في هذا الأمر تجدهم إذا ذكر الله اقشعر جلده من هيبة الله وعظمته.

كل هذا البحث فيه عقيم، كن كما كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يسألون عن مثل هذه الأمور، لأنهم إذا سألوا وبحثوا ونقبوا، فإن الضريبة هي قسوة القلب، مؤكداً. لكن إذا بقى الرب عز وجل محل الإجلال والتعظيم في قلبك، وعدم البحث في هذه الأمور صار هذا أجل وأعظم، فاستمسك به فهذا إن شاء الله هو الحق.

منذر أبو سعيد

منذر أبو سعيد

٢٢١

شرح كتاب حلية طالب العلم

٦٥. لا طائفية ولا حزبية يُعقدُ الولاءُ والبراءُ عليها^(١):

أهل الإسلام ليس لهم سمة سوى الإسلام والسلام؛ فيا طالب العلم! بارك الله فيك وفي علمك، اطلب العلم، واطلب العمل، وادع إلى الله تعالى على طريقة السلف.

ولا تكن خراجاً ولا جاً في الجماعات؛ فتخرج من السعة إلى القوالب الضيقة، فالإسلام كله لك جادة ومنهج، والمسلمون جميعهم هم الجماعة، وإن يد الله مع الجماعة، فلا طائفية ولا حزبية في الإسلام. وأعيدك بالله أن تتصدع، فتكون نهاباً بين الفرق، والطوائف، والمذاهب الباطلة، والأحزاب الغالية، تعقد سلطان الولاء والبراء عليها.

فكن طالب علم على الجادة، تقض الأثر، وتتبع السنن، تدعو إلى الله على بصيرة عارفاً لأهل الفضل فضلتهم وسابقتهم. وإن الحزبية^(٢) ذات المسارات والقوالب المستحدثة التي لم يعهد لها السلف من أعظم العوائق عن العلم، والتفريق عن الجماعة، فكم أوهنت حبل الاتحاد الإسلامي، وغشيت المسلمين بسببها الغواشي. فاحذر. رحمك الله. أحزاباً وطوائف طاف طائفها، ونجم بالشر نأجمها، فما هي إلا كالميازيب، تجمع الماء كدراً، وتفرقه هدرًا، إلا من رحمه ربك، فصار على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

(١) انظر: «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣/ ٣٤٤-٣٤١، ٤١٥-٤١٦، ٤١٩) فهو مهم، و(٤، ٤٦، ١٥٤) مهم أيضاً، و(١١/ ٥١٢، ٥١٤، ٥١٥)، (٣/ ٣٤٢-٤١٦-٤٢١) فهرسها و(٣٦/ ١٧٩، ١٨٠)، و(٣٧/ ٢٨).

(٢) وفي «حكم الإنتماء» لرافقه فوائد وزوائد.

منذر أبو سعيد

منذر أبو سعيد

٢٢٢

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - عند علامة أهل العبودية^(١) : (العلامة الثانية: قوله: «ولم ينسبوا إلى اسم» أي: لم يشتهروا باسم يعرفون به عند الناس من الأسماء التي صارت أعلاماً لأهل الطريق. وأيضاً، فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد يجري عليهم اسمه، فيعرفون به دون غيره من الأعمال، فإن هذا آفة في العبودية، وهي عبودية مقيدة.

وأما العبودية المطلقة، فلا يعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها، فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها، فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم، فلا يتقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا يزي، ولا طريق وضعي اصطلاح، بل إن سئل عن شيخه؟ قال: الرسول. وعن طريقه؟ قال: الاتباع. وعن خرقته؟ قال: لباس التقوى. وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة. وعن مقصده ومطلبه؟ قال: «يريدون وجهه». وعن رباطه وعن خانكاه؟ قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ (سورة

النور: ٣٦-٣٧). وعن نسبه؟ قال:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ❖❖❖ إذا افتخروا بقبس أو تميم

وعن مأكله ومشربه؟ قال: «مالك ولها؟ معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وترعى الشجر، حتى تلقى ربها».

وأحسرتاه تقضى العمر وانصرفت ❖❖❖ ساعاته بين ذل العجز والكسل

والقوم قد أخذوا درب النجاة وقد ❖❖❖ ساروا إلى المطلب الأعلى على مهل

منذر أبو سعيد

(١) مدارح السالكين: (٣/ ١٧٢).

منذر أبو سعيد

٢٢٣

شرح مصنف حلية طالب العلم

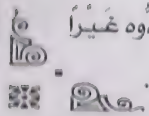
ثم قال: قوله: «أولئك ذخائر الله حيث كانوا»، ذخائر الملك: ما يخبأ عنده، ويذخره لمهامته، ولا يبذره لكل أحد، وكذلك ذخيرة الرجل: ما يذخره لحوائجه ومهامته. وهؤلاء لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم، غير مشار إليهم، ولا متميزين برسم دون الناس، ولا منتسبين إلى اسم طريق أو مذهب أو شيخ أو زي، كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة.

وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفات، فإن الآفات كلها تحت الرسوم والتقيد بها، ولزوم الطرق الاصطلاحية، والأوضاع المتداولة الحادثة. هذه هي التي قطعت أكثر الخلق عن الله، وهم لا يشعرون. والعجب أن أهلها هم المعروفون بالطلب والإرادة، والسير إلى الله، وهم - إلا الواحد بعد الواحد - المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود. وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ فقال: ما لا اسم له سوى «السنة». يعني: أن أهل السنة ليس لهم اسم ينسبون إليه سواها.

فمن الناس من يتقيد بلباس غيره، أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره، أو مشية لا يمشي غيرها، أو يزي وهيئة لا يخرج عنهما، أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره وإن كان أقرب إلى الله ورسوله منه.

فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه، قد قيدتهم العوائد والرسوم، والأوضاع، والاصطلاحات عن تجريد المتابعة، فأضحوا عنه بمعزل، ومنزلتهم منها أبعد منزل، فتري أحدهم يتعبد بالرياضة، والخلو، وتفريغ القلب، ويعبد العلم قاطعاً له عن الطريق، فإذا ذكر له الموالاة في الله، والمعادة فيه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، عد ذلك فضولاً وشرّاً، وإذا رآوا بينهم من يقوم بذلك، أخرجوه من بينهم، وعدوه غيراً عليهم، فهؤلاء أبعد الناس عن الله، وإن كانوا أكثر إشارة. والله أعلم، أهـ.

منذر أبو سعيد



هذا فصل مهم، وهو تخلي طالب العلم عن الطائفية والحزبية، بحيث يعقد الولاء والبراء على طائفة معينة أو على حزب معين، فإن هذا لاشك خلاف منهج السلف، السلف الصالح ليس عندهم حزبية كلهم حزب واحد، كلهم ينضمون تحت قول الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (سورة الحج: ٧٨).

فلا حزبية ولا تعدد ولا موالاتة ولا معاداة إلا على حسب ما جاء في الكتاب والسنة.

فمن الناس مثلاً من يتحزب إلى طائفة معينة، يقرر منهجها ويستدل عليه بالأدلة التي قد تكون دليل عليه، وقد تكون دليل له ويحامي دونه، ويضلل من سواه حتى ولو كانوا أقرب إلى الحق منها ويأخذ بمبدأ: من ليس معي فهو عليّ.

وهذا مبدأ خبيث، يعني بعض الناس يقول: إذا لم تكن معي فأنت عليّ، هناك وسط بين أن يكون لك أو عليك، وإذا كان عليك في الحق فليكن عليك فإنه في الحقيقة معك، لأن النبي ﷺ قال: «انصروا أخاك ظالماً أو مظلوماً»^(١). ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم، فلا حزبية في الإسلام. ولذلك لما ظهرت الأحزاب في المسلمين تنوعت الطرق وتفرقت الأمة، وصار بعضهم يضلل بعضاً ويأكل لحم أخيه ميتاً، فالواجب عدم ذلك.

الآن مثلاً يكون بعض الناس طالب علم عند شيخ من المشايخ، ينتصر لهذا الشيخ بالحق وبالباطل. وما في سواه يضلله ويدعه ويرى أنه - شيخه - العالم المصلح، ومن سواه إما جاهل وإما مفسد، وهذا غلط كبير، خذ الحق من أي إنسان، وإذا استروحت نفسك لشخص من الناس فالزم مجلسه، لكن لا يعني ذلك أن تكون معه على الحق والباطل، وأن تضلل من سواه وتزدرهم أو ما أشبه ذلك فإن هذا غلط.

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥٢) كتاب الإكراه/ باب يمين الرجل لصاحبه.

يقول الشيخ: «أهل الإسلام ليس لهم سمة سوى الإسلام والسلام» صحيح ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (سورة الحج: ٧٨). كلنا مسلمون، فهذه سمة المسلم وعلامته: مسلماً لله، مستسلماً له، قائماً بأمره تابعاً لرسوله. هذا هو سمة المسلم.

فيا طالب العلم بارك الله فيك وفي علمك اطلب العلم واطلب العمل، لا تكن مثل بعض الناس، ليس إلا كتبٌ مجموعة، يحفظ كثيراً ويفهم كثيراً، لكنه يعمل قليلاً. فهذا لا يُنتج.

كن طالباً للعلم عاملاً به، داعياً إلى الحق. ثلاثة أشياء: صدق الطلب، العمل به، الدعوة. لا بد من هذا، أما مجرد أن تحشر العلوم ولا ينتفع الناس بعلمك، فهذا نقص كبير.

وادعُ إلى الله على طريقة السلف. وما هي طريقة السلف في الدعوة إلى الله؟ هي التي أرشدهم الله إليها بقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: ١٢٥). لين في موضع اللين، وشدة في موضع الشدة.

قال: «ولا تكن خراجاً ولا جاجاً في الجماعات، فتخرج من السعة إلى القنابل الضيقة، فالإسلام كله لك جادة ومنهج».

يقول: إن بعض الناس يكون ولاجاً خراجاً، بينما تجده منضماً إلى قوم أو فئة، اليوم تجده خارجاً منها وواجاً في جهة أخرى، وهذا مضیعة للوقت، ودليل على أن الإنسان ليس له قاعدة يبني عليها حياته.

يقول: «المسلمون جميعهم هم الجماعة، وإن يد الله مع الجماعة، فلا طائفية ولا حزبية في الإسلام». بل يجب أن نكون أمة واحدة، وإن اختلفنا في الرأي، أما أن نكون أحزاباً: هذا إخواني - يعني من الإخوان المسلمين - وهذا سلفي، وهذا تبليغي،

وهذا لا يجوز، الواجب أن كل هذه الأسماء ينبغي أن تزول. وتكون أمة واحدة، وحزب واحد على أعدائنا.

قال: «واعينك بالله أن تتصدع، فتكون نهاباً بين الفرق، والطوائف، والمذاهب الباطلة، والأحزاب الغالية، تعقد سلطان الولاء والبراء عليها». هذه أيضاً طريق سيئة، أن يكون الإنسان نهاباً بين الفرق والطوائف، يأخذ من هذا، ومن هذا ثم لا يستقر على رأي. فإن هذا آفة عظيمة، والواجب على الإنسان أن يكون مختاراً ما هو أنسب في العلم والدين ويستمر عليه وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «من بورك له في شيء فليزله». وهذه في الحقيقة قاعدة لمنهاج المسلم يجب أن يسير عليها، من بورك له في شيء فليزله وليستمر عليه حتى لا تتقطع أوقاته يوماً هنا ويوماً هنا.

يقول: «فكن طالب علم على الجادة، تقفوا الأثر، وتتبع السنن، تدعو إلى الله على بصيرة عارفاً لأهل الفضل فضلهم وسابقتهم».

هذه أيضاً وصية نافعة، أن الإنسان ينبغي له أن يتبع الأثر وأن يدع الأهواء والأفكار الواردة على الإسلام والتي هي في الحقيقة دخيلة على الإسلام وبعيدة الوضوح.

ثم نقل كلام ابن القيم: (العلامة الثانية) قوله: «ولم يُنسبوا إلى اسم» أي: لم يشتهروا باسم يُعرفون به عند الناس من الأسماء التي صارت أعلاماً لأهل الطريق.

وأيضاً، فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد يجري عليهم اسمه، فيعرفون به دون غيره من الأعمال، فإن هذا آفة في العبودية، وهي عبودية مقيدة. وأما العبودية المطلقة، فلا يُعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها.

هذا هو الصحيح، العبودية المطلقة أن يعبد الإنسان ربه على حسب ما تقتضيه الشريعة. مرة من المصلين، ومرة من الصائمين، ومرة من المجاهدين ومرة من المتصدقين حسب ما تقتضيه المصلحة، ولذلك تجد النبي ﷺ هكذا حاله، لا تكاد تراه

صائماً إلا وجدته صائماً ولا مفطراً إلا وجدته مفطراً، ولا قائماً إلا وجدته قائماً. يتبع المصلحة، أحياناً يترك الأشياء التي يحبها من أجل مصلحة الناس، فإياك أن تكون قاصراً على عبادة معينة، بحيث لا تتزحزح عنها.

قال: «فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها»، فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم، فلا يتقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا بزي، ولا طريق وضعي اصطلاحي، بل إن سئل عن شيخه؟ قال: الرسول. وعن طريقه؟ قال: الاتباع. وعن خرقته؟ قال: لباس التقوى. وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة. وعن مقصده ومطلبه؟ قال: **«يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»**. وعن رباطة وعن خانكاه؟ قال: **«فِي بُيُوتِ أَذُنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعُ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ»** (سورة النور: ٣٦-٣٧). وعن نسبه؟ قال:

أبى الإسلام لا أب لي سواه ❖❖❖ إذا افتخروا بقبس أوثميم

وعن مأكله ومشربه؟ قال: «مالك ولها؟ معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وترعى الشجر، حتى تلقى ربها».

هذه قالها النبي ﷺ في ضالة الإبل، لما سئل عن إلحاقها غضب عليه الصلاة والسلام. وقال: **«مالك ولها؟ دعها فإن معها حذاؤها وسقاؤها ترد وترعى الشجر حتى تلقى ربها»** (١).

ابن القيم - رحمه الله - نقلها إلى هذا المعنى الجليل، يعني: هؤلاء العباد الذين تفنوا في العبادة وأخذوا لكل نوع منها نصيب. لو سئل من أين يجري عليك الرزق. يجيب: مالك ولها دعني!! يرزقني الله عز وجل.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٠) ومالك في كتاب الأقضية حديث (٤٦)، والبخاري في كتاب العلم باب/ ٢٨. ومسلم في كتاب اللقطة حديث ١، ٢، ٥، ٧، ٨، ٩.

واحسرتاه تَقْضَى الْعُمْرُ وَانْصَرَمَتْ ❖❖❖ ساعاته بين ذُلِّ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْقَوْمُ قَدْ أَخَذُوا دَرْبَ النِّجَاةِ وَقَدْ ❖❖❖ سَارُوا إِلَى الْمَطْلَبِ الْأَعْلَى عَلَى مَهَلٍ
ثم قال: قوله: «أولئك ذخائر الله حيث كانوا»، ذخائر الملك: ما يُخْبَأُ عنده، ويُنْخَرُ لهمايته، ولا يبذلُه لكل أحد، وكذلك ذخيرة الرجل: ما يُنْخَرُ لحوائجه ومهماتِه. وهؤلاء لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم، غير مُشَارِ إليهم، ولا مُتَمَيِّزِينَ برسم دون الناس، ولا مُنْتَسِبِينَ إلى اسم طريق أو مذهب أو شيخ أو زِيٍّ، كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة. هؤلاء أبعد الخلق عن الأفت، فإن الأفت كلها تحت الرسوم والتقيّد بها، ولزوم الطُرُق الاصطلاحية، والأوضاع المتداولة الحادثة. هذه هي التي قَطَعَتْ أَكْثَرَ الْخَلْقِ عَنِ اللَّهِ، وهم لا يَشْعُرُونَ.

صحيح هذا . . لاشك أن الأمر كما قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - هؤلاء الذين لهم مراسم معينة، ولهم طقوس معينة، وأشكال معينة، هؤلاء لاشك أنهم يَنْقَطِعُونَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بحسب ما معهم من هذه الرسوم اصطلاحية وما أشبهها، تجد الواحد منهم إذا رأيته قلت: من هذا الرجل؟ من هذا العالم. لكنه عالم بالزي والشكل فقط، وليس عنده علم راسخ، بل وربما نقول إيمانه ضعيف أيضاً، وإلا لكان يعتمد على ما عنده من العلم والإيمان والدعوة والصالح. قال:

«وَالْعَجَبُ أَنَّ أَهْلَهَا هُمُ الْمَعْرُوفُونَ بِالطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ، وَالسَّيْرُ إِلَى اللَّهِ، وَهُمْ - إِلَّا الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ - الْمَقْطُوعُونَ عَنِ اللَّهِ بِتِلْكَ الرُّسُومِ وَالْقِيُودِ».

العجب من أن الإنسان يستغرب أن يكون هؤلاء الذين أخذوا العلم بالرسوم اصطلاحات الحادثة، هم المعروفون بالطلب والإرادة لأنهم يغرون الناس بلباسهم ونبرات كلامهم، وغير ذلك.

ثم قال: «وقد سُئِلَ بعضُ الْأَثَمَةِ عَنِ السُّنَّةِ؟ فَقَالَ: مَا لَا اسْمَ لَهُ سِوَى «السُّنَّةِ». يعني: أن أهل السُّنَّةِ ليس لهم اسم يُنسَبُونَ إليه سِوَاهَا. فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّقِيْدُ بِلِبَاسٍ غَيْرِهِ، أَوْ بِالْجُلُوسِ فِي مَكَانٍ لَا يَجْلِسُ فِي غَيْرِهِ، أَوْ مَشْيَةٍ لَا يَمْشِي غَيْرَهَا، أَوْ بِزِيٍّ وَهَيْئَةٍ لَا يَخْرُجُ عَنْهَا، أَوْ عِبَادَةٍ

معينة لا يتعبد بغيرها وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره وإن كان أقرب إلى الله ورسوله منه. فهؤلاء كلُّهم مَحْجُوبُونَ عَنِ الظُّفْرِ بِالْمَطْلُوبِ الْأَعْلَى، مَصْدُودُونَ عَنْهُ، قَدْ قَبِلَتْهُمْ الْعَوَائِدُ وَالرُّسُومُ، وَالْأَوْضَاعُ، وَالْإِصْطِلَاحَاتُ عَنْ تَجْرِيدِ الْمَتَابَعَةِ، فَأَضْحَوْا عَنْهُ بِمَعْزَلٍ، وَمَنْزِلَتْهُمْ مِنْهَا أَبْعَدُ مَنْزِلٍ، فَتَرَى أَحَدَهُمْ يَتَعَبَّدُ بِالرِّيَاضَةِ، وَالْخُلُوعِ، وَتَضْرِيقِ الْقَلْبِ، وَيَعُدُّ الْعِلْمَ قَاطِعاً لَهُ عَنِ الطَّرِيقِ، فَإِذَا ذُكِرَ لَهُ الْمَوَالِدَةُ فِي اللَّهِ، وَالْمَعَادَةُ فِيهِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، عُدَّ ذَلِكَ فُضُولاً وَشَرّاً، وَإِذَا رَأَوْا بَيْنَهُمْ مَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ، أَخْرَجُوهُ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَعَدُّوهُ غَيْراً عَلَيْهِمْ، فَهَؤُلَاءِ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ إِشَارَةً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ» اهـ .

قوله: «يتعبد بالرياضة» المراد: الرياضة القلبية على زعمهم، فتجدهم منعزلين عن الناس، بعيدين عن الناس، لا يأمرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَا يَتَعَلَّمُونَ ظَنّاً مِنْهُمْ أَنَّ هَذَا هُوَ الْخَيْرُ، وَلَكِنْهُمْ فِي الْوَاقِعِ ضُلُوعٌ، الْخَيْرُ أَنْ تَتَّبَعَ الْخَيْرَ حَيْثُ مَا كَانَ.

فتارة في مجالس العلم، وتارة في مصارف الجهاد، وتارة في الحسبة، وتارة في الصلاة وتارة في القرآن، حسب ما ترى أنه أنفع لعباد الله وأخشى لقلبك، لكن من الناس مَنْ لَا يَتَحَمَّلُ، فَتَجِدُهُ يَرْكُنُ إِلَى شَيْءٍ مَعِينٍ مِنَ الْعِبَادَةِ يَدْعِي أَنْ فِيهِ صَلَاحٌ لِقَلْبِهِ وَيَسْتَمِرُّ عَلَيْهِ.

❖❖❖ ٦٦. نَوَاقِصُ هَذِهِ الْحَلِيَّةِ:

يا أخي! - وَقَالَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ الْعَثَرَاتُ - إِنْ كُنْتَ قَرَأْتَ مَثَلاً مِنْ «حَلِيَّةِ طَالِبِ الْعِلْمِ» وَأَدَابِهِ، وَعَلِمْتَ بَعْضاً مِنْ نَوَاقِصِهَا، فَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ خَوَارِمِهَا الْمُسْئِدَةُ لِنِظَامِ عَقِيدَتِهَا:

١ - إِفْشَاءُ السِّرِّ.

٢ - وَنَقْلُ الْكَلَامِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى آخَرِينَ.

٣- والصلفُ واللَّسَانَةُ.

٤- وكثرةُ المزاح.

٥- والدُّخُولُ في حديثٍ بين اثنين.

٦- والحَقْدُ.

٧- والحَسَدُ.

٨- وسوءُ الظَّنِّ.

٩- ومُجَالَسَةُ المبتدعةِ.

١٠- ونقل الخُطَى إلى المحارم.

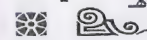
فاحذر هذه الأثامَ وأخواتها، واقصر خطاك عن جميع المحرمات والمحارم، فإن فعلت، وإلا فاعلم أنك رقيق الديانة، خفيف، لعاب، مغتاب، نمام، فأنت لك أن تكون طالب علم، يُشار إليك بالبُنان، مُنعماً بالعلم والعمل؟

سَدَّدَ اللهُ الخُطَى، ومنحَ الجميعَ التقوى وحُسْنَ العاقبةِ في الآخرةِ والأولى. وصلى اللهُ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم.



بكر بن عبد الله أبو زيد

في ٢٥/١٠/١٤٠٨هـ



هذه النواقض والخوارم التي ذكرها هي في الحقيقة خَدَشٌ عظيم لطالب العلم وللعمامة أيضاً.

١ - إفشاء السر محرّم: لأنه خيانة للأمانة. فإذا استكتمك الإنسان حديثاً فإنه لا يحل لك أن تفشيهِ لأي أحد كان، واحذر أن يخدعك أحد، لأن بعض الناس يظن أنه أفسحِي إليك بحديث، ثم يأتي إليك وكأن الأمر مسلّم أنه علم بذلك. فيقول مثلاً:

ما شاء الله، من أدراك عن كذا وكذا، فُيُبْهَت الآخر، فيظن أنه قد علم ثم يُفْضِي له السر وهذه طريقة تجسس من بعض الناس.

فاحذر هذا، فما دمت استكتمك صاحبك فإذا جاء أحد يبهتك بمثل هذا الأسلوب، فلا تخف. قل: أبداً، ما صار هذا، وأنا أبرئ إلى الله منه - وتقصد منه - هذا الكلام الذي قلت، لأنه تجسس.

قال العلماء: وإذا حدثك الإنسان بحديث والتفت، فقد استأمنك، فهو أمانة وسر، فلا يجوز أن تفشيهِ. حتى وإن لم يقل لا تخبر أحداً. لأن التفاته يعني أنه لا يريد أحداً يسمعه. فإذا أفضيته فهذا من إفشاء السر.

٢ - ونقل الكلام من قوم إلى آخرين: وهذه هي النميمة، وقد قال النبي ﷺ: لا يدخل الجنة قتات^(١). أي: نمام، وممرّ بقبرين يعذبان، وذكر أن أحدهما كان يمشي بالنميمة^(٢). فهي من كبائر الذنوب.

يأتي الشخص لآخر ويقول: فلان يقول فيك كذا وكذا. لكن إذا كان المقصود بذلك النصيحة. كيف النصيحة؟! يعني: أن هذا الرجل مغتر بالشخص ويُفْضِي إليه أسرارهِ ويستشيره في أموره، فجاء إنسام وقال: يا فلان، أنا رأيتك تفضي سرّك إلى فلان وتثق به، والرجل ليس بأمين، الرجل يفشي كل ما تقول. فهل يعتبر هذا نميمة؟ هذه نصيحة!

٣ - والصلفُ واللَّسَانَةُ، الصلف: يعني التشدد في الشيء، يكون الإنسان غير لين لا بمقاله ولا بحاله. بل هو صلت ولسن، يعني رفيع الصوت، أو يعني عنده بياناً يبيد به الباطل ويخفي به الحق.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب حديث (٤٨٧١) وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٦٤) وانظر طرقه وشواهد في بذل الإحسان لشيخنا أبي إسحاق الحويني. رقم (٣١).

وأما قوة الصوت وارتفاعه، فإنه ليس إلى اللسان، هذه من خلقة الله عز وجل، ولما أنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (سورة الحجرات: ٢). كان ثابت بن قيس رضي الله عنه - وهو من أحد الشعراء والخطباء - كان جهوري الصوت، فلزم بيته يبيكي، ولم يكن له وجه يخرج إلى الناس، ويقابل الناس به، ففقدته النبي صلى الله عليه وسلم فسأل عنه وأرسل إليه رسولاً، فقال: «إن الله أنزل هذه الآية واني خفت أن يحبط عملي وأنا لا أشعر». فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: «إِنَّهُ يَحْيَى سَعِيداً، وَيُقْتَلُ شَهِيداً، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ».

٤ - كثرة المزاح: ولم يقل المزاح لأن المزاح في الكلام، كالمزح في الطعام إن أكثر منه فسد الطعام، وإن لم تجعل فيه الملح لم يشتهي إليه الطعام. فكثرة المزاح تذهب الهيبة، وتنزل مرتبة طالب العلم. أما المزاح القليل الذي يقصد به إدخال السرور على صاحبك فهو من السنة، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً.

جاء رجل يريد أن يحمله على يعير يجاهد عليها في سبيل الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّا حَامِلُونَكَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ، قَالَ الرَّجُلُ كَيْفَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلَّا النَّوْقَ»^(١). فهذا مزح ولكنه حق.

وقال لأبي عمير - غلام صغير - معه طير يلعب به، فمات الطير. فدخل النبي صلى الله عليه وسلم عليه ذات يوم فقال: «يَا أَبَا عَمِيرٍ مَا فَعَلَ النَّغِيرَ»^(٢).

أما ما يفعله بعض الناس، كل كلامه مزح، فهذا كما أنه لا يليق بالرجل العاقل فضلاً عن طالب العلم، فإنه يجعل كلامه مزحاً حتى أن المخاطبين يقولون له أنت صادق أم تمزح؟ لأنه يجعل كل كلامه مزحاً.

٥ - الدخول في حديث بين اثنين: فإن بعض الناس إذا رأى اثنين يتحدثان، دخل بينهما وهذا كالمستلق للجدار، لم يأت البيوت من أبوابها.

(١) أخرجه أحمد (٢٦٧/٣) وأبو داود (٤٩٩٨) والترمذي (١٩٩١) في سننه، وفي الشرائع (٢٣٨) والبيهقي في الكبرى (٢٤٨/١٠) كتاب الشهادات/باب المزاح لا ترد به الشهادة
(٢) سبق تخريجه.

ولهذا كان من آداب حاضر صلاة الجمعة ألا يفرق بين اثنين كما جاءت به السنة، فالتفريق بين اثنين في الكلام وفي الحديث من خوارم المروءة، وكذلك أيضاً لا ينبغي إذا رأيت اثنين يتحدثان أن تقترب منهما، بل من الأدب والمروءة أن تبتعد، لأنه ربما يكون بينهما حديث السر ويخجلان أن يقولوا لك أبعد، فالحديث سر، أو إذا كانا لا يستطيعان ذلك عدلاً عن حديث السر فقطعت حديثهما.

٦ - الحقد: والحقد يعني الكراهية والبغضاء، فإن بعض الناس إذا رأى أن الله أنعم على غيره نعمة حقد عليه، مع أن هذا الذي أنعم عليه لم يتعرض له بسوء، لكن حاقده عليه. وما قصة ابني آدم بغريب علينا.

قرباً قريباً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. فقال الذي لم يتقبل منه إلى الذي تقبل منه لأقتلنك. كرهه وحقد عليه إلى حد أنه أودى بحياته، فقال له ذلك: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة المائدة: ٢٧). وليس بيدي تركية نفسي أو لثناء عليها.

وإنما يريد أن يحدث ذلك على التقوى حتى يُقبل منه. كأنه قال له: اتق الله يُقبل منك. ولكن: ﴿فَطَرَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ (سورة المائدة: ٣٠).

فلا يجوز للإنسان أن يحقد على أخيه المسلم، ولا سيما أن يكون سبب الحقد ما من الله عليه من النعمة سواء دينياً أو دنيوياً.

٧ - الحسد: من أخلاق اليهود، وبئس الخلق خلق الحسد، فما هو الحسد، الحسد قيل هو: أن يتمنى زوال نعمة الله على غيره.

يتمنى فقره إذا كان أنعم الله عليه بالمال، ونسيانه وجهله إذا كان أنعم الله عليه بالعلم، وفقد أولاده وعقم زوجته إذا كان الله من عليه بالأولاد وما أشبه ذلك.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «الحسد كراهة نعمة الله على غيره». يعني ما يتمنى زوالها، لكن يكره أن الله أنعم على هذا الإنسان بهذه النعمة، فأما لو تمنى أن يرزقه الله مثلها، فليس هذا من الحسد بل هذا من الغبطة، التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ»^(١). ومضار الحسد إحدى عشرة وهي:

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧) في كتاب التفسير/ تفسير سورة عبس.

- ١ - أنه من كبائر الذنوب .
- ٢ - أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . والحديث ضعيف^(١) .
- ٣ - أنه من أخلاق اليهود .
- ٤ - أنه ينافي الإخوة الإيمانية .
- ٥ - أنه فيه عدم الرضا بقضاء الله وقدره .
- ٦ - أنه سبيل للتعاسة .
- ٧ - الحاسد متبع لخطوات الشيطان .
- ٨ - يورث العداوة والبغضاء بين الناس .
- ٩ - قد يؤدي إلى العدوان على الغير .
- ١٠ - فيه إزدراء لنعمة الله على الحاسد .
- ١١ - يشغل القلب عن الله .

٨ - سوء الظن: أن يظن بغيره ظناً سيئاً، مثل أن يقول: لم يتصدق هذا إلا رياءً، لم يلق هذا الطالب هذا السؤال إلا رياءً ليعرف أنه طالب . وكان المنافقون إذا أتى المتصدق من المسلمين بالصدقة - إن كانت كثيرة - قالوا: مُرائي، وإن كانت قليلة، قالوا: إن الله غني عن صدقة هذا، فهم يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم . فإياك وسوء الظن .

فالواجب إحسان الظن بمن ظاهره العدالة، أما من ظاهره غير العدالة فلا حرج أن يكون في نفسك سوء الظن به، لكن مع ذلك عليك أن تتحقق حتى يزول ما في نفسك من هذا الوهم . لأن بعض الناس قد يسيء الظن بشخص ما بناءً على وهم كاذب لا حقيقة له .

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣) . والبخاري في التاريخ (٢٧٢/١/١) وعبد بن حميد في المنتخب (١٥٣-١٥٤) وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١٢٤/٦) . وابن ماجه (٤٢١٠) . وابن عدي في ترجمة عيسى الحناط (١٨٨٧/٥) الكامل في الضعفاء . وأخرجه أبو الشيخ في التنبيه والتوبيخ بسند ضعيف (٦٢، ٦١) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤١٩/٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٤٧/٣) وعبد الرزاق (٤٥/١) والخطيب في تاريخه (٢٢٧/٢) والعجلوني في كشف الخفا (٤٢٦/١) . والحديث ضعفه الألباني - رحمه الله - في ضعيف الجامع (٢١٩٦) .

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ (سورة الحجرات: ١٢) . ولم يقل كل الظن، لأن بعض الظنون لها أصل ولها مبرر ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (سورة الحجرات: ١٢) . وليس كل الظن، فالظن الذي يحصل فيه العدوان على الغير هذا لاشك أنه إثم، والظن الذي لا مستند له، هو أيضاً إثم .

٩ - ومجالسة المبتدعة: وليته عمم: مجالسة كل من تخرم مجالستهم المروءة، سواء كان ذلك لابتداع أو سوء أخلاق أو انحطاط رتبة عن المجتمع أو ما أشبه ذلك .

فينبغي لطالب العلم أن يكون مترفعاً عن مجالسة من تخذش مجالستهم المروءة أو تخذش الدين . لكن كأنه خص ذلك بالمبتدعة لأن المقام مقام تعليم، فإذا وجدنا مبتدعاً عنده طلاقة في اللسان، وسحر في البيان، فإنه لا يجوز أن يجلس إليه، لأنه مبتدع . لماذا لا يجوز؟

أولاً - لأننا نخشى من شره، فإن النبي ﷺ قال: «**إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ**»^(١) . قد يسحر عقولنا حتى نوافقه على بدعته .

ثانياً - أن فيه تشجيع لهذا المبتدع أن يكثر الناس حوله أو أن يجلس إليه فلان وفلان من الوجهاء والأعيان، فهذا يزيده رفعة واغتراراً بما عنده من البدعة وغروراً في نفسه .

ثالثاً - إساءة الظن بهذا الذي اجتمع إلى صاحب البدعة، وقد لا يتبين هذا إلا بعد حين .

١٠ - نقل الخطي إلى المحارم: يعني أن يمشي الإنسان إلى الأمور المحرمة، فإن هذا من خوارم هذه الحلية . إذ أن الذي ينبغي لطالب العلم أن يتجنب هذا، بل إن بعض العلماء يقول يتجنب حتى الخطي إلى أمر ينتقده الناس فيه، كما لو ذهب طالب العلم إلى مبيع النساء . النساء لها أسواق للبيع، فذهب طالب العلم لأسواق النساء، هل هذا مما يحمد عليه أو مما يذم عليه؟ مما يذم عليه، يقال فلان طالب العلم يروح لأسواق النساء، حتى لو قال أنا أريد أن أذهب لأسواق النساء حتى أشتري

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٧) في كتاب الطب/باب إن من البيان لسحراً .

لأهلي من هذه الأثواب التي تباع بالأسواق. قلنا وكُل من يشتري عنك، أما أنت طالب علم ينتقد عليك هذا الفعل، ويقتدي بك من نيته سيئة.

ثم قال: «فاحذر هذه الآثام وأخواتها، واقصر خطاك عن جميع المحرمات والمحارم، فإن فعلت، وإلا فاعلم أنك رقيق الديانة، خفيف، لعاب، مغتاب، نمائم، فأنى لك أن تكون طالب علم، يُشار إليك بالبنان، مُنعمًا بالعلم والعمل؟»

يعني: ينبغي للإنسان أن يُنزل منزلتها وألا يندسها بالأخلاق، لأن طالب العلم شرفه الله تعالى بالعلم وجعله قدوة، حتى إن الله تعالى رد أمور الناس عند الإشكال إلى العلماء. فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل: ٤٣).

فالحاصل إنك يا طالب العلم محترم فلا تنزل نفسك إلى ساحة الذل والضعفة، بل كن كما ينبغي أن تكون.

فهذه الحلية لاشك أنها مفيدة ونافعة لطالب العلم وينبغي للإنسان أن يحرص عليها ويتبعها، لكن لا يعني ذلك أن يقتصر عليها بل هناك كتب أخرى صُنفت في آداب العلم ما بين قليل وكثير ومتوسط، وأهم شيء أن الإنسان يترسم خطى النبي ﷺ ويمشي عليها، فهي الحلية الحقيقية التي ينبغي للإنسان أن يتحلى بها، كما قال سبحانه وتعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: ٢١).

نسأل الله تعالى أن يختم لنا ولكم بصلاح الأعمال، وأن يوفقنا للعمل بما يرضيه (*).

(*) انتهى سماحة الشيخ العلامة محمد بن عثيمين - رحمه الله - من شرح هذه الحلية المباركة في الثامن من شهر صفر لعام ١٤١٦ هـ. وانتهى جمع هذا الشرح وتحقيقه والتعليق عليه في الأول من جمادى الأولى لعام ١٤٢١ هـ. نسأل الله حسن القبول وأن يشيب مصنفها وشارحها ومحققها وناشرها حسن الجزاء.

وكتب

أبو مالك / محمد بن حمزة بن عبد الوهاب

دعوتكم من الكتاب

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الكتاب
٧	التعريف بالمؤلف
١١	التعريف بالشارح
١٥	مقدمة الحلية
٢١	الفصل الأول
٢١	آداب الطالب في نفسه
٢٨	العلم عبادة
٣٣	كن على جادة السلف الصالح
٣٥	ملازمة خشية الله تعالى
٣٧	دوام المراقبة
٤١	خفض الجناح ونبد الخيلاء والكبرياء
٤٤	القناعة والزهادة
٤٧	التحلي برونق العلم
٥٣	تحل بالمروءة
٥٥	التمتع بخصال الرجولة
٦٠	هجر الترفه
٦١	الإعراض عن مجالس اللغو
٦٢	الإعراض عن الهيشات
٦٣	التحلي بالرفق
٦٤	التأمل
	الثبات والثبات

الفصل الثاني

كيفية الطلب والتلقي

٦٧

٦٧

٨٨

الفصل الثالث

آداب الطالب مع شيخه

٩٥

٩٥

١٠٣

١٠٥

١٠٦

١٠٧

الفصل الرابع

أدب الزمالة

١٢٣

١٢٣

الفصل الخامس

آداب الطالب في حياته العلمية

١٢٧

١٢٧

١٣٠

١٣٣

١٣٦

١٣٩

١٤٤

١٤٥

كيفية الطلب ومراتبه

تلقي العلم عن الأشيخ

رعاية حرمة الشيخ

رأس مالك - أيها الطالب - من شيخك

نشاط الشيخ في درسه

الكتابة عن الشيخ حال الدرس والمذاكرة

التلقي عن المبتدع

احذر قرين السوء

كبر الهمة في العلم

النهمة في الطلب

الرحلة للطلب

حفظ العلم كتابة

حفظ الرعاية

تعاهد المحفوظات

التفقه بتخريج الفروع على الأصول

١٥٩

١٦١

١٦٢

١٧٠

١٧٠

١٧٣

١٧٥

١٧٧

١٧٨

١٨١

١٨٢

١٨٣

١٨٥

الفصل السادس

التحلي بالعمل

١٨٧

١٨٧

١٨٩

١٩٣

١٩٥

١٩٩

٢٠٠

٢٠١

٢٠٢

اللجوء إلى الله تعالى في الطلب والتحصيل

الأمانة العلمية

الصدق

جنة طالب العلم

المحافظة على رأس مالك (ساعات عمرك)

إجمام النفس

قراءة التصحيح والضبط

جرد المطولات

حسن السؤال

المناظرة بلا ماهرة

مذاكرة العلم

طالب العلم يعيش بين الكتاب والسنة وعلومها

استكمال أدوات كل فن

من علامات العلم النافع

زكاة العلم

عزة العلماء

صيانة العلم

المدارة لا المداينة

الغرام بالكتب

قوام مكتبتك

التعامل مع الكتاب

٢٠٤	ومنه
٢٠٤	إعجام الكتابة

الفصل السابع

المحاذير

٢٠٧	حلم اليقظة
٢٠٧	احذر أن تكون «أبشير»
٢٠٨	التصدر قبل التأهل
٢٠٩	التنمر بالعلم
٢١٠	تحيير الكاغد
٢١١	موقفك من وهم من سبقك
٢١٤	دفع الشبهات
٢١٥	احذر اللحن
٢١٨	الإجهاض الفكري
٢١٨	الإسرائيليات الجديدة
٢١٩	احذر الجدل البيزنطي
٢٢١	لا طائفية ولا حزبية يُعقد الولاء والبراء عليها
٢٢٩	نواقص هذه الحلية

